

الرائر الكاملة (٣)

علي شريعتي



علي شريعتي



فاطمة هي فاطمة

دار الأمير

سلسلة الآثار الكاملة - ٥-

فاطمة هي فاطمة

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة: هاجر القحطاني

دار الأمير

إسم الكتاب : فاطمة هي فاطمة

إسم المؤلف : د. علي شريعتي

إسم المترجم : هاجر القحطاني

تنضيد وإخراج : زهرين

تصميم الغلاف : بشير محمد

الترقيم الدولي : ISBN 978-9953-494-04-3

الطبعة الأولى : ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

الطبعة الثانية : ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م
(بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)

الناشر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

كافة الحقوق محفوظة ومُسجلة قانونياً للناشر بالإتفاق مع ورثة المؤلف

التوزيع في العراق:

دار الباقر - النجف الاشرف هـ: 07801263579



مؤسسة نشر اثار
الدكتور علي شريعتي

تلفاكس: +98 21 2232729
ص.ب: 6516-19395 طهران
www.shariati.com



دار الأمير للثقافة والعلوم
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر - بيروت - لبنان

تلفاكس: +961 1 27 64 49
ص.ب: 113/5551 الحمرا - بيروت - لبنان

Website: //http://www.daralameer.com
E-mail: daralameer@daralameer.com

وتستمر دار الأمير ...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمتة وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الانتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: إلهي علمني كيف أحيأ..، أمّا كيف أموت، فإنني سأعرفه. والحمد لله الذي نصر عبده.

محمد حسين بزي

مقدمة الناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلهي : لا تجعل إيماني بالإسلام، ومحبتني لآل الرسول ﷺ ، كإيمان المتاجرين بالدين ، وبالتعصب ، وبالرجعية . . كي لا يأسر رضى العوام حريتي ، وكى لا يُدفن ديني خلف «دكان ديني» ، وكى لا تصوغني العوام مقلداً للذين يقلدونني ، فأسلم من كتمان ما أراه حقاً لأنهم لا يستحسنونه !

إلهي : لا تُنعم عليّ بفضائل لا تنفع الناس ، ولا تبتلني بجهالة المعرفة المتوحشة المزخرفة ، التي تسلبني الحس الرفيع . .

إلهي : أحمدك كما حمدك علي بن الحسين بن علي عليه السلام على أنك جعلت أعدائي حمقى ، فهذه نعمة من لدنك تهبها عبادك المقربين .

إلهي : أنا أعلم أن إسلام رسولك ﷺ قد بدأ بـ«لا»^(١) ، مثلما أعلم أن تشييع وليك قد بدأ بـ«لا» أيضاً^(٢) فاجعلني يا باعث محمد ﷺ ويا حبيب علي عليه السلام بـ«إسلام - نعم» وبـ«تشييع - نعم كافرأ»^(٣) .

(١) إشارة إلى شعار التوحيد «لا إله إلا الله» .

(٢) هذه الـ(لا) قالها علي عليه السلام في شورى عمر ، إذ ردّها على عبد الرحمن بن عوف قوله .

(٣) نصوص من كتاب الدعاء للدكتور شريعتي ، والذي سيصدر قريباً عن دار الأمير .

ويأتي هذا الكتاب ليعبر عن الـ: «لا» الثالثة ضمن التسلسل الذي اعتمده شريعتي، مع أنها كانت أول «لا» في تاريخ الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ، وهي الـ: «لا» التي صرخت بها فاطمة عليها السلام بوجه القوم، وكُلِّي أمل أن يُغني هذا النص - الدعاء - عما كنت سأكتبه في هذا المقام، وأحسبه كذلك، وعلى أي حال تبقى الـ: «لا» هذه هي «لا»، كما أن فاطمة هي فاطمة.

ونحن إذ نطرح هذه الترجمة الجديدة لكتاب «فاطمة هي فاطمة»، التي تأتي ضمن مشروع تعريب ونشر الآثار الكاملة للدكتور علي شريعتي، والمتفق عليها قانونياً، بموجب عقد مَوْقَع مع أرملة الشهيد، د. بوران شريعت رضوي، أعطت فيه دار الأمير حقاً حصرياً بتعريب ونشر آثار الدكتور شريعتي باللغة العربية، نلفت عناية القارئ العزيز إلى الأمور التالية:

١ - الترجمة السابقة للكتاب، التي قمنا بنشرها عام ١٩٩٢م، لم تكن على مستوى خطاب شريعتي، لعدة أسباب، أهمها يعود إلى عدم توفر المادة كاملة بين يدي المترجم في حينه. وهذا ما دعانا إلى إعادة الترجمة من جديد، متحملين أعباءً وتكاليف إضافية.

٢ - هذا الكتاب - فاطمة هي فاطمة - هو في الأصل مجموعة محاضرات مسجلة، فُرِّغَ بعضها وطُبِعَ في حياة الدكتور فتمكن رحمته الله من مراجعته، كما أشار في مقدمته، والبعض الآخر فُرِّغَ وطُبِعَ بعد رحيله، وللأمانة في النقل تُرك كما كان مسجلاً بصوته، ومن

البديهي أن المحاضرة شيء ، وإعادة كتابتها ومراجعتها من قبل صاحبها شيء آخر .

٣ - من المهم جداً أن نُلفت ، أن شريعتي كان يخاطب جمهوراً شيعياً فقط ، وبظرف موضوعي ضاغط ، فكان أحياناً يضطر لاستخدام عبارات حماسية تثويرية - تصب في مشروع مقاومة النظام الشاهنشاهي - وذلك من رحم التراث الشيعي الموجود في أذهان الناس حينها .

٤ - حسب متابعتي لمسيرة شريعتي العملية ، ولآرائه العلمية ، وللأمانة التاريخية أقول : أن الكثير من آرائه ، خاصة في المجال التاريخي ، قد تبدلت أو تطوّرت بعد مناقشة هنا ، أو إعادة نظر منه هناك ، كما حصل خلال نقاشه مع السيّد حسن الأمين في سنة ١٩٧٣م^(١) ، وللوقوف على آراء شريعتي البتية - والتي بعضها لم

(١) سنة ١٩٧٣ دُعي السيّد حسن الأمين لإلقاء عدة محاضرات في حسينية إرشاد ، فلجئ السيّد الدعوة التي لاقت معارضة شديدة من بعض «العلماء» في إيران في حينه ، لكنه السيّد أصرّ على تلبية الدعوة ، لما اعتبره من ضرورة تستدعي ذلك ، وكان أن ألقى ثلاث محاضرات ، موزعة على ثلاث أيام متتالية ، وكان الحضور في كل محاضرة لا يقل عن الأربعة آلاف إلى ستة آلاف شخص غصّت بهم حسينية إرشاد ومحيطها ، فاستغلّ السيّد فرصة وجوده هناك ، وناقش الدكتور شريعتي في أكثر من مسألة ومنها «صلاة أبي بكر بالناس في مرض النبي ﷺ» وأثبت له السيّد تاريخياً ، أن الخليفة الأول لم يكن موجوداً بالأصل في المدينة حينه ، وأنه كان في مكان آخر ، فاقنع الدكتور برأي السيّد ، لا بل تراجع عن رأيه صراحة وأمام الجمهور من على المنصة ، وشكر للسيّد هذا الفضل بكل رحابة صدر وسعة أفق ، والجدير ذكره أنه بعد هذه المحاضرات للسيّد حسن الأمين ، قامت السلطات بإغلاق حسينية إرشاد واعتقال شريعتي ووالده أيضاً - هذه الحادثة رواها لنا السيّد شخصياً ، ونحن لأمانة التاريخ نكتبها هنا ، ونشرها في حياته - أطال الله بعمره .. (الناشر) .

يكن نهائياً بسبب عمره القصير (٤٦ سنة) - لا بدّ من قراءة كافة أعماله مع ملاحظة تاريخ تسجيلها، أو كتابتهما.

٥ - لم نتمكن في هذا الكتاب من تخريج الأحاديث الشريفة، إلا القليل منها، والسبب في ذلك يعود، أن الكثير من الأحاديث نقل الدكتور مضمونها وليس نصها الحرفي، لأنه كان يتحدث باللغة الفارسية، والمُترجمة قامت أيضاً بترجمة المضمون للعربية، مما زاد الأمر صعوبة، فتركنا الأمور على حالها، معتمدين على نباهة ووعي القارئ.

٦ - إننا في دار الأمير، نكرر دعوتنا للكتاب الكرام، والقراء الأعزاء، عن استعدادنا التام لنشر أي ردّ علمي هادف، على أي كتاب من إصداراتنا، خاصة كتب الدكتور شريعتي، التي أثارت أذهان بعض، وحفيظة بعض آخر، دعوة صادقة على قاعدة مفادها: أنه ليس من الضرورة أن تتبنّى فكراً كل ما تنشر، كما أنه لا يجب أن تتمنّع عن نشر كل ما يُكتب، وذلك بموازين الحق في إطار خدمة الحقيقة.

أخيراً أسأله جلّ شأنه أن يوفقنا لمراضيه في الدنيا، لتكون ذخيرة لنا في الآخرة؛ عليه توكلنا وإليه تُنب.

محمد حسين بزي

بيروت في ١٠/١٠/٢٠٠١م

الإهداء

إلى روح أمي زهراء .. مرآة «التواضع»، «العاطفة»
و«الزهد»، والتي كانت حياتي بالنسبة لها كلها تعب...
وجودها لي، كله، «حنان»...!!

حديث مع القارىء:

ما تقرأونه الآن هو محاضرة لي في حسينية الأرشاد، أردت في البداية أن اقدم مقارنة عن تحقيقات البروفسور لويس ماسينيون حول شخصية الزهراء وسيرتها الغامضة. وبالأخص الأثر العميق والثوري لذكراها في المجتمعات الاسلاميه وتحولات تاريخ الإسلام الممتدة. مخصصاً هذه البحوث لطلاب، دروس «العلم بالاسلام»^(١) في حسينية الأرشاد.

ولكنني إذ قدمت الى المجلس رأيت - غيرالطلاب - كثيرين من الطبقات الأخرى، وأوجبت عليّ مراعاة ذلك ان أغير موضوع

(١) «اسلام شناسي»: اي «معرفة الاسلام» وبمعنى أصح «العلم بالاسلام»، وتأتي كلمة «شناسي» لاعطاء معنى العلم والمعرفة والأنيان بمصطلح جديد مثل «زيست شناسي» اي «علم الاحياء» وهي تأتي أحياناً مرادفة لمقطع «لوجيا» في الكلمات اللاتينية مثل بيولوجيا. «الترجمة»

الحديث، فاخترت الأجابة على السؤال التالي الذي يدور في الازهان والذي يلح بشدة على نساء مجتمعنا هذه الأيام ألا وهو، «كيف يجب أن نصبح؟»

النساء اللواتي بقين في الصيغ التراثية القديمة، ليست هنالك مشكله بالنسبه لهن، والنساء اللواتي رضين بالقوالب المستوردة الجديدة، المشكلة بالنسبة لهن محلولة أيضاً. وبين هذين النوعين من النساء - هنالك النساء اللاتي لا يستطعن تحمل القوالب القديمه - ولا يردن الأستسلام للشكل الجديد المفروض، ويبقى السؤال: ماذا يجب أن يفعلن؟ يلح في طلب الاجابة. هؤلاء يردن اختيار أنفسهن، صنع أنفسهن وينشدن لذلك قدوة، مثلاً نموذجياً يحتذين به..

ومشكلتهن هي «كيفية التحول» وفاطمة «بوجودها» هي جواب هذا السؤال. أردت أن اكتفي بوصف تحليلي لشخصية فاطمة، ولكني وجدت ان الذين يقرأون عندنا ومثقفينا لا يعرفون سيرتها، وحتى الطبقة المتدينة من الشعب لم تسمع إلا «بآهات» فاطمة. فأضطرت لأن أسعى الى الحد الذي يسمح به قلبي وفكري المتواضع لتلافي هذا النقص، ولهذا فرسالتني الحاضرة تحتوي سيرة وثائقية عن هذه الشخصية المحبوبة ولكن «غير المعروفة» أو «المعروفة بصورة سيئة».

اعتمدت في هذه السيرة بصورة أساسية علي الوثائق التاريخيه. وفي الاماكن التي تطرح فيها المسائل الاعتقاديه والقاطعة للتشيع فأنتني اختار المصدر من أهل السنة، حيث ان أفكار التشيع المأخوذة من المصادر السنية موثقه بلا أدنى شك علمياً وتاريخياً. وحيث

ان وجه فاطمه - مرآة التشيع العلوي «المظلوم» و «المعترض» في آعين
أهل السنة واضح لكل طالب حقيقة منطقي الرؤية
وما تقرأونه هنا لم يكن إلا محاضرة، وكلاماً إلتمع في ذلك
«الجمع» وفي ظروف هذا «الوضع» وقد أوردته إرتجالياً. أما السيرة
الملحقة به فمكتوبة مستعجلة أكملت في ليلة واحدة. ولهذا فأنا
لا أتوقع منها إلا ما أتوقعه من المحاضرات، ومن هنا لست أستطيع
القول أنني مستغن عن الانتقادات، بل انا - بالعكس، محتاج إليها
وملاحظات كل أصحاب الرؤى التزيهين أولئك الذين يسرهم إرشاد
العاملين أكثر من «اضمار العداوة والبهتان والشتيمة».

علي شريعتي

الفصل الأول

في «ليلة مقدسه» كهذه ما كان مقرراً ان يكون لي أنا «اللا مقدس» برنامج. ولكن وبحكم إتصالي البسيط بالعمل الجبار الذي كان يقوم به البروفسور لويس ماسينون - الإنسان العظيم والعالم الكبير بالاسلام - حول السيدة فاطمة «ع» والفائدة التي لحقتني من دراساته حول حياة هذه الشخصية العظيمة وامتداد تأثيرها - بعد رحيلها - في تاريخ الاسلام في احياء روح العدالة والجهاد ضد الظلم والتمييز في المجتمع الإسلامي، باعتبارها مظهراً وعلامة في الطريق، والغاية الأصلية لرسالة الاسلام - الذي إنحرف على مئات الأيادي الداخلية والخارجية - وكتلميذ فحسب، أخذت على عاتقي جانباً صغيراً من هذا العمل الجبار^(١) بالذات في المراحل الأولى للعمل،

(١) Louis massignion : الذي كانت (اولى امتزازاته) في عام ١٩٠٥ خلال زيارة له الى المدائن بعد رؤيته لقبر سلمان المتهدم والأيوان المرتفع ومنذ ذلك الحين أغمض عيني عن «مظاهر الاسلام»، و «حوادث تاريخ الإسلام» - التي تجذب اكثر

والتي هي عبارة عن مطالعة وتجميع كل الوثائق والمعلومات الواردة حول السيدة فاطمة «ع» طوال ١٤ قرناً وبكل اللغات واللهجات الاسلامية المحلية، ملتقطاً خلال ذلك كل اشارة تاريخية أو نشيداً في لهجة، وقد ارتأيت ان اقبل الدعوة لعرض تقرير عن هذا العمل فهذا العمل العظيم لما ينشر بعد، وصاحبه الكبير أنهى حياته قبل اتمامه^(١) كما ان أغلب الأوربيين المطلعين على الاسلام يجهلون هذا العمل، وقد سبب هذا عدم معرفة بعض علمائنا - المطلعين على اعمال الأوربيين حول الاسلام - بذلك، وقد آثرت ان اختص طلاب «تاريخ ومعرفة الأديان» و «علم الاجتماع الديني» و «العلم بالاسلام» التي بدأتها في الإرشاد بهذا التقرير كي أطرح عليهم الخطوط الأصلية والنتائج البارزة العلمية والتاريخية لتحقيقاته العميقة،

ولكنني أرى الآن ان طبيعة المجلس قد لا تحتل مثل هذا الطرح و ان لم تكن طبيعة وعظ وخطابه، فالسيدات والسادة الحاضرون جميعاً من المثقفين وممثلي الجيل المعاصر لمجتمعنا ولم يأتوا الليلة كي يكونوا على فاطمة ويهدوا ثواب حضورهم لارواح موتاهم، كما انهم لم يأتوا

المستشرقين والعلماء بالاسلام الغربيين - غارقاً في بحر «معنوية الاسلام» العميق، ومتجهاً منها نحو الفصوص في «الأرواح الثورية» موقفاً ٥٥ عاماً من عمره للتأمل والدراسة حول الوجوه الثلاثة البارزة والمثيرة: فاطمة «ع»، سلمان والحلاج.

(١) في الوقت الحاضر تكفل البروفسور لويس غارديه Louis Gardet مع مجموعته من المستشرقين الفرنسيين بتدوين مجموعة كتاباته التحقيقية حول الزهراء «ع» الواصلت الى حدود عدة ملايين بطاقة.

ليستمعوا الى دراسات علمية وتأريخيه جافة، فلديهم عمل أهم
واكثر فورية وحاجة اكثر الحاحاً، ألا وهي الجواب عن هذا السؤال
الحاسم والمصيري: كيف يجب أن نكون؟

المرأة في مجتمعنا، تتغير بسرعة، فجب الزمن وأيدي الجهاز
الحاكم، كلاهما يعدانها عما هي «عليه» ويسلبانها كل مميزاتها
وقيمة القديمه كي يخلقا منها الموجود الذي «يريدان»، ونرى أنهما
«خلقا»!

لهذا كان السؤال الحاد «للمرأة الواعيه» في هذا العصر، هو:
«كيف يجب ان نكون؟». ذلك لانها تعلم أنها لن تبقى بالشكل الذي
هي «عليه» ولا تستطيع أن تبقى ولا يتركونها تبقى!

ومن جهة فهي لا تريد قبول القناع الجديد الذي يريدون أن يضعوه
على وجهها القديم، تريد ان تقرر هي، هي التي تختار «نفسها
الجديدة» ووجهها الجديد، بوعي واستقلال وأصالة، وهي التي تزينه،
ترسمه، ولكنها لا تدري «كيف»؟ انها لا تعرف شكلاً لوجهها الأنساني
الذي هو ليس ذلك «الشكل التراثي» ولا ذلك «القناع المحسن المفروض
والتقليدي»؟ هذا الوجه الأنساني أي وجه يشبه؟ والسؤال الآخر الذي
يتفرع عنه هو:

«نحن مسلمون، والمرأة في مجتمعنا - التي تريد الوصول الى
الأستقلال والاختيار الواعي - مرتبطه بتأريخ، ثقافة، دين ومجتمع
روحه ورأس ماله تنبع من الاسلام، والمرأة التي تريد أن تكون في هذا
المجتمع «نفسها» وتضع هذه «النفس» وتولد مرة أخرى وتكون هي

القابلة في هذه «الولادة الجديدة»، لا صنعة «الوراثة» ولا «التقليد»، امرأة كهذه لا تستطيع الاستغناء عن الأسلام ولا يمكنها عدم المبالاة به، ولذلك فمن الطبيعي أن يخطر بذهنها هذا السؤال:

يتحدث الناس عندنا دائماً عن فاطمة، كل عام يكي عليها العشرات، وتقام من أجلها مئات من الاحتفالات ومجالس العزاء بالإضافة الى المديح والتعظيم ونقل الكرامات والمعجزات وبكائها ومصائبها ولعن وسب كل من آذاها... ومع كل هذا فوجهها الحقيقي غير معروف والشيء الوحيد الذي يعرفه ابناء مجتمعنا من هذه الشخصية المقدسة العظيمة والذي يعاد جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن، هو إنها كانت تحكي ليل نهار وطوال عمرها هذه القصة: هبط جبرئيل على النبي(ص) في صورته العظمى وقال:

«يا محمد العليّ الأعلى بقرؤك السلام، وهو يأمرك أن تعتزل عن خديجة أربعين صباحاً.»

ولما اكتملت أربعين يوماً، يأتيه بطعام من الجنة، وأمر بمعاشرة خديجة. تقول خديجة، كنت أبكي الليل والنهار، أقضي الأيام وحيدة، وقد أوصدت الباب علىّ، وجلست أنتظر.

فلما كان في تلك الليلة، سمعت قرعاً على الباب، فتحت، ورأيت رسول الله يدخل، وكان من عادته إذا دخل البيت أن يتطهر ويصلي ركعتين يوجز فيهما ثم يأوي إلى فراشه، ولكنه في تلك الليلة، أخذ بعضدي وكان بيني وبينه ما يكون بين المرأة وبعولها.

فأحسست بنور فاطمة في بطني، ومن ذلك الحين، غدت فاطمة

تحدث معي وهي في بطني، وتؤنسني^(١).

وبعد الولادة، لاخبر عن فاطمة حتى الموت!

«بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله، سلبها ابوبكر (فدك) وهجم على بيتها عمر ومعه عدة رجال وكسروا الباب على ضلعها» وضربها قنفذ غلام عمر المتوحش» فأسقطت جنينها مُحسناً، ومنذ ذلك الحين، صار عملها هو الأخذ بيد أطفالها وسوقهم نحو خارج المدينة، في خربة بأسم «بيت الأحزان» كي تبكي هناك وتلعن غاصبي فدك، وتقضي بذلك ساعات عديدة في النوح والبكاء وهكذا إنقضت أيام عمرها القصيرة بالبكاء واللعن حتى توفيت وأوصت بدفنها ليلاً كي لا ينش ابوبكر وعمر قبرها...، وأما ما الذي يجب ان نتعلمه من فاطمة «ع» فلا شيء، والدور الذي تلعبه شخصيتها في حياة ومصير أتباعها ليس إلا الشفاعة وذلك يوم القيامة فقط، وكل القصص هي من هذا القبيل:

«فينادي مناد من بين العرش يا مجمع الخلائق غضوا أبصاركم كي تسير فاطمة بنت حبيب الله الى قصرها، فتصر إهنتي فاطمة «ع» ترفل بهلوتين خضراوين وحولها سبعون ألف حورية... فيصلها النداء من رب العالمين جلّ جلاله ان حفظت لك لمصيبتك ألا أنظر في محاسبة العباد حتى تدخلي الجنة أنت وأبنائك وشيعتك وكل من

(١) يمكن مطالعة الأصل العربي الكامل لهذه القصة في كتاب البحار للعلامة

المجلسي: ج ١٦، ص ٧٨. المترجمة.

أحسن اليك من غير شيعتك، فيدخلهم رب العالمين جميعاً الى الجنة قبل أن ينشغل بمحاسبة الآخرين».

هذه هي كل المعلومات الموجودة في أذهان الناس عن هذه الشخصية الكبيرة. أولئك الذين يعترفون بعظمتها وجلال مقامها بكل وجودهم، وبكل قدرة الروح والأيمان والأرادة التي يمكن لأمة أو لمجموعة إنسانية ان تحتويها في قلبها.

النبوغ وعبادة الحقيقة:

حسب إعتقادي إن أكثر ما يدعو للفخر عند شعبنا، طوال تاريخه، هو اختياره في لحظة مهولة وعصيبة ومظلمة من التأريخ لعلي بن ابي طالب «ع».

شعبنا، بنفسه، أسلم على يد الخلافة، كان يرى صورة الخلفاء ونظام بني أميه وبني العباس والحقاقات الأتراك والعرب والمغول والفرس والمتعلقين بهذه الأنظمة. يرى ذلك ويعرفه باسم «الاسلام» و «حكومة القرآن» و «سنة النبي» و «جبهة الحق» و «حقيقة الدين» مستلهماً الاسلام وكل العقائد والمعارف الجديدة من جهاز الخلافة ومن لسان المنبر والمحراب والكتاب والتفسير والحديث والوعظ والتبليغ والمسجد والمدرسة والأمام والقاضي والمتكلم والحكيم والأديب والشاعر والمؤرخ والمجاهد وحتى الصحابي والتابعي.

وقد كان كل هؤلاء أدوات لجهاز الخليفة، والسلطان، ومنظرين للطبقة الحاكمة المسيطرة في وقتها وأذناً للخلافة الرسمية المنسوبة

زوراً للنبي، والامامة القانونية للأمة وحكومة القرآن الالهية والسنة. ولكن برغم كل هذا وتحت وابل القصف والأعلامي وتكاثف السحب السميكة المعتمدة للعلوم والمعارف والألهيات والحكمة والدين والثقافة والتاريخ والتفسير والكلام والحديث الذي كان غالباً موجهاً حسب مصالح الخلافة و مبرراً «للوضع القائم» و مقدساً «لنظام الحاكم» على رغم كل هذا أدرك هذا الشعب، والذي ما كان يتقن حتى لغة الاسلام الرسمية، ان كل هذا كذب وزور وأن الحق ليس في هذا الضجيج وليس لهذه الوجوه المثيرة والملفتة للنظر.

أدرك ان الحق مع ذلك الرجل الوحيد الذي يسكن بيتاً في ركن مسجد النبي. سجيناً لجهل قومه، وضحية لسياسة الصحابة الكبار وأوائل المسلمين، وعشر من وراء قصر الخلافة الأخضر في دمشق ودار الخلافة الاسطورية في مدينة الف ليلة وليلة بغداد، عثر على البيت الطيني المهجور لفاطمة «ع» وعرف أن الاسلام هنا في هذا الكوخ الحزين الصامت. رأى هذا الشعب الأجنبي - الذي أستسلم لسيف الخليفة وأسلم بدعوة من العلماء الرسميين لاسلام الخلافة - رأى مالم يره أهل المدينة والعرب المعاصرون والأصحاب الكبار أو لم يرغبوا في رؤيته، وعرف مالم تعرفه أو لم تشأ معرفته المدارس والجامعات الكبيرة في دمشق وبغداد.

كان هذا اختياراً صعباً وعجيباً، ودلالة على نبوغ الفكر والفطنة الفائقة وعظمة الروح وعبادة الحقيقة والشهامة لدى هذا الشعب، الذي تمرد على التاريخ وأنكر نظام الخلافة العباسي، النظام المقتدر عسكرياً

وسياسياً أكثر من أي نظام حكم آخر في التاريخ، والممتلك لا كبر
رصيد ديني وعقائدي يمكن تصوره، فضلاً عما كان يتمتع به من ثروة
ثقافية وأدبية وعلمية فائقة... وسمع هذا الشعب الغريب آهات رجل
وحيد و«غريب في وطنه» وتتبعه يخرج في أعماق الليالي وحيداً نحو
بساتين بني النجار كي يتحدث عن الألم، وخشية توهج الكذب
والفتنة والنهب وهو يعلم أن الكذب والخداع الذين عُرف بهما كسرى
وقيصر، يتخذان اليوم لوناً جديداً من التقوى والتدين، كي يخدعا
خلق الله لقرون عديدة، عرفه وسط ضجيج الحرب والحماس والنصر
والهزيمة والتصنيع والعلم والحضارة والثورة والمناظرات الدينية والدنيوية
العنيفة التي أصمت أذن التاريخ.

وعرف هذا الشعب أيضاً، كم من الدماء ستهدر وكم من الجهود
ستبذل، كي تكتشف الحقيقة خلف هذا الشعار والدثار المقدس
الجميل، ونرى أن أول ضحايا هذا «الإستعمار الجديد» و «الإستعمار
الحديث» في الاسلام هم «الناس» و «مصير الناس» ومظهر هذين
الأثنين معاً هو قتله «هو» و من قبله «زوجته» ومع أجيال الغد «اسرته»
ثم جيلاً بعد جيل «أبناؤه»...

ولا شك أن شعبنا لم يتخذ قراراً شخيصاً كهذا، في أصعب
واكثر لخطات التأريخ هولاً و اظلاماً بسهولة. النبوغ والفتنة واستقلال
الشخصية وشهامة الأخلاق وحب الفضيلة وإدراك الفضائل الإنسانية
والعظمة وجلال الروح ومعرفة القيم السامية والقدرة على التعمق،
والتسامي والقدرة على اصطياذ الحقيقة في الطوفان والظلام والخوف.

كل هذه المواهب هي التي مكنت هذا الشعب من أن يصدر حكماً آخر على رغم حكم التأريخ، وهي التي مكنته من أن يقول في جواب كل المنارات والمحاريب والمنابر وفي مواجهة كل الصحابة الكبار والعلماء والقضاة وأئمة الدين الرسميين، وضد صراخ كل السيوف المتعطشه للدماء التي كانت تصرخ ليل نهار في الشرق والغرب بصوت واحد: نعم. امكنته من أن يقول في جواب كل هؤلاء: كلا! ^(١)

(١) نرى ان اشباه المحققين ومدعى حب ايران المتأخرين الذين يقولون ان الإيرانيين أسلموا بقوة السيف وضغط الضرائب والجزيات، نرى كم هم «علماء ضرييون» عندما يريدون أن يبرؤوا، حسب إدعائهم الشعب الايراني من قبول الاسلام «الدين الأجنبي» وعندها يعتبرونه شعباً جباناً وحقيقراً الى درجة انه بسبب خوفه من لمعة السيوف، ومن أجل التخلص من عبأ الجزية والضرائب يتبرأ من كل عقائده ووطنيته ومقدساته ويقبل كل أفراد «دين الجاني».

وكم هي سخيفة نظريات القوميين الذين يعزون إلتحاق الإيرانيين لعلي وأبنائه الى زواج الحسين «ع» من «شهربانو» ابنة يزدجرد الساساني - لالفضائلهم وقيمهم الأنسانية - إنما من أجل ان الحسين «ع» هو صهر الإيرانيين وأن الأئمة من بعده هم أحفاد بنت يزدجرد ويظهر سخف هذا الرأي اذا عرفنا ان الايرانيين انفسهم كانوا يطاردون يزدجرد لثمانية عشر عاماً وما التحقوا بالاسلام إلا للخلاص من ظلمه، فهرب هو من أيدي الناس الى «بلخ» فكيف أذن يعودون الآن ويغيرون مذهبهم من أجل زوج أبنته؟ ان ما تؤدي اليه بحوث ودراسات هؤلاء المفرضين الذين يقلدون المستشرقين ولو بصورة بدائية ومضحكة، هو ان الشعب الايراني لا يفهم العدالة والحرية والمساواة والحقيقة والفضائل الأنسانية والقيم السامية للاسلام، ولا يفهم علو مرتبة محمد وعلي على يزدجرد وبزرجمهر وأفضلية الحسين وزينب على زرير وشيرين، إنما يفهمون السيف والمال والقرمية فقط.

ولكن مع هذا كله فالإيمان بحاجة الى الدماء وليس الى النبوغ والفكر فقط، ويتطلب التضحية والفداء، وإنصار الحق يقتضي الأيثار والشجاعة والألم والأخلاص وتحمل العذاب والسيئات والتهم والمصاعب والأسر والتشرد والتغرب وتحمل الخيانات، وأخيراً يتطلب التقوى والألتزام والصبر والتضحية بالذات، وترك الأهتمام بالمصلحة فقط، والطمع والخوف والتقية، و... كثير من الاشياء الأخرى.

هذه هي العناصر الأساسية لتأريخ التشيع. «التشيع العلوي» لا «التشيع الصفوي». التشيع الذي يهز أركان التاريخ لا التشيع الذي هو نصير الظلم والقوة دين «العدل» و «حكومة المعصوم» وليس «مجموعة العقد التاريخية والاحقاد الطائفية» و «الحب» و «البغض» اللفظي التقليدي. (لا العقلي والعلمي)، وذلك بالنسبة «للخليفة» لا «الخليفة» المنحصرة بالماضي، والمفيد^(١) لما بعد الموت، لا قبل الموت! المطلوب هو «الولاية العلوية» التي تنقذ الشيعة من ولاية الجور وحكومة الاستبداد وزعامة الجهل، لانتلك «الولاية المولوية» المتصوفة، والتي لا تنفع لا الرب! ولا عباد الرب!.

ذلك التشيع ليس إلا الاسلام، لا كما يقال لنا: الاسلام بالأضافه الى أشياء أخرى، كلا، فالتشيع يعني الاسلام الخالص، «الاسلام ناقصاً» الخلافة والتميز العنصري والطبقية» فليس الشيعة هم الذين أضافوا

(١) يقصد الحب والبغض الذي لا يفيد إلا لما بعد الموت برأيهم لتحقيق الشفاعة لهم، من دون أن يكون مسبباً لنوع من الرؤية والعمل في الدنيا. الترجمة.

«العدل» و «الأمامة» للأسلام، انما الاسلام بدون العدل والأمامة، يعني «دين الاسلام ناقصاً الاسلام» أي، نفس الدين الموجود في المسيحية واليهودية والزرذشتية والبوذية... الخ و «الجاهلية الجديدة» هي التي أضافت «الحكومة» و «القومية» و «الطبقية» للأسلام، وما حرب الشيعة والسنة في الماضي (وليس الآن بعد أن تحولت الى حرب كلاميه وجدالية وفرقية) إلا حرب «الأمامة» و «العدل» ضد الاستبداد والظلم، حيث نتجت كل الاختلافات العقائدية، والتفسيريه والتاريخيه والفلسفية والدينية عن هذه الجبهة نفسها. (علي لم يُضَف الى «محمد»). وان تكلم معاوية ومروان والمتوكل وهارون - خلفاء القياصرة والفراعنة والأكاسرة و وارثو ابي جهل و ابي سفيان - وان تكلموا عن محمد(ص) فنحن تشبثنا بعلي كي لا نفقد محمداً(ص). نحن لم نستبدل «آل علي» (العترة) بـ «سنة النبي(ص)» أو لم نضفها اليه، لأن هذه العترة هي نفسه هو، ونستطيع ان نسألها بكل سهولة عما كان يقول أو ما كان يفعل أو ما كان يريد؟

وخلافاً لما يتصوره العدو والصدیق اليوم فان «التشيع هو اكثر المذاهب الاسلاميه تسنناً» بل لم يكن الأختلاف في الأساس إلا لان علياً وأصحابه كانوا يريدون الوقوف بوجه إمتداد البدع، والحفاظ على السنة.

ونرى كيف أختلطت الأمور، وكيف خيم «اسلام الجور والخلافة» على العالم في تلك القرون المظلمة الدامية، في نفس الوقت الذي كان فيه «اسلام العدل والأمامة» غارقاً في بحر الدم والشهادة.

لقد اختار الشيعة الشهادة ورفضوا القدرة، ولم يأت هذا الاختيار العسير بسهولة ودونما ثمن.

وتشهد بذلك معتقلات بني أمية وبني العباس وسلاطين الترك والمغول، فكم لاقى العلماء الكبار والمجاهدون التواقون للشهادة، ومحبو الحق والعدل والفضيلة الذين يبحثون عن الحرية، في هذا الطريق - الذي يمر من دار الخلافة في دمشق وبغداد على أرض العذاب والدم والسجون ويلتحق بذلك البيت الصغير، الكبير بحجم الأنسانيه - .

لم يكن الحديث عن علي وفاطمة في تاريخ الإسلام أمراً سهلاً فهذا دعبل شاعر هذه الأسرة المناضل يقول: «حملت خشبة لإعدامي على ظهري خمسين عاماً».

«الشاعر المسؤول» هو الذي يصنع من الشعر سيف جهاد. وهذا هو مصير كل الرجال والنساء الذين كتبوا تاريخ هذا المذهب. التاريخ الذي كتب كلمة، كلمة، وسطراً، سطرأً بدماء الشهداء. ان عظماء الشيعة الأوائل ما كانوا يعرفون هذه الفلسفة الجديدة التي صنعت لنا الآن «أصبر حتى يأتي هو فيصلح كل الأمور». «هو الذي يجب أن يأتي ليصلح دين جده» «لا يجدر بنا إلا التقية والتحمل».

ابن السكيت كان أدياً كبيراً، لم يكن في عداد المجاهدين ولكنه كان أدياً، وعالم لغة، وفي القلب، كان شيعياً. اختاره المتوكل العباسي لتربية أبنائه، وبالتدريج اكتشف ان أبنائه أصبحوا يميلون نحو علي وآل علي، ف قيل له: «ربما هو من تأثير معلمهم».

وفي أحد الأيام، دخل الخليفة فجأة الى غرفة الدرس، جلس

وشجع ابن السكيت بأبداء سروره لتقدم أبنائه العلمي، ثم سأله أثناء الحديث بلحن طبيعي: «كيف ترى ولدي؟» أمتدحهم ابن السكيت كثيراً.

سأل الخليفة فجأة:

«ابن السكيت، من اكرم عندك المعتز والمؤيد أم الحسن والحسين أبناء علي؟» كان على ابن السكيت أن يختار إذ ليست التقية هنا لإخيانة وجبناً، فالتقية لم تكن يوماً في التشيع «ديني ودين آبائي» انما كانت «تكتيكاً». التقية من أجل حفظ «الآيمان» لا كما هي اليوم من أجل حفظ «المؤمن» وعندما يكون الايمان هو المهدد فالتقية حرام ولو بلغ الأمر ما بلغ.

لم يتردد ابن السكيت، وأجابه بنفس النبوة الطبيعية التي سأله بها المتوكل قائلاً: «إن قنبر - غلام علي - اكرم عندي منك ومن ولديك هذين!»

فأمر المتوكل فوراً بقطع لسان ابن السكيت في نفس المكان! الألسن هي التي كانت تنزل كالصاعقة على جبابرة التاريخ، وهي وإن لم تستطع أن تهدم بناء «الاستبداد السياسي» و «الاستثمار الطبقي» و «الاستحمار الديني» فلاشك انها أستطاعت فضحه، وهو ان لم «ينهزم» فقد نُدد به. ولم يمت الأمل بالعدالة والحرية والعدالة والوعي والقيادة الثورية للناس، وكذلك العداء «لنظام المال والقوة والزهد» وأستطاعت هذه الشعلة المقدسة أن تبقى متوهجة على مر التاريخ، وملتمعة في ضمير الجميع.

نحن والناس:

تعهد بهذه المسؤولية الثقيلة والخطرة فريقان، حملا على ظهرهما خشبة إعدامهما لقرون عديدة: الفريق الأول «علماء الشيعة الكبار المجاهدون - والذين يعتبرون «الأمامة». بناءً على أصل التشيع الاعتقادي، إمتداداً «للنبوة»، و «العلم» أمتداداً «للأمامة».

الفريق الثاني، جماهير الشعب الصادقه المخلصة، والتي تصرخ معتقلات الخلفاء العرب والسلاطين الترك والعجم من شجاعة سكوتها... ويُخجل وجهها الدامي الهادىء جلادها القساة، فيستسلم السوط لأصحابها - الذين يبدون كالصخور القوية لا تعرف الألم -

العقل والحب:

يتكون كل دين أو نهضة أو ثورة من عنصرين: العقل والحب، أحدهما النور والآخر الحركة، يهب الأول الادراك والمعرفة والبصيرة للناس، والآخر يهب القوة والحماس والحركة، وكما يقول الكسيس كارل: فإنّ «العقل هو مصباح السيارة الذي يدلّها على الطريق، والحب ما كنتها التي تحركها، كلاهما لاشيء بدون الآخر». وبالذات، الماكنة بدون المصباح حب أعمى، خطير، كارثة وموت!

وفي كل مجتمع في كل نهضة فكرية أو دين ثوري، يكون دور العلماء وفريق المثقفين الواعين الملتزمين، هو الإرشاد نحو الطريق والتعريف بالدين أو المذهب، وتوعية الناس. أما دور الناس فهو إضفاء

الروح والقوة والحركة على كل ذلك.

كل نهضة، هي كائن حي تفكر بعقل علمائها وتحب بقلب شعبها. وكل مجتمع - يكون فيه الايمان والاخلاص والحب والفداء قليلاً فالمسؤول هو الشعب، واذا كانت المعرفة والوعي المنطقي والادراك العميق والصحيح للدين ومعناه وغايته وحقائقه قليلة فالمسؤوليه تقع على عاتق العلماء، ويلاحظ هذا واضحاً في الأديان بالذات اذ يحتاج هذان الأثنان لبعضهما حاجة ماسة، سواء كان هذا الدين وعياً محباً أو حباً واعياً، فهو شعور ومعرفة تثير الحماس والأيمان، ويكون فيه العقل والأحاساس متلاصقين لا ينفصلان.

وهكذا كان الاسلام، بل اكثر من أي دين آخر، فهو دين «الكتاب» و «الجهاد». والفكر والحب، كما هو واضح في القرآن اذ لا يمكن التمييز بين حدود العقل والأيمان، يعتبر الشهادة حياة خالدة ويقسم بقلم الكاتب^(١). أما بين أنصار النبي فلا يمكن التفريق بين «العابد» و «المجاهد» و «المبلغ».

ولقد كان التشيع، خصوصاً بتاريخه وثقافته، تجلياً للحب والحماس والدم والشهادة وبؤرة إحساس متأججة، في نفس الوقت الذي كان فيه فكراً ومعرفة وثقافة علمية وعقلية متميزة، ونهضة فكرية قوية مشخصة. «حادثة» في تأريخ الأنسان. وبأسم «علي» كانت مزيجاً من «العلم» و «الحب».

(١) اشارة الى «نور، والقلم وما يسطرون». المترجمة.

وما «عبادة الحقيقة» إلا مذهباً كهذا، إذ الحقيقة بلا عبادة فلسفة وعلم، والعبادة بلا حقيقة عبادة أصنام أو هوس.

الدمع:

هكذا ولد التشيع في التاريخ وهكذا عاش، كان مفكره وعلمائه مظهراً للأجتهاد، والتعمق والبحث والمنطق والغوص في أعماق المعاني ومعرفة المتحول والمتكامل من المفاهيم الاعتقادية والحقائق الإسلامية، مهتمين مع ذلك بمراقبة الروح والحقيقة وجهة الاسلام الصحيحة في معركة عسيرة مضلة بأسم الفلسفة والتصوف والعلم والأدب والتظاهر بالزهد، والتأثر الشديد باليونان^(١) والشرقية^(٢).

وأما اتباع التشيع ومريدوه فهم مظهر الوفاء للحقيقة والأخلاص والحب والحماس والتضحية والإيثار في طريق علي وخلفائه والسائرين على دربه، في زمن التعذيب والسجون، في العصر الذي كان فيه الطغاة يخرسون كل لسان ينطق بأسم علي ويهدرون كل دم يغلي بحبه، وفي الوقت الذي كان جزاء ذكر آل النبي والحديث عنهم هو الجلد والحرق.

(١) جاءت هذه الجملة في ترجمة هذا الاصطلاح «يوناني زدغي» الذي يمكن ترجمته على غرار «غرب زدغي»، «التغرب» الى «التينين» ولكن هذا ليس سائفاً وكلمة «زدغي» تعني التأثر الشديد الى درجة المحاكاة. المترجمة.

(٢) هذه الكلمة هي ترجمه لأصطلاح: «شرق گرائي» اي الميل نحو الشرق، وهي على غرار كلمة «ملي گرائي» وتعني الميل نحو القوم اي «القومية». المترجمة.

واليوم أيضاً، لا يزال شعبنا عاشقاً، لا يزال محباً ومخلصاً لهذا البيت، وما زال بعد مضي قرون عديدة وتحولات عديدة في الأيمان والعشق والأفكار، ما زال متعلقاً بباب هذا البيت، لم يفكر يوماً في الرجوع عنه الى قصر آخر أو معبد آخر، أو قبلة أخرى^(١).

ونراه ما زال متشبثاً بجدار فاطمة، بألمها، يبكي عليها، وبهذه الدموع تتحدث مجاميع شعبنا المخلصة وترجم بكل دمعة كلمات حبها ووفائها لهذه العترة، وهذه هي لغة الشعب، وأي لغة أصدق وأنقى وأكثر إخلاصاً من اللغة التي تكون كلماتها، ليست ألفاظاً ولا خطوطاً بل دموعاً، وتكون عباراتها آهات وآلاماً وصراخاً محباً مشتاقاً؟

وحين تتكلم العين يكون تعبيرها أصدق من اللسان أفليست الدمعة أجمل شعر، وأعنف عشق، وأقوى أيمان، وأحر اشتياق، وأشد إحساس، وأخلص «قول» و «الطف» «حب» والتي اجتمعت كلها في مجمرة قلب وذابت، فأصبحت قطرة ساخنة اسمها الدمع؟.

نرى شعبنا ما يزال يتحدث، قائلاً ما يريد ببراعة، لا تتعجبوا إذ ترونني أدافع عن البكاء، وقد سمعتم عني مراراً إنتقادي لمجالس البكاء واللطم.

ولكن لا، مهلاً، فقولاي هذان ليسا متناقضين، هنالك فرق بين

(١) يريد الكاتب بكلمة (قبلة) الناحية التي يتجه اليها العقل والشعور، وهو كما نرى تعبير مجازي. المترجمة.

«برنامج البكاء» باعتباره «عملاً» و «واجباً»، و «وسيلة» من أجل الوصول الى «هدف» و «أصلاً» و «حكماً»، وبين اعتباره تجلياً طبيعياً لأحاساس ما، حالة قهرية وفطرية لحب، لألم، لشوق أو لحزن.

فهذا روجيه دبويه - الشائر الفرنسي المشهور المتواجد حالياً في أمريكا اللاتينية^(١) - يقول «الإنسان الذي لا يكي أبداً، ولا يعرف البكاء، فاقد للشعور الأنساني»^(٢) «صخرة صماء، روح جافة متوحشة.

ونرى هنا مؤلف كتاب «نخيلي» يؤنب نفسه قائلاً: «قلبي، إنك لاتدري أية راحة وأي ضياء في التألم... أيها المغرور المحروم، حتى الآلهة تتألم... حتى ذئاب الصحراء»^(٣)

الدمعة التي تسيل، والآه التي تبدر، والبكاء الذي يتزعزع رويداً، رويداً في القلب ويقطع طريق التنفس، فيضطر للأنفجار، كل هذه هي اللغة الصادقة والعفوية لشوق الانسان وحزنه وألمه وحبه «إنسان» ما.

أما ذلك الذي يعد للبكاء مشروعاً وبرنامجاً، ويعتبره هدفاً له فيبرز على شكل عادة وتقليد، أو واجباً دينياً، أو عملاً أساسياً،

(١) في حين تأليف الكتاب طبعاً في عام ١٩٧١ م. المترجمة.

(٢) راجع مقابلة معه في مجلة - expresse لصاحبها مندرس فرانس وال (p.s. u) في عدد مارس ١٩٧١ م.

(٣) هو Rosas، مؤلف «همسات ملاك وحيد»، وصاحب أثر شعري بعنوان «نخيلي»، دغدغة شوق وعدم استقرار وانتظار روح تهفو «للعلم» في طريق طويل الى مالا نهاية «الدين» T, p.q. ١١. ١٩٦٦. Tunisie.

أو وسيلة لجلب منفعة، دفع ضرر، تلافي نقص، تقصير، وصول الى غاية خاصة، نتيجة وثواب. فليس إلا مستغلاً مخادعاً.

الحب الذي فارق حبيبه والثاكل الذي فقد عزيزه يبكي، فهو حزين، وكلما تذكره قلبه وذكره لسانه واشتعلت روحه بحبه وأحتقن وجهه، بلاشك ستبكي معه العين مواسية أياه... وهذه الحالات كلها علامات صادقة وصريحة للأيمان العميق والحب الحقيقي.

أما ذلك الذي يقضي وقته سائحاً في السوق، أو متملقاً في الدوائر مرانياً ومراثياً، متكبراً على مرئوسه، متفرعناً على مُراجعته... ويعود ظهراً الى بيته فيأكل ويشرب ويضحك، ثم يذهب عصراً الى مكان يتنزه فيه ويلعب، ثم نراه ينتبه فجأة الى التقويم فيتذكر موعداً في مجلس، فيستعجل على «موعده» وهناك يجلس ليتذكر أموراً محزنة كثيرة كي يضغط على نفسه، عسى أن يبكي، ولربما يبكي، ثم ينتهي من هذا الطقس، فيبدأ بأحتساء القهوة والشاي والغليون وبعد ان ينتهي كل هذا، يخرج مسروراً فرحاً بما قدمه من عمل عظيم في سبيل الدين والعقيدة والمذهب، والى اللقاء، حتى مناسبة دينية أخرى في موسم آخر! فهو شيء آخر.

بأي عين تنظرون الى محب مُفارق مصاب كهذا؟

أنني أنظر بنفس العين التي تنظرون بها!!

ان البكاء الذي لا يرافقه وعي والتزام ومعرفة حقيقية وفهم

للمحجوب والأيمان، لا يفيد إلا لغسل العيون من غبار الشوارع.

ولتذكر دائماً هذا:

ان أول من بكى على مصير الحسين (عليه السلام) هو عمر بن سعد، وان أول من ندد بهذه الطريقة من «البكاء على الحسين» هي «السيدة زينب ع»!

وليس من السيء ان تعرفوا أن أول مجلس عزاء أقيم على الحسين كان في بلاط يزيد! ولكن شعبنا يبكي «بأخلاص»، لانه يريد ان يعبر عن الصلة العميقة بين قلبه وهذا البيت المحبوب والذي هو «بانثيون»^(١) أصيل، والشعب لا يعرف لغة غير لغة الدموع، فهو ليس عالماً ولا فيلسوفاً، ولا بد له من الأيمان والأحاساس والتضحية، ولا شيء غير هذا لديه.

ليس هنالك أسرة كهذه، في اي تاريخ واي شعب وأي دين آخر «عائلة» يكون فيها الأب علياً، والام فاطمة، والولد «الحسين» و البنت «زينب». يعيشون جميعاً تحت سقف واحد، في عصر واحد وفي بيت واحد .

وفي نفس الوقت ليست هنالك أية أسرة في الوجود وهب لها كل هذا الحب والأخلاص والإيمان والشعر والدم من جانب أمة ما.

لقد خلق شعبنا، حضارة على باب وجدار فاطمة، حيث سال من هذا البيت تأريخ كامل من التوهج والتحرك والشهامة والفضيلة على مجرى الزمن، النهر الطاهر المنعش الذي مر على كل أجيال شعبنا،

(١) «بانثيون»: (هيكل مكرس لجميع الآلهة في اليونان): Pantheon. المترجمة.

نقلًا عن كتاب (المورد): قاموس انكليزي. عربي - لمثير البعلبكي.

ولا يزال يجري في عمق روح شعبنا و وجدانه حتى الان.

ولكن بقى كل هذا الحب عقيماً... لم تكن هذه الدموع إلا كمطر ينزل على صحراء قاحلة، لا ينبتُ فيها أي شيء، فذهبت هباءاً كل هذه التضحيات والأستعدادات والتجمعات والقوى الأنسانية واللحظات والفرص النادرة!

مَنْ المذنب هنا؟ العالم؟ الذي يهمل مسؤوليته تجاه الشعب. إذ كان عليه أن يعطي للشعب «الوعي» و «المعرفة» و «الجهة» ولكنه لم يفعل فانشغلت كل طاقاتنا الفكرية، ومواهبنا العقلية بالفلسفة، الكلام، التصوف، الفقه والأصول، الأدب والمعاني والبيان والبديع والصرف والنحو، ولم نقدم للشعب بعد كل تلك السنين من البحث والدراسة والتفكر والمشقة العلمية. إلا «رسالة عملية» في آداب الطهارة وانواع النجاسات وأحكام الحيض والنفاس وشكوك الصلاة.

وتركوا رسالة التحدث الى الناس وتبليغ الحقائق الدينية وفلسفة الأحكام وتوعية الشعب والتعريف بسنة النبي وشخصية الأمام وأهل بيته، وحكمة ثورة كربلاء، ونهضة الشيعة والمباني الفكرية والاعتقادية، تركوها في أغلب الأحيان لمجموعة مشتتة من الأشخاص غير المسؤولين و «غير الملتزمين» والذين لم يصبحوا مبلغين إلا لأنهم لم يستطيعوا أن يصلوا للأجتهدا!.

من هنا تعهد بعمل «التعريف بآل البيت وتبليغ الدين وتعليم الحقائق الإسلامية الفاشلون في المدارس القديمة». حيث يدخل مجموعة من الشباب الى المدرسة (من أجل دراسة العلوم الإسلامية،

خصوصاً الفقه). فيوفق قسم منهم بعد تعب وجهد يطول سنين عديدة فيصبحون «فقهاء» و «مجتهدين» ينحصر نشاطهم بالتدريس في الحوزات ويتعدون عن الناس، قسم آخر لا يملكون الذكاء ولا الفطنة، ولكنهم يملكون بدلاً منها صوتاً جميلاً، وربما قدرة بيانية جيدة، فيضطرون عندها لطرق باب التبليغ في المجتمع، وهنالك قسم ثالث حرم من الموهبتين فلا هو بفقيه ومجتهد، ولا هو بصاحب صوت جميل، ينتخب هذا القسم، طريقاً ثالثاً، يخرسون ويسكتون، ويطلقون باب «التقدس»... ومن صدف الأقدار انهم يوفقون اكثر من اي فريق آخر.

في هذا الوسط، أنصفوا الناس «ومصيرهم» وانصفوا «الدين» ومآله.

ولا داعي لان تفكروا كثيراً، كلا بل انظروا فقط!
وهذا هو السبب في ان شعبنا لديه الأيمان والعشق والقرآن ونهج البلاغة وعلي وفاطمة وتأريخاً أحمر ولكن مصيره أسود، لديه حضارة ودين «الشهادة» ولكنه ميت.

ولهذا كانت «جان دارك» - فتاة عاطفيه وخياليه - ملهمة للشعب الفرنسي في الحماس والثورة والتضحية لقرون طويلة، وتحولت زينب - والتي تمتلك رسالة صعبة، وأثقل وزناً من رسالة الحسين(ع) أي مواصلة طريق كربلاء ضد نظام الجريمة والكذب والخوف والأختناق في أوضاع صمت فيها كبار المسلمون - تحولت الى أخت نائحة يجب النوح عليها فقط».

وها أنذا اسمع صراحاً غاضباً مؤنباً، يزق في وجه العلماء المسؤولين عن عقائد الناس ومأموري إسلام محمد (ص) وتشيع علي (ع) صراحاً لا أدري من أين يأتي من فم علي أم من عمق العقل الباطن للأمة يقول: «بأي شيء انتم مشغولون»؟

عن أي شيء تتكلمون؟ ولماذا لاتتكلمون؟ وطوال هذه السنين المديدة ألا يوجد كتاب يقول للأنسان ما هو القرآن؟ لماذا أخرستم لساني بين الناس وبدلتموه بكل هذا المديح والثناء والشعر والعويل واللطم؟ لماذا لا يستطيع أي فارسي أن يعرف ما قلته أنا؟ ولكنه يستطيع أن يقرأ كل آثار لامارتين الشاعر الفرنسي الماجن، ماذا أقول، بل حتى كل أغاني بليتييس الغانيه اليونانيه القديمه، يستطيع أن يقرأها بالفارسية، ولكنه لا يستطيع أن يقرأ أي خطبة لعلي (ع) ولو واحدة؟

واين منا، رسالة قصيرة، صحيحة، تتحدث عن سيرة أئمتنا الذين لانفتأ نتحدث عن حبههم وذاتهم وكراماتهم ومعجزاتهم، ونحتفل في كل مولد لهم ووفاة؟ وأين منا أوراق قليلة تقول لشيعه علي وعشاقه من كان علي ومن كانت فاطمة وكيف عاش أبناؤهم وكيف فكروا؟ ماذا فعلوا وماذا قالوا؟ وشعبنا الذي بكى وأخلص وأنفق الأموال طوال عمره في ذكرى أئمته، أئمته الذين كان يجب ان يتعلم من كل واحد منهم درساً وأن يستلهم من حياتهم، فكرهم، كلامهم، سكوتهم، حريتهم، أسرهم وعذابهم وشهادتهم، المعرفة والوعي والحياة والعزة والأنسانية، هذا الشعب لايعرف من الأئمة إلا بالتوالي ترتيبهم.

من المذنب اذا كانت المرأة منا، تبكي على فاطمة وزينب بكل

وجودها، وتضحى بنفسها اذا كانت تعلم ان لذلك فائدة ولكنها لاتعرفهما، ولاتعرف كلمة من أحاديثهما ولم تقرأ حتى سطرأ واحداً عن سيرتهما، ولاتذكر «فاطمة» الا في اللحظة التي تكون فيها خلف باب بيتها، ويكسر ضلعها، ولاتذكر من زينب إلا ساعة خروجها من الخيمة بعد استشهاد الحسين «ع» والذهاب نحوه، ولاتعرف عنها شيئاً إلا ما قامت به من صباح عاشوراء حتى وقت الظهر، ثم تفقدها منذ عصر عاشوراء حتى آخر يوم من حياتها، وتنتهي معرفتها «بزينب» في ذات الوقت الذي تكون رسالة زينب قد بدأت للتو وهي وراثة الحسين «ع»؟

ذنب من اذا كان الشاب المثقف والفتاة المثقفة عندنا، يحكمان على الدين بهذه الصورة دين البكاء والنواح والعزاء والمصيبة، بالعقم وعدم الفائدة؟ وماذا يغني هذا الشعب الأسير المتخلف - المحتاج الى الوعي والحرية - ماذا يغنيه كل حماسه وحبه وبكائه وعويله على الحسين وفاطمة وزينب؟

واذا كان مثقفنا المتألم من انحطاط قومه والساعي لايقاظ الشعب وتحريكه، والعارف بمجتمعه جيداً ولكنه لايعرف التاريخ، ولا يرى عقيدتنا في المدينة وبيت فاطمة ومحل استشهاد الحسين «ع» بل يراها في حسينيّات أصفهان وطهران ومشهد وقم، اذا كان هذا المثقف يهتف قائلاً: «ماذا يغني هذا المذهب الساخن والآلام القديمة» و«اللعن التاريخي» و«الحب والبغض المنتفي بانتفاء الموضوع» ماذا يغني، المرأة المنحطة المحرومة الأمية عندنا - والتي تطلب التحرر والأصالة،

تطلب الانسانية والاستنارة -، ماذا يفيدها كل هذا إلا ان يحرف أفكارها عما «يحدث» الى ما «حدث» في القرون البعيدة والأراضي الغريبة وبين الناس الأجانب ويشغلها به، فلا تعرف الظلم ولا تشعر بقيد المجتمع، على رقبتها، بل تثور من أجل ظلم حصل في أرض ما وتغضب من أجل قيد فرضه خليفة ما في عصر ما على رقبة مريض ما، وتنفعل ثم تضرب على رأسها بالسيف وتضرب وتضرب حتى يغمى عليها، كي يرتاح ضميرها ويطمئن قلبها فتمحى ذنوبها، وتسقط كل المسؤوليات عن كتفها، فتخدع ميزان العدل الألهي، وبالتالي، «إذا كانت ذنوبها بعدد نجوم السماوات وقيعان المحيطات ورمال الصحراء، فسوف تبرأ منها بهذه «العملية الجراحية البسيطة» وتتغير هويتها تماماً فتصبح كيوم ولدتها أمها، طاهرة، نظيفة. وتكون فوق هذا صاحبة فضل! ولهذا أبدلت فرقتكم «مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد والشهادة والانفاق والإيثار والقسط والوعي والتكامل والعزة والوحدة والعمل...» أبدلت كل هذا «بالبكاء والمصيبة والعزاء والآه والندب والتوسل والتقية وأنتظار المنجي والشفاعة بلا حساب والعواطف والسب والشتم والمديح والتملق...» وأصبح من حق قادة هذه الفرقة وذلك بقيمة ذلة تابعيهم وفي الآخرة فقط، ينقذونهم ويأخذون بأيديهم. الفرقة التي حكمت على شعبنا بالضعف والخرافة والأنحطاط والتسليم للظلم والذلة والعجز، واليأس...، اذا فكر مثقفنا وتكلم بهذه الطريقة عندها ذنب من كل هذا؟

واذا كان شعبنا يعتقد ان: «محض حب علي» و «ولايه علي» - دونما معرفة او وعمل - له أثر كيميائي وخاصية حمضية تزيل «كل السيئات والمنكرات وتبدلها الى حسنات» بحكم القرآن^(١)، أي ان نفس هذه الخيانة التي يرتكبها في الدنيا تتغير ماهيتها في الآخرة، وتتحول الى خدمة، وبعبارة أخرى: يكتب - بناءً على هذا - لكل ذنب لهم في الدنيا، ثواب في الآخرة! اذا فكر شعبنا بهذه الطريقة، فمن المذنب يا ترى؟

واذا كانت نفس ولاية علي «ع» وإمامته هذه - والتي كانت لقرون عديدة ظهيراً لحركة العدالة والتحرر والروح النضالية، وملهمة للشعب الواعي اليقظ في حرريته وتحرره وعزته واستقلاله وتكامله الاجتماعي والأنساني - لا أثر لها الآن، واذا كان قيمة وأثر إتباع علي، وفاطمة، والأئمة قد انتقلت من هذه الدنيا الى الآخرة، واوكلوا نتائجها الى مابعد الموت، فمن المذنب في هذا ياترى؟ ومن سيكون المذنب اذا لم تؤثر علاقة «آبائنا بأهل هذا البيت» في حياتهم وفكرهم وعصرهم ومجتمعهم، وشاهد «الأبناء» هذه الحالة فقطعوا بالتالي كل ارتباط لهم بهذه العقيدة؟

وأخيراً، من المذنب اذا كان مجتمعنا، وهو مجتمع متدين ومسلم ومعتقد بعتره النبي وولاية علي وإمامة الأئمة الأطهار اذا كان اكثر

(١) الآية: «فأولئك يدل الله سيئاتهم حسنات» (الفرقان آية ٧١)، هكذا يفسرون هذه الآية! اي نبوغ هذا في شل آيات الله وعباد الله!!

تخلفاً حضارياً، ثقافياً، ومادياً ومعنوياً من كثير من المجتمعات المادية أو الدينية ولكن غير المسلمة أو المسلمة ولكنها فاقدة للولاية والاعتقاد بالأمامة. بالرغم من وجود الاستعمار الأجنبي والاستبداد التاريخي وعوامل الانحطاط الأخرى في تاريخ هذه الشعوب بل ربما أكثر خشونه وأعمق من وجودها في تاريخنا، ولكنها في نفس الوقت وبدون حب علي والبكاء على الحسين وانتظار الموعود والفقهاء الجعفري وأصول التقيہ والتقليد والتوسل... أكثر وعياً ولياقة وتطوراً من شعبنا، بالإضافة الى أنهم ليسوا أقل شأناً منا من ناحية القسط والعدل والقيادة الاجتماعية والأخلاق العامة والتطور الأنساني والروح التواقة نحو الحقيقة والأجتهاد العلمي والفقهی والطهارة الفكرية والجدية، وبصورة عامة، من ناحية اللياقة الفردية والأجتماعية من أجل حياة مادية ومعنوية أفضل.

من المذنب في كل هذا؟.

آل علي؟ المثقف؟ أم الناس؟

ولكن هل حقاً ان هذه (الأسرة) غير ذات تأثير؟ أم أن جيلنا الشاب والمثقف هو المخطيء في حكمه؟ أم ان جماهير شعبنا المتدينه هي المقصرة؟

علي أوضح «حقيقة» و «أرقى» «مذهب» «تمثل» في موجود إنساني. «حقيقة أشبه بالأساطير» و «إنسان، كائن، كما لا بد للإنسان أن يكون» وزوجته فاطمة، نموذج للمرأة المثالية، التي كان بإمكانها

أن توجد ولكن أحداً لم يمثل وجودها؟ والحسين وزينب، الاخ والأخت، اللذان أوجدا ثورة عظيمة في التاريخ، حفظت للحرية كرامتها، وفضحت الأستبداد والإستحمار، هذا «البيت» كعبة يقيم فيها أبناء وورثة ابراهيم، الكعبة «رمز» وهم «الأصالة». ذلك «البيت»^(١) مطاف المسلمين فقط وهذا «البيت»^(٢) مطاف كل قلب يدرك الجمال ويعرف عظمة الأنسانية ويقدس الحرية، والعدل، والحب والأخلاص، التقوى و«الجهاد من اجل خلاص الناس» و«الاستشهاد من أجل حياة الناس». ومن ناحية أخرى، عرف شعبنا هذه العترة المظلومة المحرومة وقطع معها عهداً أبدياً في الوفاء، في المسيرة الشاقة والجو المشوش للتاريخ، ومن بين القصور والقياصرة - والذين تحدث عنهم التاريخ دائماً - ودار حولهم.

انظروا الى هؤلاء الناس الفقراء والجوعاء كيف يعملون وماذا يفعلون من أجل أبراز عواطفهم وإيمانهم نحو هذه الأسرة المحبوبة فرداً، فرداً.

أحياناً يستطيع «إنفاق المال» ان يعلن عن قدرة الأيمان والأخلاص اكثر دقة من «الأعمال الأخرى من قبيل الاكثار في العبادة»، احسبوا كل هذه الأوقاف والندور والمصارف التي تنفق من أجل حبهم، حتى في هذه الأيام التي قويت فيها المادية وضعف فيها الدين، واجتذب

(١) يقصد الكعبة. الترجمة .

(٢) بيت علي.

الوضع الاقتصادي القلوب والأفكار اليه فبمجرد حلول الايام و
المناسبات الخاصة بهذه الأسرة نرى ملايين المجالس التي تقام بأسمهم،
وتؤمن من أجل أحياء ذكرهم نفقات حياة مئات الآلاف من
«الآيات»^(١) و «أئمة الصلاة» و «الوعاظ» واكثر من سبعمئة ألف
«سيد»^(٢) وقارئ وخطيب ومداح. هذا غير ما ينفق باسم الخمس،
سهم الأمام والصدقات والخيرات، مع ملاحظة ان هذا الشعب شعب
فقير اقتصادياً، بدخل سنوي بسيط، وبالذات اذا أنتبهنا الى الفوارق
الطبقية في المجتمع الإسلامي وحقيقة ان نصف الثروة الوطنية في يد
بضعة آلاف فقط، وان ثلثي اجمالي الثروة بيد نسبة لا تتجاوز العشر
من الشعب. وخلافاً للماضي، فقد أنتقلت الثروة من يد التجار والملاك
القدامى لأيدي الرأسمالين المعاصرين، والمجموعة الصناعية المتجددة
والبورجوازية الحديثة، وسماسرة البضائع الأجنبية أو منتجي المواد
الأستهلاكية الجديدة وان الأموال خرجت من المخازن القروية،
وحجرات التجار والسقوف القديمة للسوق ومن أيدي الصرافين
القدامى، وأصحاب الحرف اليدوية التراثية وذهبت الى البنوك
والبورصات والشركات والمثليات والمعامل... وان هذه «الطبقة
الجديدة» غريبة الفكر، تنفس في جو الغرب بعيداً عن الدين،

(١) جمع «آية الله» وهو لقب يطلق على علماء الحوزة الكبار عند الشيعة. المترجمة.

(٢) القصد هم اولئك الذين يتخذون «من قرابتهم للنبي (ص)» مهنة لهم يرتزقون بها.
والأفان السادة اكثر عدداً بكثير.

واذا وجد بينها أفراد يميلون نحو الدين، فدينهم دين أعياني، تشريفي، موسمي، وحتى في هذا العمل فهم يؤدونه بافكار غريبة، وإسلامهم - كما يقول سيد قطب - ليس إلا «إسلاماً أمريكياً».

الدين اللامسؤول، الخالي البال من الانفاق والتعب، والذي يفيدهم من أجل أبداء آرائهم وعرض عضلاتهم الكلامية فقط، وتبقى فتياتهم وفتيانهم، يلهون ويلعبون في الخارج وفي الدول الغربية على «البلاجات» و «شواطئ البحار» يبدلون ويبدون كل كرم هناك، هم وأزواجهم، يذهبون كل عام إلى الغرب، كي يفرغوا ما يحتويه كيسهم من مال في معارض الأفرنج ومحللاتهم، وبين أيدي الرأسمالين الذين يحلبون كل بقرة حلب، هاربين بذلك من كل عقدهم وغباوتهم وأحاساسهم بالنقص، بأقامة الحفلات والمآدب، والتي هي دليل واضح على البداوة، كما هو الحال في زعماء القبائل الأفريقية والشيوخ العرب - ثم يعودون بجيوب فارغة، وأيد صفراء، ولكن برؤوس منفوخة بالغرور، إلى «ترايبهم الغالي» وطنهم العزيز، وإلى حضن مواطنيهم الأعزاء، كي يعودوا مرة أخرى ويجمعوا ويحلبوا الناس والبلد هنا ويرهقوا أقتصاده، ثم يعيدوا الكرة مرة أخرى بعودتهم إلى الغرب كي يُحلبوا هم ومرات...، أنهم يقومون بكل هذه الأعمال بصورة طبيعية، كأن شيئاً لم يكن، بل بفخر واعتزاز، متفضلين على الشعب، معتبرين كل ذلك علامة على تمدنهم وتحضرهم وتطورهم.

وفي الوقت نفسه، نرى حجاج بيت الله أو زوار كربلاء، وأغلبهم من القرويين أو متوسطي الحال أو رجال الأقتصاد الوطنيين، يقضون

عمرأ في التعب والكد والجهد ثم يجمعون مبلغأ معينأ ليسافروا به ، باعتبار هذا السفر العمل الوحيد في حياتهم والذي هو سفر وسياحة وتعرف على الخارج، في نفس الوقت الذي يكون تجليأ للأيمان والعقيدة ومظهرأ للتواصل مع تأريخهم والترابط بينهم وبين حضارتهم، وهو أيضاً زيارة الشخصيات المحبوبة والتعرف على أثار الحضارة والفن المنتسبة اليهم وتحقق أمانيتهم وشفاء روحهم وعواطفهم، وأخيراً باعتباره عبادة دينية، وعلى أية حال، فهو عمل يلهمهم ويعلمهم، بأي مستوى كان عليه روحياً ومعنوياً وأخلاقياً، ولا يكون السفر الى الحج مثلاً إلا مرة واحدة في العمر ينفقون أكثر أموالهم التي جمعوها له من أجل الحجز في شركة الطيران، ولا يبقى لديهم إلا النزر اليسير الذي يقضون به بقية حوائجهم بينما نرى الطبقة الأولى التي مر ذكرها تنفق أضعاف ذلك في مقاهي الدول الأوربية ومطاعمها.

نلاحظ ان قطاع الشعب المدني والقروي ازداد فقراً وحيرة وجوعاً^(١)

(١) تعتبر قضية الجوع، كما أثبتها علم الاجتماع الخاص بالجوع. وكما عرضها (كاسترو) الكاتب المعروف والمسؤول من المنظمة الغذائية العالمية التابعة للأمم المتحدة بالارقام الدقيقة، تعتبر «ظاهرة جديدة»، ووليدة النظام الرأسمالي الجديد، وهناك نسبة اثنين من كل ثلاثة في العالم يعانون الجوع بما فيهم سكان أمريكا وأوربا وروسيا والتي تعتبر من المجتمعات الغنية. وهذه كارثة اكتشفها علم الاجتماع والجغرافيا البشرية من طريق الدراسة والتحقيق العلمي بينما يظن الاكثرية بان الزيادة في مستوى الانتاج العالمي تؤدي الى انخفاض الفقر في العالم وبالذات الجوع، في حين ان ميزان حجم ونوع الاستهلاك، يرتفع بوتيرة اسرع من الانتاج ويتقدم عليه، ويجب قياس الفقر والثروة أو الحاجة والرفاه

بهذا «التحول الطبقي الخاص» «والفقر» الاقتصادي العام أما طبقة الملاكين وتجار السوق، أي الطبقة الحاكمة قديماً، فقد ضعفت وتراجعت الى الخلف أمام تقدم الطبقة الجديدة، وآل مصير أكثر أفرادها الى الالتحاق ببقية افراد الشعب، واستطاعت الأقلية ان تلتحق بالطبقة الجديدة وتغير هويتها.

وأما القطاع الذي يبقى وفيماً لعقائده وشعائره الدينية فهو هذان الفريقان اللذان ضعفا بشدة وسقطا من الناحية الطبقية والاقتصادية بناءً على هذا التحليل الاجتماعي والاقتصادي الملموس. ومع ذلك فان الحقوق الدينية الثقيلة التي يدفعونها، والمصروفات الكثيرة التي مازالوا ينفقونها في تعظيم الشعائر وتشكيل المجالس وتشييد البنايات الدينية وتأمين حياة علماء الدين ومصارف الحوزة العلمية وغيرها، تدل على عمق إرتباطهم بهذه الأسرة ومدى ثباتهم واخلاصهم في ذلك.

ويقفز هنا هذا السؤال فجأة الى الذهن، الذهن الذي تابع القضية

بميزان «الانتاج» و«الاستهلاك» الحالي أو «الدخل» و «الانفاق» المرادف لهما، لا بميزان الانتاج أو الدخل الحالي بميزان الانتاج أو الدخل القديم. وكما ان ارتفاع دخل الموظف ليس دليلاً على إنخفاض مستوى فقره أو ازدياد مستوى رفاهه وثروته، فان فقر عائلة ما أو مجتمع ما، يقاس بالنسبة الى دخله وانفاقه والذي أوجد كارثة الجوع المنتشرة حالياً هو تحمل حجم ونوع الاستهلاك المتزايد في النظام الرأسمالي وحياة الاقتصاد البرجوازي وفلسفة اصالة الاستهلاك درجه تكون فيها حتى العوائل الغنية ظاهراً مبتلاة بالجوع الخفي، يسرقون من بطونهم كي ينفقوا على ظاهريهم، وطبقاً للفلسفة الشائعة التي تقول: ان أحداً لا يسمع صوت البطن عندما تجوع ولكن الجميع يرون الملابس والبيت!

الى هنا، ودرس كل جوانبها بتفكير دقيق ومنطقي و واضح، فتقدم خطوة خطوة ووجد كل شيء صحيحاً ومتعالياً وثابتاً في انه:
«من جهة فان ديننا الإسلام: هو آخر الأديان في التاريخ و اكملها و محمد(ص) والقرآن والصحابة وتاريخ الإسلام، هم معلمو الحياة والعزة والحضارة والمجتمع والقانون والتصور والقدرة والثقافة ومعلمو دين التوحيد الألهي والتوحيد الاجتماعي الأنساني ورسالة «قيام الناس بالقسط» «وصنع أمة كل فرد فيها... شهيد على الناس»!

كما ان عقيدة التشيع: هي عقيدة «الامامة» و «العدالة» واتباع علي، وهي صاحبة التاريخ الحافل بالجهاد والمقاومة والالهام والحرية والعدل وعدم الاستسلام للظلم والجور والتمييز والأسر، والعداوة الدائمة مع إغتصاب الحق ومسح الحقيقه والاستعباد السياسي والاستغلال الأقتصادي و «استبداد علماء الدين»^(١) وهي عقيدة الأيمان بعلي والحسين وزينب والعدل وقيادة المعصوم والاجتهاد العلمي والجهاد العملي والشهادة والاستعداد وانتظار الأنفجار والثورة وظهور القائم الذي ينتظر هو بدوره ثورة الناس، كي يظهر،...

ومن جهة أخرى، فشعبنا مرتبط بهذه الأسرة ليس فقط لعلاقته الدينية بها، بل اكثر من ذلك، فذكر أفرادها يهب الحياة لقلبه، وذكراهم تجعل الدم يغلي في شرايينه، وكل عام يرتدي أفراد السواد،

(١) أول من أطلق هذا المصطلح هو المرحوم آية الله النائيني الكبير في كتابه «تنبيه الأمة وتنزيه الملة» مع هوامش من آية الله الطالقاني.

ويكون ويندبون مآسيهم ومصائبهم، وينذرون أنفسهم بانتظار موعودهم...

ومن جهة أيضاً، فمثقفونا اليوم، هذا الجيل الحساس واليقظ والواعي والمطلع على مصير العالم ومصير مجتمعه، والعارف بروح وحركة الزمن والباحث عن فكر ثوري والمفكر بالحرية والعدالة ويقظة الشعب وإيجاد الأحساس والحركة والمسؤولية والوعي عند شعبه، مثقفنا اليوم ليس هو ذلك الشخص المتغرب، التائه الغريب عن شعبه، ووجه مثقفنا اليوم ليس وجه جمال زاده^(١). بل جلال^(٢) و «انفجار قبلية التسليم في نص السنة والحضارة الاسلامية^(٣)» ليس شعاراً له بل شعاره هو: «انفجار قبلية التمرد ضد التغريب واعلان العودة الى الحضارة الاسلامية والأعتماد على الذات»! لقد أظهر مثقفنا أنه يعرف مسؤوليته الاجتماعية جيداً، ويعمل بالقدر الذي يعرفه.

اذن لماذا لا تؤثر كل هذه العوامل، التي تحيي كل واحدة منها شعباً بأكمله، على شعبنا ومصيره؟

«ذلك الدين» هذه «العقيدة» ذلك «المثقف» وهذا «الشعب»، لماذا إذن يكون الأمر هكذا؟

(١) جمال زادة: كاتب إيراني متأثر بالافكار الغربية. المترجمة

(٢) جلال آل أحمد: كاتب إيراني وأديب فارسي معروف، كان ضد التغريب والتأثر بالغرب. وكان يدعو الجيل الشاب للعودة الى اصالته الوطنية الدينية. المترجمة.

(٣) اشارة الى كلمات «تقي زادة» الذي يقول بتفاخر «انا الذي كنت أول من فجر قبلية الاستسلام للأفرنجي في جو ايران في ذلك الوقت». المؤلف.

ولماذا لا يثمر كل هذا الحب وهذه العواطف والدموع الحافلة
بالحياة والحرية والأيمان، والمليئة بعظمة الانسان في الوفاء لهذه
الشخصيات، لماذا لا تثمر، وتنتج شيئاً لشعبنا؟
الدين هو دين النجاة، والعقيدة هي عقيدة العدل، والمثقف الملتزم
والشعب المؤمن، اذن من المذنب هنا؟
انه بكلمة واحدة:

العالم!
ولكن لماذا؟

لان السبب الأساسي في بقاء إيماننا باسلام محمد وطريق علي
وعمل الحسين شيئاً عقيماً، هو أننا لا نعرفهم، فنحن «نعشقهم» ولكننا
لا «ندركهم».

هنالك «حب» ولكن ليس هنالك «معرفة». سر هذا اللغز في ان
الدين هو دين الحياة ولكنه لا يهب الحياة لشعبنا، هو أنهم يؤمنون به
ولكنهم لا «يعرفونه». من الذي يجب أن يعطيهم المعرفة؟ انه العالم.
هو الذي كان يجب ان يعرف بعلي، وان يعلم «عقيدة علي»
العالم في الاسلام ليس عالماً بلا التزام ومسؤولية يمتلك مقداراً
معيناً من المعلومات. العالم ليس مجموعة من المعلومات الفنية
التخصصية في عقله فحسب، بل العلم «شعاع من نور» في قلب
العالم: «النور الألهي»^(١)

(١) العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء. النبي(ص).

وهذا التعبير الخاص - الموجود في حديث النبي (ص) - ليس مفهوماً غيبياً مرموزاً، وليس علم الأشراف العرفاني، وأمثاله، وكذلك، ليس علم الفيزياء والكيمياء والتأريخ والجغرافيا والفقه والأصول والفلسفة والمنطق، فهذه كلها «المعلومات العلمية» لا «النور»، العلم الذي هو نور العلم المسؤول، علم الهداية «علم العقيدة»^(١) والمذكور في القرآن بأسم «الفقه» ولكنه اليوم يعني «علم الأحكام الشرعية والفرعية»، وهذا العالم لا يعمل في الظلام، انه يُنير الفضاء ويحطّم الليل، يدلل على الطريق، ليس استاذاً أو حكيماً اختص بطلاب معدودين، بل هو معلم الناس، علمه ليس علم الأكاديمية الافلاطونية، بل علم الرسالة النبوية علماء كهؤلاء يطلق عليهم اسم «ورثة الأنبياء».

«علم المعلومات» هو «نوع» من «القدرة»، وعلم النور، هو «هداية»، وعالم النور، هو عالم مثقف والمثقف هو مفكر ملتزم مسؤول أمام عقيدته وشعبه وعالم التشيع مسؤوليته أخطر وأوضح، فهو «نائب» الإمام وعلم الإمام لديه مسؤولية الإمامة، والإمامة لديها مسؤولية النبوة. وعالم التشيع، لديه نيابة الإمام ويأخذ حصة الإمام، ويتعهد بتبليغ الرسالة النبوية، والإمامة العلوية للناس فتكون أكثر وظائفه بداهة هي، ان يعرف للناس من هو الإمام، على الأقل ومن

(١) في رأيي، فان «علم العقيدة»، ومرادفه «العلم بالعقيدة»، هو الترجمة الصحيحة لكلمة أيديولوجيا.

كان الأئمة، وكيف كانوا يفكرون؟ ماذا كانوا يقولون؟ ماذا كانوا يفعلون؟ وكيف كانوا يعيشون؟ وما هو دورهم في التاريخ؟ ماهي عقيدتهم؟ وأي فكر وقفوا بوجهه، أي جناح، وأي نظام وما هو الجهاد الذي قاموا به؟ وأخيراً ماذا يريدون منا، وماذا يجب أن نفعل نحن من أجل ان نواصل دربهم؟

واذا رأينا ان كل هذه الاسئلة تحتاج الي جواب، ومع ذلك فليس هنالك كتاب حول كل أئمة الشيعة، بين الناس وبلغتهم، في حين لا يعدم ذلك عن أحد الفنانين الأوروبيين مثلاً، فالمذنب هنا هو العالم.

واذا عثر شابنا المتعلم اليوم على أغاني ومنكرات بليتييس الغانية في الأساطير اليونانية، اذا عثر عليها باللغة الفارسية، ولم يعثر على أية خطبة من خطب علي(ع) بلغته، فالمذنب هنا ليس سوى العالم.

و اذا كان شعبنا لا يعرف عن أئمة إلا عدة « أسماء » وعن كل واحد منهم عدة معجزات وكرامات ومدائح ومناقب، وعن كل حياتهم يعرف يوم ولادتهم وليلة وفاتهم فقط، فالمذنب هو العالم.

علي واهب الحرية، والناس، عشاق علي، وعشاق علي منحطون ومظهرون للضعف والذلة، والمثقف مطلع على هذا الضعف والانحطاط! السبب الأساسي في هذا التناقض، هو «عدم المعرفة».

«المعرفة» هي القيمة المؤثرة، والأيمان والحب لا يساويان شيئاً بدون المعرفة والأختيار الصحيح. والقرآن الذي لا يُقرأ ولا يُفهم، شأنه شأن

اي كتاب آخر، أو اي دفتر أبيض. ولهذا كان السعي الحثيث من أجل ألا نقرأ القرآن ولانتدبره، ولانفهمه، وبحجج كثيرة مثل اننا لانفهم القرآن، وان للقرآن سبعين بطناً ولكل بطن سبعون بطناً و...^(١) وان التفسير بالعقل ممنوع وحرام^(٢) ولهذا يصرح القرآن قائلًا: «أفلا يتدبرون القرآن» ويقول في جواب اعدائه الذين يعرفون القرآن باعتباره صعباً جداً ومعقداً جداً، ولكن بلهجة رقيقة مشفقة كي يبعدوا الناس عن القرآن، يقول في جوابهم: «ولقد يسرنا القرآن للذكر، فهل من مذكر».^(٣)

وعلي يهب أتباعه الوعي والعظمة والعزة والتحرر في الوقت الذي يعرفونه فيه. وماذا يفيدو ماذا يؤثر مدحه والثناء عليه؟ عندما لانعرف كتاباً صحيحاً واحداً عن سيرته في لغتنا، ولانعرف منبراً واحداً ينقل أحاديثه للناس المشتاقة بصورة صحيحة^(٤) والحب والايمان لاينفعان لايهبان الروح، لايعطيان التحرك والبناء إلا بعد المعرفة. وهكذا أصبحت فاطمة، وجهاً أختفى خلف ستائر المديح والثناء والبكاء الدائمي لاتباعها.

(١) انظر الى المغالطة بينما كون الشيء عميقاً غير كونه لغزاً، وكونه سهلاً، غير كونه سطحياً

(٢) انهم يفسرون «من ترجم القرآن برأيه» بـ «من ترجم القرآن بعقله»!

(٣) (٥٤ - ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠ - أربع مرات في سورة قصيرة).

(٤) المقصود هنا المنبر، لا المنبرين الموجودين والذين يتكاثرون باطراد «كشر الله أمثالهم»!

ثلاثة وجوه للمرأة:

لدىنا في المجتمع والحضارة الإسلامية، ثلاثة وجوه للمرأة: أحدها وجه المرأة التقليدية، الخرافية - والآخر وجه المرأة الحديث المتأثرة بالغرب، والتي بدأ انتشار نماذجها، والأخير هو وجه «فاطمة» والنساء «الفاطميات»! والذي ليس له أي شبه بوجه المرأة التقليدية، والفكرة الموجودة في أذهان أفرادنا عن المرأة التقليدية بعيدة وغريبة عن وجه فاطمة بقدر ما وجه فاطمة بعيد وغريب عن وجه المرأة الحديثة. في عالمنا اليوم، وبالذات في الشرق وخصوصاً في المجتمع الإسلامي والأيراني، يواجهنا واقع قائم، وهو وجود تضاد وأزمة وتحول وأنهيار وتشتت عنيف جداً في الخصوصيات الإنسانية والسلوك والعادات الاجتماعية وطريقة التفكير، وأساساً تغيير الشكل الإنساني هو الذي أوجد طبقة خاصة بأسم «المثقف» و «الرجل والمرأة المتعلمين» أو «المتحضر» والذين هم في تضاد مع المرأة والرجل «التقليديين».

وهذا التضاد، هو التضاد الذي كان يجب أن يحدث، وما كان أحد يستطيع الوقوف بوجهه، كان قدراً لم تستطع أي قدرة أن تقف بوجهه.

وهذا لا يعني تأييد هذا التحول ولا إنكاره، فالبحت ليس هذا، ولكن القصد هو أن المرأة تتغير بالأجبار، بتغيير المجتمع وتحولها، تبدل اللباس، تغير الأفكار والحياة وجهتها، ولا أمل في إمكان بقائها في قوالب دائمية.

في الاجيال الماضية، كان الولد وفياً تماماً كأبيه، ولم يكن الاب يخشى أبداً أن يتخذ ابنه شكلاً جديداً ومبتدأً ومجهولاً ثم يصبح بشكل لا يوجد فيه أي وجه أشترك بينهما فتموت العواطف لإزاء بعضهما الى درجة لا يستطيعان معها الجلوس مع بعض ولو لدقيقه واحدة بدون الانتقاد وسوء الظن والمناقشات الحادة لم يكن الأب في السابق يخشى هذا الأمر، أما اليوم فالوضع يختلف تماماً، حيث ان إحدى مميزات قرننا الحالي - سواء في الغرب أو الشرق - هو الفارق الشديد بين الجيلين، إذ يقيم من ناحية «الزمن التقويمي» ثلاثين عاماً بينما يُقيم من ناحية «الزمن الاجتماعي» ثلاثين قرناً .

بالأمس كان المجتمع ثابتاً، وكانت القيم والخصوصيات الاجتماعية غير قابلة للتغير، ولم يكن يتغير أي شيء في غضون ١٠٠، ٢٠٠، ٣٠٠ عام. البنية الاجتماعية، شكل الإنتاج والتوزيع، نوعية الاستهلاك، العلاقة الاجتماعية، الحكم، نوعية التبليغ الديني، المراسيم الدينية، الأخلاق والطباع والقيم الأيجابية والسلبية، الفن، الأدب واللغة وكل شيء، كانت هي نفسها الموجودة في عصر «الآباء» و «الأجداد» وتبقى هي نفسها، في عصر «الأبناء» و «الاحفاد».

الصالح والطالح:

في دنيا ثابتة كهذه، ومجتمع مغلق لا يتحرك فيه «الزمن الاجتماعي» كان شكل الرجل والمرأة واحداً، وكان طبيعياً ان تكون الفتاة نسخة مكررة من أمها، واذا كان هنالك اختلاف بين

الأم والبنت فهو في القضايا الفرعية للحياة، أوفي حوادث الحياة اليومية أو الانحراف والفساد الأخلاقي، الفردي، الفساد الذي يتفق على الحكم عليه أفراد المجتمع، ولم يكن هناك اختلاف بينهما في السلوك أو الحالة التي يعتبرها البعض صلاحاً والآخر فساداً، كما هو الحال اليوم.

أما في عالم اليوم فالفتاة تبتعد عن أمها دون أن تكون منحرفة وتصبحان كلاهما غريبتين عن بعضهما، ويجعل معدل فارق السن (١٥، ٢٠ أو ٣٠ عاماً) منهما إنسانين خاصين بعصرين اجتماعيين، خاصين بتأريخين ثقافيين، لغتين، فكريين مستقلين عن بعضهما، ولا علاقة بينهما إلا في الأوراق الرسمية، ولا أشتراك إلا في العنوان!

ونلاحظ ملامح هذا التضاد والفارق التدريجي بين الجيلين في مظاهر الحياة الاجتماعية أيضاً.

الدين والتقليد:

والمجتمع الذي يحوي هذا التضاد لن يستمر فيه طويلاً، وواضح أن أحد هذين الصنفين وهو «الأم» سوف يبقى في بوتقته يقضي آخر أيام عمره، وإن الآخر يبدأ دوره منذ أيامه الأولى، وبالتأكيد سوف تكون هذه الفتاة هي أم «الغد» ولكنها لن تعود إلى القوالب القديمة، وعندها سوف تتفق الأم مع البنت - في الجيل القادم - فيتحد الفارق الاجتماعي والزمني بينهما، وتصبح أبنيتها «وفية» لها تماماً كما كانت أمها لجدتها.

وهذه الحركة، اي تبديل الصنف التقليدي «صنف الام» الى الصنف الجديد هو أمر قطعي ومن يقف في مواجهة هذا «الأمر الواقع»- سواء كان حقيقة أو باطلاً، فهو واقع محتوم - ببلادة وسذاجة، ويكتفي بالتهريج والشتم والسب والغضب والضرب والضغط والتأنيب والفرض والحرمان والتقييد والكلام الفارغ والخداع لن يجني من اعماله هذه شيئاً سوى التسريع في هذا التغيير وتقوية الجبهة المعارضة ان هؤلاء يبررون ويقدسون بعنوان المرشد والمفكر وباسم الأيمان والعقيدة والدين والعصمة كل شكل ورثوه عن السابق وأصبح لديهم تقليداً وعادة، أو وكما يقول القرآن الكريم من «سنن الأولين» و «أساطير الأولين» وما كان عليه «الأبء الاولون» ويسعون جاهدين في الحفاظ عليه، ويعتبرون كل شيء «قديم» فهو «ديني» وبالتالي يعتبرون «التغيير» بأي شكل كان وبأي شيء حتى في الملابس والزينة «كفراً» ويغالطون فيعتبرون التقليدية والمحافظة والقديم والهروب من التجدد والأبداع والأبتعاد من التغيير والتجدد يعتبرونها هي الأسلام.

ومن هذا القبيل وضع المرأة الذي يحاولون إبقائها عليه بحجة انه كان من السابق^(١) هكذا، وبأنهم اعتادوا عليه، ويقبلونه، ومنطبق مع مصالحهم، مدعين ان الاسلام هو الذي يريد هذا، وان الدين وضع

(١) وهذا السابق، لربما كان من عهد القاجارين أو الصفويين، أو جاهلية العرب أو العجم قبل الاسلام، وحتى من أديان اليهود والنصارى، المهم انه قديم، فيصبح بذلك مقدساً دينياً، إسلامياً، وكل من رفضه، فهو كافر، أو اذا تسامحوا قليلاً ففاسق!

هذا «الشكل» ويجب أن يبقى هكذا الى يوم القيامة، أما الدنيا فتتغير وحتى الرجل نفسه يتغير، وابنه يتغير، وتبقى المرأة في نفس القالب الذي يعجب الرجل.

مدّعين أن محمداً «ص» خاتم الأنبياء هو الذي أراد للمرأة أن تكون بهذا الشكل وهذه الصفات!!...

هؤلاء أيضاً يدعون للضلال، وما اشد الضرر في دعوتهم! ولكن أحداً لا يستمع الى أقوالهم، لان المتحول لا يمكن ان يوقفه أحد، ولان المرأة تتغير بالأجبار والأختيار، فالزمن يتحرك. والمجتمع يفقد جلده بالتدريج فتتغير العادات والرسوم والتقاليد والاشكال، لان «الحقيقة» تحيا و «اشكال الحقيقة أو الباطل» هي التي تموت، واذا أردنا ان نحتفظ بهذه «الاشكال» ببلاهة وسذاجة، فسوف تدهسها قافلة الزمن المسرعة، وتسحقها هي وما تحتويه - وما تحتويه هو الحقيقة... هذه دعوة فاشلة، عقيمة، لن يستمع اليها، لا الزمن، ولا المجتمع أبداً، ولا يمكنهم الأستماع اليها، ولكن، اذا هم برروا التقاليد التي تموت والعادات التي تمر وتُنقَض، بالدين فهم لن يستطيعوا حفظها بقوة الدين، ولكنهم يظهرون بهذا العمل الدين على انه ميّت، جامد، خاص بالماضي فقط. فيخسرونه مع التقاليد.

اذا اعتبرنا الدين والتقاليد، شيئاً واحداً وصنعنا من «الاسلام الذي لا يزول» حارساً «لاشكال الحياة والمجتمع الزائلة» وأشتبها به مع العقائد القومية والظواهر الحضارية والتأريخيه، عندها سوف يخطيء الزمن، الذي يجري ويجرف معه التقاليد والعادات واشكال الحياة،

والعلاقات الاجتماعية، والظواهر القومية والتأريخية، والعلاقات الثقافية القديمة، سوف يخطئ فيجرف مع كل هذه الاشياء الدين والاسلام ويصلبهم جميعاً على خشبة واحدة، والآن أفلا نحس بهذين الخطأين الكبيرين؟ أفليست لنا أعين فنبصر بها؟^(١)

(١) انقل هنا نموذجاً صغيراً، يدل على حقائق كبيرة ويبين نوعية التفكير والنظرة الدينية الرائجة! فأداء القواعد الصحية الاسلامية مثلاً والتي هي في غاية الرقي والدقة والعلمية، تحولت هذه القواعد بمرور الزمن، وحسب وسائل التأمين الصحية والغسل والتنظيف في الماضي وإمكانات الحياة القديمة، الى مشكلة خاصة، إذ اتخذت هذه «الوسائل والأشكال - والتي ليس لها اية علاقة بالإسلام بل تخص الأمكانيات الفنية والمادية والعادات القومية والمحلية - اتخذت وجهاً دينياً مقدساً، وأصبحت من عناصر الاحكام الاسلامية التي لا تقبل التغيير.

فقد لوحظ في مدينة «مشهد» مرة، ان «منظمة ليلية سرية تحت الارض، شكلت، تعمل حسب أصول تشكيلية، حزبية، دقيقة ومنظمة جداً، الى درجة لم يستطع أحد من خارجها التعرف على أهدافها و«ايدولوجيتها» وطريقة عملها. تبدأ هذه المنظمة نشاطها من الثالثة بعد منتصف الليل وتختفي تماماً قبل طلوع الفجر، ولا يعلم احد اين يذهب اعضاؤها، وبعد مدة، وبعد ان اسطاعوا إدخال بعض العناصر من الخارج اليها، اكتشف ان هذه المنظمة تعمل ضد مديرية الصحة - والتي كانت قد اغلقت كل خزانات الحمامات في كل مدن وقرى الأطراف - وبما ان اعضاء هذه المنظمة يعتقدون ان الآلة التي ترش الماء في الحمامات (الدوش)، لا يصح الاغتسال بها، وغسل الجنابة لا يصح إلا في الخزان فقد فتحوا في احدى زوايا المدينة خزاناً بمساعدة أحد أصحاب

سنة نبي الإسلام (ص):

«سنة النبي» والتي لها كل الاهمية في الاسلام، هي الكلام الذي قاله الرسول (ص) أو الامر الذي أصدره (الحديث) أو قبوله لعمل يقام به، سكوته وعدم مخالفته، أو عمل قام به هو في حياته حتى بدون أن يأمر الآخرين بأدائه (التقرير).

اذن فسنة النبي هي كلامه وعمله وبالتالي تقسم أحكام الاسلام الى قسمين:

- ١- ما كان قبل الاسلام وأيده النبي (الاحكام الإمضائية).
- ٢- ما جاء به الاسلام ولم يكن قبله (الاحكام التأسيسية) وشيء آخر أفهمه من السنة غير هذين الأثنين وهو ما اعتبره اكثر دقة وأهمية منهما، أي طريقة عمل النبي «ص» أو، المنهج، التكتيك، والأستراتيجية التي كان أتخذها وكانت نصب عينيه في تحقيق رسالته «ص».

الحمامات المؤيد لهم، واقاموا عليه من الامام جداراً مغلقاً، ومن الخلف كان هنالك ثقب لا يرى تحت السقف ولا يدخله إلا الاعضاء الرسميون «الحزب الخزان» يمارسون نشاطهم تحت إشراف المسؤولين الخبراء، وكانوا يخبرون الاعضاء في الثالثة، فيوصلون أنفسهم من طرق مختلفة الى اللجنة المركزية ومنها يرسلون الى الخزان القدر، كي يغتسلوا فيه غسلاً إرتماسياً، يرضون عنه! كان «الخزان» قد اتخذ وجهاً إسلامياً مقدساً، فتبدله الى جهاز رشاش جرح مشاعر الكثيرين! وكان خسران «الخزان» كارثة اكبر بالنسبة للاسلام من ضياع فلسطين!

أسلوب النبي الخاص:

كان عمل النبي «ص» ازاء اي ظاهرة اجتماعية من أجل إصلاحها أو تغييرها يتم بطريقة واسلوب، بحيث تكون درساً وقدوة لنا في حل قضايانا، حتى ان لم يكن هنالك اي شبه بين القضيتين - قضية عهد النبي، وقضيتنا -

وهذه المسألة وان كانت مهمة جداً إلا انني اكتفي هنا بمثال واحد بغية الاختصار، كان لدى العرب قبل الاسلام تقليد ذو جانب خرافي عقائدي، فقد كانوا يعتقدون ان الانسان الجنب يحلّ فيه جن أو شيطان فيتنجس جسمه وأنفاسه، ولا تخرج هذه الشياطين من جسمه إلا بعد أن يغتسل.

فحين يغتسل العربي الجاهلي اذن، فلأنه يريد اخراج الشياطين من جسمه.

ثلاثة مناهج معينة

- الطرق المتبعة في النضال الاجتماعي من أجل الإصلاح، حسب العقائد والأديان والمذاهب الاجتماعية هي:-

١- المنهج التقليدي والمحافظ^(١):

القائد الاجتماعي المحافظ، يبقى على اية ظاهرة، بكل خرافيتها، لأنها تقليد ومحافضة. وهو حارسها، ويعتبرها خلاصة وجود شعبه.

(1) Traditionalism ,Consarvatisme

٢- المنهج الثوري^(١):

القائد الثوري، يجتث هذه الظاهرة بسرعة وحسم، لان التقليد الخرافي، قديم ورجعي ومتأكل.

٣- المنهج الأصلي^(٢) والنشئ^(٣):

يحاول القائد المصلح، ان يغير التقاليد الرائجة تدريجياً، ويهيء الأرضية المناسبة والعوامل الاجتماعية لأصلاحها، بالتدريج، فيصلحها ببطء، رويداً، رويداً. (الطريق الوسط).

وأما النبي (ص)، فقد كان يعمل بأسلوب رابع، وهو انه يحتفظ بالتقليد المتجذر في اعماق المجتمع والناس، جيلاً بعد جيل، حتى اعتادوا عليه وصاروا يمارسونه بعفوية، فيصلح شكله، ولكنه يغير محتواه وروحه وجهته وفلسفته العملية بطريقة ثورية.

الأستدلال المنطقي للمحافظ:

اذا غيرنا التقاليد القديمة، تتفكك الجذور والعلاقات الاجتماعية المحفوظة في التقليد والتي تنظم البناء الاجتماعي كما تنظم سلاسل الاعصاب أعضاء البدن، وعندها، ينهار المجتمع فجأة، ويصيبه الاضطراب، وهذا هو السبب في انه بعد اي حادثة ثورية كبيرة، ينتشر الاضطراب والهرج، أو تعم الديكتاتورية وهذان لازم وملزوم لبعضهما لان الإجتثاث السريع للتقاليد الاجتماعية والحضارية المتجذرة

(1) Revolutionnisme

(2) Reformisme

(3) Evolutionisme

بقفزه ثوريه مسرعة، يوجد خلاً كبيراً ومفاجئاً في المجتمع، تظهر آثاره بعد خمود الثورة!

استدلال المصلح الثوري:

إذا احتفظنا بالتقاليد القديمه، فسوف نبقى المجتمع دائماً في القدم والركود والجمود والتخلف، لذلك فالقائد الناجح هو الذي يكسر فجأة كل القيود والقوالب التي تمسك بأيدينا وأرجلنا وأرواحنا وأفكارنا وإرادتنا وعقائدنا، فيحرر الجميع، ويرمي بهذه العلاقات والعادات والأخلاق والطباع بعيداً مع الماضي، ويضع قوانين جديدة مكانها، وإلا فإنه يبقى المجتمع على حاله من الانحطاط والرجعية والركود.

إستدلال المصلح النشئوي:

يريد المصلح ان يستفيد من نقاط ضعف الطريقتين الثورية والتقليدية، فينتخب طريقاً ثالثاً وهو التحول التدريجي وبهدوء، ويكتفي «باضفاء وجه مناسب» على أمر غير مستساغ، لا اجتثاثه من الجذور والتبديل السريع له.

يسعى هذا المنهج لا نفاذ المجتمع من الركود والأسر بين أيدي التقاليد الجامدة، ولكنه، ومن أجل ألا ينهار المجتمع فجأة، وكي تتهيأ الأرضيه المناسبه، فإنه يصلح ماهو موجود تدريجياً، وباسلوب هادىء، وبعد تهيئة الأرضيه الاجتماعيه الفكرية للمجتمع، ويصبر حتى تتحقق

أهداف المجتمع بالتحول التدريجي، لا أن يعمل بصورة ثورية، بل يصل الى هذه النتيجة بعد مدة طويلة واعداد برامج ومناهج كثيرة لها. أما العيب الذي يظهر غالباً، في هذا الأسلوب الأصلاحي، فهو انه في خلال هذه المدة الطويلة قد تتدخل العوامل السالبة والقدرات الرجعية وأيدي الأعداء الداخليين والأجانب، كي تحرف هذه «النهضة الاصلاحية التدريجية» عن مسيرها، أو توقفها، أو حتى تدمرها.

فاذا أردنا مثلاً، إصلاح اخلاق الشباب وتنوير أفكار الناس تدريجياً، فاننا في اغلب الأحيان، إما ان ننتهي قبل الوصول الى النتيجة المرجوة، وأما أن نواجه بتدخلات العوامل المفسدة التي تخدع الناس فتشل حركتنا.

إن تفكير القادة المعتقدين بالاصلاح التدريجي في المجتمع، تفكير منطقي، ولكن ما لم يدخلوه في حسابهم هو عمل القدرات المحبطة لكل نشاطاتهم، والتي كانت، دائماً، «بانتظار» الفرصة التي يهيئها لها الوقت الطويل الذي تتطلبه الإصلاحات التدريجية، كي تكون لها مجالاً فسيحاً لتخرج من كمينها الذي نصبته، وتبدأ بنسف كل ما بناه هؤلاء المصلحون «البطيئون» ثم تقلب الاوراق فجأة.

أما النبي «ص» فقد أبتدع منهجاً خاصاً في النضال الاجتماعي وقيادة التغيير وتطبيق الرسالة - بدون ان توجد في منهجه نقاط ضعف المناهج الثلاثة الآتية الذكر أو عواقبها السالبة - فيصل الى اهدافه الاجتماعية ويجتث جذور العوامل السالبة والتقاليد المعيقة لحركة المجتمع، بسرعة، وطريقته هي: «يحفظ شكل التقاليد، ولكن يغير

محتواها، من الداخل، بطريقة ثورية».

في المثال الذي ذكرناه، عن «الغسل»، - والذي كان عقيدة إسطوريه وتقليداً خرافياً لدى العرب الجاهليين - هنا يعمل «التقليدي»، على حفظ هذه العادة والابقاء عليها كما هي، أما الثوري، فينسفها وبعنف، ويمنع من أدائها تماماً. والنشؤي، يسعى في تمهيد الأرضية الفكرية والاجتماعية لدى الناس حتى تنمحي الاعتقادات الخرافية بالسحر والاسطورة حول حلول الشيطان والعلاقة الوهمية بين الجنازة ونجاسة النظر والأنفاس، أما النبي «ص»، فيصنع من هذا التقليد اكبر سنة صحية، باصلاح طريقته وشكله، والتغيير الثوري لمحتواه.

لقد حفظ النبي «ص» سنة «الحج» - والتي صارت قبل الإسلام وبعد ابراهيم تقليداً عربياً قومياً خرافياً من أجل تعظيم عبادة الأصنام ومن أجل المنافع الاقتصادية لقريش - واستخدمها في دينه بتغيير محتواها بصورة ثورية للغاية مستفيداً بذلك من المكانة التي كان عليها هذا التقليد (الحج) عند المجتمع الجاهلي، المنسوب الى ابراهيم «ع» وكذلك اعتقاد كافة الناس قبل الاسلام بأن ابراهيم الخليل (ع) هو الذي بنى الكعبة، فجعل (ص) من الحج الذي كان قد أصبح أساساً اجتماعياً وتقليدياً من أجل حفظ مصالح قريش واقتصاد مكة التجاري، جعل منه، أعظم، أجمل، وأعمق سنة مبنية على التوحيد والوحدة الإنسانية.

لقد غير النبي «ص»، عادة عبادة الأصنام القبائليه القومية للحج، بقفزه ثورية، الى سنة تختلف اختلافاً كاملاً عن محتواها السابق،

وقد حدثت هذه القفزة وهذه الحركة الثورية بصورة لم تجعل الشعب العربي يحس بالأضطراب والأنفصال عن الماضي، وإنهيار كل قيمه ومقدساته، بل أحسوا بأحياء تقاليدهم ودوامها، ولكن مع صقلها وتصفيتها، في حين أنَّ هنالك فاصلة زمنية تتجاوز القرون العديدة بين عبادة الاصنام حتى التوحيد، طواها النبي «ص» فجأة وبصورة ثورية، وأكثر فورية من أي ثورة ثقافية وفكرية أخرى، بدون أن ينتبه المجتمع إلى انسلاخه عن ماضيه، وإنهيار كل أسسه ومبادئه السابقة.

يمكن تسمية هذه القفزة وهذه الحركة الخاصة في المنهج الاجتماعي للنبي (ص) «بالثورة في باطن التقاليد، مع حفظ شكلها المحسن».

أظن أن المطلب والمقصود قد إنجلي للحضور الكرام، وإن كان المثال الذي جئت به عن الحج غير مقبول عند البعض، وقد قيل سابقاً «المثال لا يُسأل عنه» إذن نعود إلى المحافظ، الذي يحاول الإبقاء على التقاليد بأي ثمن، ولو استلزم ذلك التضحية، بنفسه والآخرين، والثوري الذي يريد أن يغير كل شيء فجأة ويغيره بضربة واحدة، يدمره، وينتقل فوراً من مرحلة إلى مرحلة أخرى، وإن لم يكن المجتمع مستعداً لذلك، فيتصدى لمجابهته، ومن الممكن أن يضطر الثوري، لذلك، للتوسل بالخشونة والديكتاتورية والقسوة، والمذابح الواسعة المتتالية، ليس فقط ضد القدرات المعادية للناس، بل حتى ضد الناس أنفسهم! والمصلح النشوي، الذي يعطي دائماً الفرصة والمجال للمفسد!

أما النبي (ص) فينتخب منهجاً آخر اذا ادر كناه واستخدمناه، أخذنا أمراً واضحاً وصريحاً للغاية، من أجل مواجهة المفسد والتقاليد البالية والحضارة الميتة والدين المسوخ والعقائد الاجتماعية المتجذرة في عمق المجتمع والأفكار والعقائد - المدمرة للعقل، والتي تواجه اي مثقف سليم النظرة يحمل رسالة الأنبياء وبهذا المنهج فقط يستطيع هذا المثقف المغير أن يصل الى «أهدافه» الثورية بدون ان يتحمل، مضطراً، كل العواقب والنتائج الوخيمة للطريقه الثورية، أو مجابهة المباني الاعتقادية والقيم القديمه للمجتمع، وبدون أن يتعد عن الناس ويصبح غريباً عنهم، فيتهمه الشعب.

الواقعيه أداة في خدمة المثالية:

احدى مميزات الاسلام هي قبوله للواقع العيني والجبري لأي مجتمع واعترافه به هنا أيضاً، نظرة الاسلام نظرة خاصة، ففي المذاهب المثاليه يكون كل الاعتماد منحصراً على القيم السامية والمثاليات المطلقة والمطلوبة، طارده بذلك كل واقع لايتفق معها، ولاتحمله، أو تنفيه، أو تنسفه! - كالغضب، الثأر، والغريزة الجنسية - فالبحث عن اللذة وحب المال من الواقع «الموجود» - ولكن المثالية الاخلاقيه (الزهد) أو الدينية (المسيحية) تغض النظر عنها وتستنكر وقوعها بأي شكل!

على العكس من ذلك في المذاهب الواقعيه، فهناك قبول لكل الاشياء بدليل انه واقع، حتى اللواط كما هو في بريطانيا، أو الاعتداء،

كما هو في فلسطين!

فالمسيحية مثلاً تحرم الطلاق وتمنعه، للحفاظ على العائلة من الانهيار، باعتبار ان الوفاء لبعض، وحفظ الأسرة، ورابطة الزواج، من الاشياء المثالية المقدسه، ولكن الواقع هو ان كل الناس، وفي كل الاماكن والاشكال لا يستطيعون جميعاً، الاحتفاظ بهذا الرباط المقدس، وقد يحدث ان يتعد أثنان عن بعضهما في حياتهما المشتركة الى درجة يصبحون فيها تعيسين يعيشان معاً، وبقاؤهما ليس إلا لأضطرارهما، وفي هذه الحالة لا يبقى بينهما اي رباط، وقد فرضا على بعضهما الآخر، وافتراقهما سيجعل من كل منهما انساناً سعيداً، هذا واقع أحسه كل أنسان متحضر وغير متحضر، متدين وغير متدين، في الماضي والحاضر والمستقبل ولكن المسيحية تنكره، وبأسم «تقديس العلاقة الزوجية» تغلق أحياناً أبواب بيوت ليس وراءها إلا جهنم. أو بؤرة فساد وخيانة وجرائم. أغلق من دونها باب الطلاق وفتحت لها كثير من النوافذ الأخرى.

(زواج التمتع) الغربي

ان الوقائع الاجتماعية، اذا لم يفتح لها الباب، سوف تقفز من النافذة! هذه حقيقة، ولهذا كان تحريم الطلاق سبباً في ايجاد حالة (الكونكوبيناج) أو إتخاذ الخليل. أي ان الرجل الذي لا يستطيع العيش مع زوجته القانونيه يفترق عنها دون أن يطلقها، والمرأة كذلك،

تفارق زوجها بدون ان تطلقه، فيعيش الاثنان، لسنين عديدة، بعيدين عن بعضهما، ولكن كل واحد منهما مع شخص آخر! يعيشون تحت سقف واحد. وهكذا تشير لنا الارقام والاحصائيات الرهيبة عن الابناء الذين يولدون نتيجة هذا التزاوج اللاشرعي. إن أغلبية هؤلاء الأبناء يعانون من أمراض نفسيه وعقد، وان اكثرهم من المجرمين والعدوانيين.

ان الزوجين الشرعيين، لا يستطيعان الحياة مع بعضهما بعد أن يصلا الى طريق مسدود في التفاهم. فيستحيل عليهما العيش سوية، بل حتى الجوار، فمن الطبيعي عندئذ ان يفترقا، ويختار كل منهما من يناسبه للعيش معه، ارضاءً لحس الميل للحياة العائليه، أو الانجذاب الجنسي.

نرى هنا ان الطبيعة والواقع ينيان بيتين جديدين، على حطام بيت منهار. أما «المسيحيه المثاليه» فانها لاتقبل هذه الحقائق التي لم يكن بالامكان منع وقوعها - حتى من جانب الزوجين -، وتغمض عينيها عنها كي لاترى، وبالتالي فهي تعترف بهذا «البيت المنهار الموهوم» والذي لا وجود خارجياً له، وتنكر هاتين «العائلتين الطبيعيتين الموجودتين» وهكذا يقع الانفصال والتضاد بين الشرع والقانون من جهة وبين الطبيعة والواقع من جهة اخرى. وفي النتيجة فان العائلة غير الموجودة هي العائلة التي تعتبر مسيحيه ودينيه، والعائلة الواقعيه والطبيعيه الموجوده، كأنها لاوجود لها، وينظر اليها على أساس انها بؤرة فساد وخطيئه!

ولقد سببت المسيحية، بأنكارها لهذا الواقع، عدم مشروعية العوائل التي وجدت بعد ذلك واعتبار الأطفال الذين يولدون من هذه «العلاقات الطبيعية» و «الزيجات الموفقة والوفية الواقعية» على أساس أنهم أولاد زنا ومجرمون وجناة في رأي المجتمع الديني، وهؤلاء الذين حرموا من حنان الأسرة وطهارتها ونظر اليهم المجتمع دائماً، على أنهم «ابناء الخطيئة» سوف تظهر في حياتهم عقد وأمراض نفسية، تجعلهم ينتقمون من المجتمع بجرائم وجنايات غريبة.

وكل هذه الجرائم التي نشهدها في أوروبا وأمريكا أيضاً، ولا وجود لشبهها في الدول النامية، سببها الأصلي، بالرغم من وجود الحضارة في هذه المجتمعات، والثقافة، والاخلاص والتربية العقلية والفكرية والحرية الفردية والاجتماعية والدينية، هو وجود شيء آخر يملأ الجيل الجديد بالعقد والأمراض، فيضطره للثأر من المجتمع بأبشع صورة ممكنة.

صنع شاب إنجليزي، يبيع السجائر، شيئاً يشبه القوس الصغير جداً، نصبه تحت خشبه وضع عليها سجائره، وكان يرمي المارة والمحتشدين في زحام الشوارع والسينمات بسهام رفيعة كالأبر ملوثة بمادة سامة، فيعمي بذلك البعض ويقتل آخرين، ولم تستطع الشرطه العثور على القاتل. لأنها كانت تبحث دائماً في تحقيقاتها عن اعداء المقتولين، وبما ان القاتل لم تكن له أية علاقة أو عداوة بأحد من الذين قتلهم فلم تكن الظنون لتتجه اليه. إن هذا يدل على انه لا سبب منطقياً وراء جرائم القتل هذه، سوى ان هذا الشاب كان يقتل هؤلاء

الاشخاص باعتبارهم اعضاء في المجتمع، وهو - اي القاتل - منبوذ
وأحد ضحايا هذا المجتمع. إن جرائم كهذه تحلل، عادة، تحليلاً
اجتماعياً لأنها إفرازات عقد، ساهمت في ايجادها الكنيسة - بعدم
رؤيتها للواقع وغضها الطرف عما هو موجود -، ومن حسن الحظ،
ان عقداً كهذه لا تزال غير مألوفة في مجتمعنا، فهنا وبسبب وجود
الطلاق، لاتوجد عوائل غير شرعية، وبسبب وجود الطلاق أيضاً،
فلا وجود للعائلة المعدومة! كما لا وجود للعائلة الملتزمة بالاكراه خوفاً
من الشرع والقانون.

يريد طفل ما ان يخرج من الغرفة، فتمنعه كثير من الأشياء
كالتدوير الساخنه والأشياء الثقيلة، يغمض عينيه ويمر! متصوراً
ان الموانع قد أختفت.

والمثالي هو الشخص الذي لا يرى الواقع، لا يريد أن يراه، يغمض
عينيه عما لا يجب ان يوجد ولا يريد ان يوجد، وبما انه لا يراه فهو
يتصور ان لا وجود له. الواقعيون هم عكس المثاليين، يقبلون بكل شيء
وان كان سيئاً، بحجة انه واقع موجود فقط فيتعلقون ويؤمنون به،
وعلى العكس يطردون كل جمال وفضيله وصدق وصلاح،
بحجة انه لا يوافق الواقع الموجود فقط ويكفرون به ويتركونه بحجة
انه شيء مثالي.

أحد طلابي، كان من أشباه المثقفين المنتشرين في البلد، ولم يكن
يفقه شيئاً مما كنت اقلوه، إلا انه كان يميل الى المادية الجدلية
(الديالكتيكية) و بما انني متدين ومعتقد بالاسلام. فقد كان يرفض

كل ما أقوله بناء على هذا القرار الذي اتخذه مع نفسه، حتى اذا كان الشيء قاعدة أقتبستها عن الماركسية ويتعين عليه تبعاً لميوله أن يقبلها، ولكن، بما أنني أنا الذي قتلها ولم اذكر «الاستاذ»! الذي تعود إليه، فقد كان يرفضها.

في أحد الأيام كنت أتحدث عن جرائم بني أميه، والفوارق الطبقيه والدكتاتوريه السياسيه وتحريف الدين من أجل تبرير الوضع القائم وجعل الناس يعتقدون «بالجبر الألهي» وان كل شيء حدث، بما في ذلك حكومة بني أميه، كان بارادة الله وحكمه وقضائه وقدره... كان البحث عن قاوموا هذا الوضع.

فجأة لاحظت انه أنزعج، فأنا أهاجم بني أميه، وأمدح علياً وفاطمة وأباذر وحجراً والحسين - باعتبارهم قادة هذه الحركة المطالبة بالعدالة والحرية الأنسانية والنضال ضد التمييز والظلم والجهل - وبطريقه علميه وبناء على ضوابط وأسس علم الاجتماع أما هو الذي يعتبر نفسه مثقفاً من الدرجة الأولى، ماذا سيفعل؟ كيف يرفض كلامي؟ كيف يقبلني أنا؟ وجدته يعثر على حل علمي أيديولوجي! هتف: استاذ «كان الجبر، جبر التاريخ» اي ان المجتمع كان لابد ان يصل الى هذا العهد، بعد طي مراحل التاريخيه حسب فلسفة التاريخ عند ماركس، ولقد كان هذا واقعاً عينياً تاريخياً، ولم يكن علي والحسين وابوذر إلا مثاليين وقفوا خلاف جهة جبر التاريخ!

أجبت: ما شاء الله على مثقفنا! أترى كم هي صحيحة قاعدتي الدائمية حيث أقول «عندما يكون مستوى تفكير المجتمع متدنياً،

فلا فرق عندئذٍ بين المتدين وغير المتدين، المثقف والرجعي، العالم والجاهل:

فالمُتدين، يعتقد بالقضاء والقدر، باعتباره جبراً الهياً بلافهم ولا وعي، فكل ما يحدث هو بمشيئة الباري ومرضاته!
والماركسي، يعتقد بجبر التاريخ، وان كل ما يحدث هو معلول
العلل العلمية والعوامل المنطقية للبيئة، وخارجة عن إرادة الإنسان،
ويجب قبول كل ما هو موجود لانه واقع!

العجب هو ان بني أميه هم الذين طرحوا فكرة «الجبر» في
الأسلام^(١) لأول مرة لتبرير أعمالهم ووجودهم، والآن يأتي شبه
المثقف هذا، فيبرر، ما كان يقوله بنو أميه بأسم العلم.

قلت: كلا يا عزيزي، «هذا جبر السيف، لا جبر التاريخ»!
كثير من «أنصاف المثقفين» هؤلاء تشابهت عليهم
«القوة» و «الجبر»^(٢) نرى ان الواقعيين، يعتبرون ما هو «موجود» هو
ما «يجب ان يكون» لأن، «ما يجب ان يكون» ليس إلا تعبيراً مثالياً
وموهوماً!

هل سمعتم باستدلال النواب الانجليز في الدفاع عن مشروع
«اللواط» إذ قالوا: هذا «واقع عيني»، موجود في مجتمعنا، إذن يجب

(١) حيث أمروا ان يقال على المنابر: «نؤمن بالقدر» خيره وشره! وأستقرت هذه
الفكرة حتى في اذهان اعداء بني أميه.

(٢) لقد استخدمنا كلمة «جبر» «خطأً، لترجمة مصطلح Determinisme. وهو خطأ
فكري، ولغوي. إنني أقترح كلمة «التقدير» ترجمة له.

أن يصبح قانونياً! ومخالفة هذا «الواقع» نوع من الخيالية المثالية!
وهل رأيتم السياسيين وأشباه المثقفين في استدلالهم هذا:
«إسرائيل واقع، موجود، وعودة الشعب الفلسطيني المشرّد الى فلسطين
- الواقعة بيد الاسرائيليين - مطالب مثالية، لابد من قبول هذا «الواقع»،
وليكن إغتصاباً، عملاً لا إنسانياً، جريمة، ولكنه موجود، إذن نقبله
ونعترف به رسمياً...!

انظروا إلى مجلة «هذا الأسبوع» التي توزع للجيل الشاب هذه
الأيام مقالاتها، ترجماتها، وأخبارها وصورها، كلها تحكي، بدون
أي نقص وتقصير، حكاية مفصلة ومجسمة ثلاثة نماذج، بأسماء
مختلفة وعناوين مختلفة، يذهبون إلى بيوت الدعارة، ومن هناك،
يشرحون «فضائحهم» لجيلنا الشاب، نقطة، نقطة، بالصور، والتفاصيل
الوثائقية والواقعية.

هذه كلها وقائع! الاستعمار أيضاً واقع والظلم والاستغلال
الطبقي واقع أيضاً. فالواقعي اذن في نظر هؤلاء، هو شخص متنور،
غير متعصب، يحكم على الأمور، بناءً على الشيء الذي له عينية
خارجية، وما هو واقع علمي وحسي، ولا يعاني من الخيال والمثالية
والمسائل الذهنية غير الواقعية!

ونرى أن المثالي، مفكر مصلح، أو مجموعة حزبية، أو
مجتمع مترقي ثوري. يحلم بغايات رفيعة مثالية، ومثاليات ذهبية،
وقيم مقدسة واصلاحات واحتياجات متعالية، ولكنه يراها كلها
«غير ممكنة»، وفي نفس الوقت، يغض النظر عن الواقع السيء

الذي هو وليد الحتم، أو هو يرفضه جهلاً لأنه يدور في ذهنه في بيئة مقدسة من خيال، فلا يشعر بأنه ليس في تلك البيئة، بل فيما هو منظور ومحسوس وموجود. على حين ان «الواقعي» يقتل في الإنسان روح التحليق والتصعيد والمحاولة والتمني والتكامل ويحدده فيما هو كائن، فيقضي في الإنسان على الإبداع والتمرد والتفكير والتغير ومعاكسة حتم التاريخ.

لا المثالية ولا الواقعية، بل كلاهما!

أما الاسلام، «مصباح الطريق» الذي هو «لا شرقي ولا غربي»^(١)، هذه الكلمة الطاهرة كالشجرة الطيبة أصلها في «الأرض» وفرعها في «السماء»^(٢)، فهو يرى الواقع الموجود في الحياة، في الروح والجسد، في العلاقات الاجتماعية، في بناء المجتمع وحركة التاريخ - خلافاً للمثالية -، وكالواقعية، يعترف بوجود هذه الأمور ولكنه - خلافاً للواقعية - لا «يرضخ لها» بل «يغيرها» يبدّل «ما هيتها» بأسلوب ثوري، ويقودها في مسير مثالياته ومن أجل الحصول على أهدافه المثالية، «يتوسل» بغاياته «الحقيقية» لكن غير «الواقعية»، فلا يستسلم لها كالواقعي بل يخضعها له، ولا يفر منها كالمثالي، بل يذهب نحوها ويشد بحبله على رقبتها، ويطوعها، وهكذا يجعل مما كان «حاجزاً» للمثالي، «مركباً» مثالياً له.

وهنا أورد نفس المثال السابق، زواج «الكونكو بيناج» - والذي يعتبر في أوربا زواجاً لا شرعياً ولا قانونياً، مرفوضاً ونجساً، ولكنه مع ذلك موجود في كل أنحاء أوربا وأمريكا وفي البلدان بل حتى المجموعات المتدينة أيضاً -

هذا الأمر نرى ان الاسلام قبله، اعترف به وعالجه بتشريع الطلاق

(١) إشارة إلى الآية ٣٥ من سورة النور «يوقد من شجرة مباركة زيتونة، لا شرقية، ولا غربية».

(٢) إشارة إلى الآية «كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء».

وتجوز الزواج الجديد وكذلك الزواج المؤقت كل ذلك في الموارد الاستثنائية^(١) للحياة الفردية والوضع الاجتماعي غير الطبيعي. ولو كان قد رفضه فانه سيحدث، ولكن خارجاً عن ارادته وسيطرته. أما الآن، وبقبوله اياه باعتباره واقعاً لايجتنب، يجعل منه أمراً شرعياً وقانونياً، وبالتالي، يستطيع السيطرة عليه ويطبق شكله مع المبادئ الحقوقية والأخلاقية، يقيد الطرفين، ويجري القوانين على كليهما، فينقذهما من الشعور بالخطيئة والمنبوذية في عين الله والناس، ويحفظ علاقتهما ضمن أطر أخلاقية ودينية، فيهيئ لذلك الجو السالم والنظيف والطبيعي لتربية أبنائهما، وكذلك يجبر المجتمع على ألا ينظر إليهم على أساس أنهم أولاد زنا وخطيئة.

يحصل الاسلام على كل هذا النجاح باعترافه بهذا «الواقع الاجتماعي والانساني» وبالتالي، يستطيع السيطرة على نتائجه وعواقبه، يعطيه شكلاً قانونياً، يصلحه، ويهبه وجهة مشروعة وأخلاقية، لهذا كان الاعتراف بالواقع الموجود، يعطينا القدرة، للسيطرة عليه، وتوجيهه، واذا أنكرناه تسلط هو علينا وجرّنا خلفه بدون ارادتنا، أينما شاء.

وهكذا نرى الواقعيين الغارقين في الواقعية الموجودة، سواء كانت سيئة أو حسنة، وكذلك المثاليين الذين يهربون من الواقع، نراهم جميعاً هم ضحايا وأسرى السيئات والوضع السيئ الوخيم، وبالأخص المثاليين

(١) لم يشرع الزواج الثاني والزواج المؤقت في الموارد الاستثنائية فقط(المترجمة).

الذين لا يفكرون إلا بالصالح المطلق والصحيح المطلق فهم أكثر من غيرهم يتلون بهذا الوضع، فالواقعي يعرف الواقع ويتعايش معه، أما المثالي، فهو لا يعرفه ولا يراه، وينكره بجهل وخيالية، فيركع أمام هجومه، ضعيفاً، مستكيناً، جاهلاً، فيهلك.

ألسنا نرى الفتيات اللاتي تربين في عوائل محافظة جداً، واللاتي لم يكن يجتزن عتبة بيوتهن، كيف يغرقن في بحر الإنحلال الخلقي حين يفتح لهن الباب فجأة؟ وكيف يشرعن، للتعويض عن الحرمان الذي سبب لهن هذه العقد، بانحرافات خلقية متأخرة رهيبة وهكذا شأن أبناء عوائل الزهد والتقوى، الذين يفرطون في التحرر أو التحلل! وكذلك شأن المتحضرين حديثاً، الذين ارتموا فجأة من دنياهم المثالية شبه الدينية التي كانوا يتحدثون فيها عن حرمة الفيزياء والكيمياء والدراسات الطبيعية والجامعة وثقافة المرأة وتقدير اللحية، والجلوس في سيارات الأجرة بدل العربة ذات الحصان، والتوسل بالدواء، بدل الدعاء والاستفادة من ربطات العنق، وإطالة الشعر وتغيير الملابس والزينة و شراء المذياع وحتى إذاعة كلام من المذياع، ارتموا فجأة إلى دنيا الواقع الجديد، وأثاروا الضجة حولهم، فأفرطوا في الاستهلاك وامنعوا في التكلف في الحديث والتأنق، حتى انهم أثاروا سخرية الغربيين أنفسهم، لماذا؟ لأنهم يعرفون هذا الواقع وهو طبيعي بالنسبة لهم، ونحن الذين أنكرناه بجهل، ووقفنا بوجهه بسداجة الآن، وقد سقطنا في مجراه لا إرادياً، لانعرف ماذا نفعل، فلا نحن بقادرين علي تمييز سيئه من حسنه. معرفته، ولا نحن هيأنا أنفسنا لهذه «المواجهة»،

وبما أننا لا نستطيع اختيار الواقع فإن الواقع سيختارنا هو بدوره، وهذا ما نراه يحدث.

الحضارة الحديثة، هجمت على كل الحدود، والأبراج، وهدمتها كلها. القرون الحديثة، تيار «الرنسانس» المسرع وحركة الثقافة، والثورة الفرنسية الكبرى والحياة الصناعية كلها، حدثت مسرعة متتالية، بدلت جو العالم، وكان تبديل جونا، شيئاً إجبارياً، وواقعاً حتمياً. وكان من المسلم به مجئ الكهرباء والسيارة والطباعة والجامعة و«الديمقراطية»!، المذيع، والتلفاز، والسينما، والجريدة، والمدرسة والدراسة، وفي الغرب، التقنية الجديدة، والعلوم الحديثة، والدراسة، والعمل، والحرية، والحقوق الاجتماعية، وادعاء المساواة مع المرأة، وتمرد الشباب وانهايار الحدود القومية والقلاع الاجتماعية المغلقة، ودخول السيارات والبنوك، والدوائر الحكومية، وهجوم الرأسمالية، والدراسة الحديثة، وتراجع التقاليد وتزلزل الطبقات والمجاميع والفئات والقيم والأخلاق الاجتماعية القديمة، وإيجاد وتوسيع طبقة البروجوازية الجديدة ونظام الانتاج والتوزيع والاستهلاك الجديد وظهور احتياجات وظواهر وقضايا و«وقائع مستحدثة»، وهجوم الأفكار والعقائد والمذاهب الغربية على الثقافة والدين الإسلامي، والأخطار الجديدة والمواجهات الشديدة وكثير من «الأشياء السيئة والحسنة» الأخرى.

إن قادة الشعوب، أي حراس اخلاق المجتمعات والمسؤولين عن توجيه أفكارها، أغمضوا أعينهم عن هذه الوقائع التي لا يمكن اجتنابها، وبقيت قلوبهم معلقة بمثالياتهم الذهنية و ذهنياتهم القديمة،

و حاولوا أن يحتفظوا بالعربة رغم مجى السيارة، وبقوا السراج
مشتعلًا إلى جانب الكهرباء، وما هي حجتهم في ذلك؟ هي أن كل
تلك الأشياء منسوبة للكفار وان هذه الأخرى منسوبة للقدماء.
«قل وصل بك الأمر للاستهزاء بالسراج؟ إن على ضوء هذه القناديل
بدخانها المتصاعد درس أمثال الطوسي والكليني والعلامة المجلسي...!

ولكن ماهي القوة ماهي الوسيلة والخطّة لسد الطريق على هذا
الهجوم الكاسح وإيقاف حركة هذا الزمن المسرع؟ انها إغماض العيون
و إدارة الظهور، ومعها السب واللعن والتأوه و«الندب»!

تسير «السيارة» مسرعة على طريق منحدر بلا موانع، من قمة
حضارة الغرب وقدراته، و «بسرعة الكهرباء» تتجه نحونا نحن - الذين
نجلس أو ننام في عمق وادي القرون الوسطى والتخلف - ويستمر
حراسنا ومسؤولونا بهذهدتنا، أو ينهض أولئك الذين أحسوا بالخطر
للمواجهة، فيعودون إلى الخلف سائقين مجتمعنا تحت هذا الشعار
«اتجهوا نحو الدين» و هكذا ساقوا إسلام شعبنا باتجاه مخالف
معاكس، ووقفوا في طريق هذه السيارة مديرين ظهورهم، متوهمين
أنهم بذلك يتعدون عن الخطر، وهكذا، رأيناها كيف تصل وتدهس
حياة الناس وإيمان الناس والسيارة التي إمتنعنا عن ركوبها بسذاجة
ركبتنا هي بمهارة، ولأننا لم نشأ في هذا العصر، وإزاء هذا الخطر
الداهم، أن نترك ركوب الحمار دهسونا، نحن وحمارنا، تحت
«عجلات» السيارة وعصر السيارة، وتحت قبضات وأنياب صاحب
السيارة، فجعلوا منا لقمة سائغة، يسهل بلعها وهضمها!

لقد كانوا يعلمون ويعرفون هذه الحقيقة جيداً، وهي أن هذا «الواقع» وهجوم هذه «الحوادث الجديدة» على حياتنا وثقافتنا ستدمر كثيراً من أصالتنا، قيمنا، مبادئنا الأخلاقية والعقائدية، إيماننا، تقوانا، وسلامة روحنا واستقلالنا الفكري والثقافي، وبالتالي، الانساني، وسوف يقيم التلوث داخل عظامنا

وأما الذي فعلوه أمام هذا الجبر القوي والفوري، الذي يفرض قضايا وعلاقاته وأنظمته واحتياجاته وعوامله، ويحتوي حتى أقصى وأبعد وأكثر المجتمعات العشائرية تخلفاً في أعماق الصحراء، فلم يكن إلا أنهم ظلوا يرددون:

«حرام»!

المذيع لا تشتروه!، الفيلم لا تشاهدوه!، التلفاز لا تنظروا إليه!، مكبرة الصوت لا تستمعوا إليها!، الجامعة لا تلتحقوا بها!، العلوم الحديثة لا تقرأوها!، الصحيفة لا تشتروها!، العمل في الدوائر الحكومية لا تقوموا به! ...

المرأة صه! لا تذكر اسمها!
ووقفوا أمام السيل الجارف للصناعة وتغيير نظام العالم، والرأسمالية الممتدة النشطة التي «تبيع الثلاجة للاسكيمو»!، كي يواجهوه ويمنعوه من التقدم، ويدافعوا عن «الوضع السابق» ولم يكن سلاحهم من أجل صد هجوم الغرب إلا كلمتين هما:

الأولى: «حرام»!

الثانية: «كلا»!

ماذا كانت النتيجة؟ حدث مانراه، كسرت الاحداث الحدود، فانهارت الأبراج والقلاع، ودمرت الحصون الحربية على محاربيها الذين قاطعوا العدو بدل «محاربتة»!، وخلطت كل شئ ببعض، وهجمت على بيوتنا ومدننا وقرانا، ومساجدنا ومزارعنا وغزتنا قطعان الثعالب الماكرة، والذئاب المفترسة ونابشي القبور، والكلاب المسعورة، التي كسرت قيودها، والفئران السارقة التي تعبد المال، فتتقب آلاف الحفر تحت بيوتنا ومخازننا، «جاءوا وقتلوا وحرقوا، ونهبوا، ولكن، و خلافاً لما قاله ذلك الرجل البخاري حول جنود چنگيز، لم يذهبوا»!

لماذا؟ لأن أحداً لم يرتلك الوقائع! كرهها حراس حدودنا وجنود أبراجنا، إلى درجة لم ينظروا إليها، لم يشاؤوا أن يذهبوا فيصلحوها ويصنعوا منها ما يلائم جو بلادنا واهل بلادنا، ويجعلوها وسيلة لهم يسيطرون عليها ويركبونها، بل وقفوا أمام مسيرها، وسط الطريق، فدهسوا وشلت حركتهم.

ولهذا، يصرخ الشخص منا، إذا أرادت امرأته المحجبة أن تنجب طفلاً: «لماذا الأطباء الرجال؟»، «لماذا لا تكون المرأة هي طبيبة نساء؟». وإذا أراد إرسال ابنه إلى المدرسة والجامعة، يرتفع صوته بالاعتراض قائلاً:

«فهل هذا درس أدب أم قاعة موضات؟» «هل هذه جامعة في مجتمع إسلامي؟» «هذه المدرسة لا تحمل أية رائحة للإسلام والأخلاق والقيم» «وهل هذا مذياع في مجتمع إسلامي أم صندوق أغاني؟» «هذا التلفاز!» «هذه البنوك المرايية القانونية!» «هذه الترجمات!»

«وما هذه الأفلام؟» «ما هذه المسرحيات؟» «ما هذا الفن؟» «ما هذه الصناعة؟» «وما هذه الحضارة...؟»

ولابد من القول لهذا المعارض الطالب - بالرغم من أحقيّة مطالبه - انه ليس لنا الحق في الاعتراض، والسبب هو، انه عندما جاءت هذه الوقائع وأقامت بيننا، وبدأت العمل، غبت أنت عن الأنظار، هربت، وعندما غضبت أنت يا رجل التقوى والدين والأخلاق والاسلام، أيها المشفق على الناس، والموجه لأفكارهم، والمدافع عن ثقافة الاسلام وحاميها، وانزويت فمّن الطبيعي عندئذ أن تأتي الحضارة والصناعة والعلم الحديث «بميرزا ملكم خان»، وتستخدمه للعمل في المجتمع. العالم الإسلامي المسؤول الذي يخرج من ساحة «الزمن والحياة» زاحفاً نحو ركن قصي، ويترك الناس في ساحة الابتلاء لوحدهم وفي ايدي المتلاعبين بايمانهم ومصيرهم وتحت أسر الحياة وضغوط استحقاقاتها، ثم يتجه نحو ركن عزله وعبادته الهادئ ظاناً أنه سيذهب إلى الجنة وحده، بعد أن يضمن اسمه وجاهه في هذه الدنيا ونجاته وفلاحه في الآخرة، واضح أن هذا العالم الاسلامي المسؤول سيخلي مكانه «للعاقل العميل للاستعمار». وعندها، سيصنع هذا كل شيء وفقاً لمراده، مفيداً له، أو غير مضر بمصالحه على الأقل. ولهذا، فعندما يغيب نواب الامام كما غاب الإمام، ويعهدون بمسؤولياتهم الأساسية من القيادة والإرشاد والجهاد والدفاع عن كرامة الناس وايمانهم لصغار ممثليهم، وفي اللحظات التي يتعين فيها مصيرنا وايماننا وديننا وامور دنيانا، فإن أحداً غير عملاء

الغرب، والمخادعين الذين يظهرون كل يوم بأفكار مضلة، لن يستلم
«ساحة الإصلاح الديني» و «حركة الحداثة والتطور»!

نرى أننا، في الوقت الذي كان الاسلام يواجه الغرب والاستعمار
الغربي لم نكن موجودين في الساحة، وفي الوقت الذي كان عملاء
الغرب من المتصدين للسياسة وقضايا الحكم يحصلون على أكبر
المكاسب والامتيازات في فنّ صناعة الأديان المبتدعة، التغرب،
والتلاعب بالسياسة، تركنا نحن السيد جمال الدين والناس وحدهم،
وشللنا حركته تحت وابل الافتراء والتكفير والتفسيق والاتهام بالباية،
والتشبه بالإفرنج والمادية وخدمة الكنيسة والبلشفية، وسلمناه بيد
الاستعمار الحاقد وعملائه كي ينتقموا منه لدوره في إيقاظ المسلمين
 وإحياء الإسلام وشعار القرآن، ويجعلوا من مصيره عبرة للآخرين!

إننا بحاجة إلي مساح حثيثة، عميقة، وكبيرة، من أجل التدخل
المؤثر في ما يحدث، ومن أجل توجيه حركة المجتمع الجبرية، فالخطر
عميق، مدمر، والمسؤولية ثقيلة، خطيرة، وتتطلب التضحية والإيثار!

وهؤلاء الملقنون المخدّرون الذين يخدعون الناس بسلامة هذا
المريض الهالك ويدعونهم لحفظ ماهوزائل، ولا يتحدثون عن
الأخطار المحدقة ومعهم أولئك الذين يدعون الناس لقبول ماهو
غير مقبول، هؤلاء هم الذين يقعون المجتمع في حالة الركود والجمود
والسكون والضعف والتسليم.

إن الذين ينشدون «مجتمعاً حياً ومتحركاً» و يطلبون
«سعادة الإنسان.. لاهم أهل لأن يخدعوا الناس بالدفاع عن ماهو

ليس بقابل للدفاع، ولا هم يمتلكون ميزة (العصرية). فيصبحون من «الرجال العصريين» وبتشبثون «بمكان ما» فيعرفون الوقائع - السيئة والحسنة - كما هي موجودة في المجتمع، ويعترفون بها ومتى ثم يشخصون العلاج، ويستفيدون من كل طاقاتهم لمعالجتها.

هؤلاء هم الذين يعرفون أن الزمن يتحرك، ويعون أن مجتمعنا التقليدي ينزع جلده، ويشعرون بأن القدرات الكبرى تقصدنا من أجل تبديلنا ومسحنا والمشكلة تكمن في أنهم ليسوا «عديمي الإحساس» كي يكتفوا بالتفرج، ولا «عديمي الحياء» إلى الدرجة التي يصبحون فيها أدوات بأيدي كل جهاز ونظام ولا «لأباليين» إلى الدرجة التي يرون فيها السيل يهاجم المدينة، فيهربون إلى بيوتهم ويغلقون الأبواب عليهم وعلى أطفالهم، كي يأمنوا شره! فينجون بأنفسهم، وهم يعلمون جيداً أن اليوم، لم يعد، كالأمس، والعائلة، ليست قلعة مغلقة، فاذا أنت سجت ابنتك في الحجرة الخلفية ستستطيع الإذاعة والتلفزيون المحلي وغير المحلي من الدخول إليها! والتغلغل في وجودها.

قالبان لصياغة الإنسان

هنالك واقعان في مجتمعنا، أحدهما: الصنف الذي يريد فرض التقاليد القديمة الموجودة باسم الدين بتعصب وتزمت، رغماً عن الزمن، ومع أنه يعلم انه لا يستطيع ذلك يصر على بقائها والاحتفاظ بها وفرضها على الجيل الشاب.

والآخر الصنف الذي، لا يلعب أي دور ازاء تحول المجتمع

والتبدلات الجارية فيه، كي لا يتهم بالرجعية إذا تدخل، أو أمر ونهى أو راقب، أو يتهم بالبلاهة، والتخلف والتدين! فالأبن يتصرف والوالدان يهيئان له الإمكانيات والفرص كي يحضيا بلقب الأب والأم المثقفين، ولكن صمتهما وتسليمهما هذا ليس نابعاً عن ثقافتهما ولا عن عقائدهما وآرائهما الخاصة، بل هو نابع عن عجزٍ وضعفٍ ازاء مايقع فهما يعلمان جيداً أنهما إذا تدخلتا، فسيفقدان حتى هذه الحرمة الظاهرية الخادعة! هذان قالبان، قالبان من أجل صناعة الإنسان «المصبوب» أحدهما ناشئ من «حدائق إصفهان الأربعة»^(١) فاسد، سئ التركيب، اعوج، غير مفيد ونخر، والآخر قالب «الأفران الغريبة» الأملس، الرقيق، الناعم، الزائل والخواوي.

هذان صنفان، طريقان، كلاهما خطأ وضلال، لأن دور كلٍ منهما على أرض الواقع، هو أنه في وقت الطوفان يقف أحدهما وسط الطريق ويحاول أن يوقف اندفاع الماء بيده، فيسب ويشتم ويصرخ ويلعن ويكي وينوح، وآخر يبقى على جانب الطريق، ممدداً كجثة هامدة، لاحراك يدر منه سوى التفرج، وسوى الرضوخ لإبنه وإبنته اللذين ينتظران منه المال الذي يجمعه بالخداع والكذب والتزوير، والتوسل بهذا وذاك، كي يفرغاه بعد ذلك، بدلال وبذخ وترف، في جيوب أصحاب الشركات الغريبة.

وجود هذين الصنفين - سواء ذلك الذي يريد الوقوف بوجه

(١) يقصد الانسان التقليدي المحافظ والقديم. المترجمة.

الطوفان والسب والشتم واللعن، أو ذلك الذي سقط على شاطئ السيل منهكاً - كلاهما يعطي نتيجة واحدة. فحركة السيل المدمرة، تتقدم مسرعة دونما حاجة الى توجيه ايٍّ منهما أو قيادته فتوسع من مداها، وتحطم كل العمارات والمؤسسات والجدران على رأسيهما، وتدمر كل شئ وتحرقه، وتترك من المدينة مستنقعاً عفناً، مهلكاً، راضخاً لها.

لقد أصيبت المرأة في أوروبا بمصير وصلنا إليه نحن بعد قرون عديده، وطبعاً بخصائص معينة، فالمرأة الأوربية التي نعرفها نحن في إيران هي ليست المرأة الموجودة في أوروبا انها ليست المرأة التي نشاهدها هنا في الازقة والشوارع، بل هي التي نشاهدها هنا في التلفزيون والسينما، والمجلات النسائية، ومراكز الفاسدين «المثقفين!».

والوجه الذي نعرفه عن المرأة الأوربية، هو انتاج محلي من صنع إيران، ولاشك ان المرأة الموجودة صورتها على غلاف مجلة «إمرأة اليوم»^(١) موجودة في أوروبا أيضاً، ولكنها موجودة هناك في أماكن خاصة، وباسم «إمرأة الليل»، وهذه ليست هي المرأة الأوربية، كما أن «المرأة الإيرانية» ليست بعض النساء الخاصات في إيران، واللاتي يمكن تسميتهن لشدة إبتذالهن بالنساء الأمميات! هنالك صنف خاص فقط من النساء الأوربيات اللاتي يحق لنا ويتعين علينا معرفتهن، وهن اللواتي يظهرن في الأفلام والمجلات والعروض الجنسية،

(١) مجلة «زن روز»، الحديث هنا عن هذه المجلة يعود إلى زمن تأليف الكتاب، أما الآن، فتمتع هذه المجلة بسمعة طيبة تحت ظل الجمهورية الاسلامية. المترجمة.

والروايات الجنسية لكتابنا يعرفن لنا باسم «المرأة الأوربية» عامة. فليس لنا الحق في معرفة تلك الفتاة الأوربية ذات الستة عشر عاماً، التي ذهبت إلى صحراء النوبة في أفريقيا وإلى صحراء الجزائر وأستراليا وقضت كل عمرها في ذلك الجو الرهيب، المخيف، الخطر، وتحت رحمة الأمراض والأهوال والقبائل البدوية المتوحشة، وعملت ليل، نهار، في عنفوان الشباب، وتعب الشيخوخة وهي تدرس، وتتابع الأمواج التي ترسلها نملة وتستقبلها نملة أخرى، حتى انتهى عمرها في ذلك الجو، وعندها تكمل إبتها المسيرة، وتعود هذه المرأة في سن الخمسين معبرة عن الجيل التالي لجيل أمها، فتصرح في إحدى جامعات فرنسا قائلة:

«لقد اكتشفت طريقة تكلم النمل، وحصلت على بعض علائم التفاهم بينه».

نحن ليس لنا الحق في معرفة «مدام غواشن» التي أنهت كل عمرها في التحقيق الفلسفي حتى عثرت على جذور الأفكار والمسائل الفلسفية لابن سينا وابن رشد وملا صدرا والحاج هادي السبزواري في فلسفة اليونان وآثار أرسطو والآخرين وقارنتها ببعض، وكشفت عما أخذه حكماءنا منهم، وصححت ما فهموه خطأ وما ترجموه خطأ، خلال ألف عام من الحضارة الإسلامية.

وليس لنا الحق في التعرف على السيدة «دولافيدا» الإيطالية والتي كان أحد أعمالها هو تصحيح وإكمال كتاب نفسانيات ابن سينا بالمقارنة مع نسخة (رسالة النفس) لأرسطو باللغة اليونانية القديمة...

وليس لنا الحق في معرفة «مدام كوري» كاشفة الكوانتوم والراديوم.
أو «رزاس دولاشابل» الحسنة السويدية المترفة الحرة، والتي أوقفت
حياتها، أكثر من أي عالم من علماء الإسلام، وحتى مدعى المعارف
العلوية، أوقفها من بداية شبابها على معرفة تلك الروح المجهولة
في جسد الإسلام، واكتشاف الرجل الذي أخفته أحقاد العدو وحيل
المنافقين، كما أخفته مدائع المحبين، فعثرت على أصح خطوط
وجه علي، ألطف اشعاعات روحه وأبعاد عاطفته وأبعد وثباته
الفكرية، وأحست، لأول مرة، بآلامه ووحدته، وهزيمته، وقلقه،
 واحتياجاته، متعرفةً بذلك على علي المحراب والمسجد والليل وآبار
المدينة، لا علي أحد وبدر وحنين فحسب، وعالجت «نهج البلاغة»
- والذي لا يعرف عنه المسلمون العرب إلا منتخباته الأدبية فقط
بتصحيح محمد عبده، مفتي أهل السنة، ويعرف عنه شيعة علي
«أحاديث جواد فاضل» المنسوبة لعللي، أو ترجمة فيض المنسوبة
لعللي أيضاً. والتي لا يمكن قراءتها بالنسبة للقارئ الفارسي إلا بمساعدة
النص العربي - استطاعت هذه الفتاة (الكافرة) أن تجمع ما نُقل عن علي
مبعثراً هنا وهناك فقرأته وترجمته وشرحته، وكتبت عن علي أجمل
وأعمق ما يمكن كتابته عن شخص، وما يستطيع قلم أن يسطره في
وصف أحدٍ ما. وما تزال لحد الآن، وبعد إثنتين وأربعين عاماً، غارقةً
في التفكير والبحث والتأمل والتحقيق حوله.

وكذلك ليس من حقنا معرفة الأنسة «ميشن» التي وجهت
ضربات مؤثرة للنازيين عند إحتلالهم باريس، من خلال نشاطها في،

حركة المقاومة الفرنسية، الأمر الذي دفعهم للحكم عليها مرتين بالإعدام غيابياً، ومع أنها يهودية فقد فهمت الإنسانية والحرية إلى الحد الذي جعلها تقاتل الآن مع «الفدائيين الفلسطينيين» ضد الصهيونية! كما ليس لنا الحق في التعرف على آلاف الفتيات الباريسيات! اللاتي قاتلن ضد الإحتلال الفرنسي للجزائر برفقة المجاهدين الجزائريين، بلا عنوان، ولا إسم، وبلا توقع ثواب دنيوي أو جزاءٍ أخروي، في المنظمات السرية والمواضع الجبلية واعماق الغابات، من كبد صحراء الجزائر الحامية إلى عمق أبنية وملاجئ مدينة المجون واللذة باريس، وضد إرهابيين كالجنرال دوغول وسوستل وسالان وآرغو، مستقبلات بذلك أشد الآلام والتضحيات في سبيل تحرير شعب أجنبي.

وأيضاً ليس من حقنا معرفة «آنجيلا» الفتاة الأمريكية، أو الأخرى الأيرلندية، اللتين توجهت إليهما أنظار شعبين، ماذا أقول؟ بل كل الشعوب الحرة في العالم، وكل البشرية الجريحة والمحكوم عليها بالتمييز العنصري والظلم والاستغلال.

فليس لنا الحق أن نعرف أن المرأة الأوربية ليست هي تلك التي يعرفنا عليها رؤساء تحرير المجلات الساقطة، دمية وألعوبة بيد أمثال «دون جوان» وعبداء للمال والزينة والجواهر، وجارية معاصرة، لاتلفت نظر الرجل ولا تفيده، إلا عندما تكون وسيلة لإشباع الشهوات وإرضاء الغرائز، ثم لا تكون لها قيمة بعد ذلك، إلا كسلعة مستهلكة يُستغنى عنها.

علينا ألا نعرف المرأة التي ارتقت وارتفعت منزلتها حتى وصلت

إلى درجة كانت فيها التجسيد النموذجي لامتها، ومظهر نجاة وزهو لبني قومها، بل من حقنا فقط أن نعرف «مدام تويغني» باعتبارها آخر نموذج للمرأة الأوربية المتحضرة، ملكة جمال العالم لعام ١٩٧١، وإلى جانبها، وتحت عنوان أبرز امرأة أوربية، علينا أن نعرف جاكلين أو ناسيس - التي تحصل على كل شيء بالمال - و «ب، ب»؛ وملكة موناكو، والنساء المسلحات بالمسدسات واللاتي يُحطن بجيمس باندرا، أي علينا أن نتعرف على ضحايا وسائل الإنتاج الأوربي، هذه الدمى والعرائس المسيرة للرأسمالية وجواري الحضارة الجديدة، أولئك النساء اللاتي تمحورت كل فضائلهن الإنسانية وقيمهن الاجتماعية في ملابسهن وأعضائهن التناسلية!

هذه هي المرأة التي من حقنا - نحن الإيرانيين - التعرف عليها باعتبارها المرأة الأوربية المتحضرة فإنني لم أشاهد، ولا مرة واحدة في عمري، صورة عن طالبات جامعة كمبريدج، أو السوربون، أو هارفارد، يبينون فيها كيف تذهب الفتيات هناك وكيف يعدن، كيف ينكبن على النسخ القديمة في المكتبات العائدة إلى القرون الرابع عشر والخامس عشر الميلادية في أوروبا، والألواح التي عثر عليها في الصين والتي ترجع إلى ٢٥٠٠ سنة مضت، أو على نسخة من القرآن، أو نسخ من المخطوطات اللاتينية واليونانية والمسمارية والسنسكريتية من الصباح حتى المساء دونما حراك ودون أن تتجه أنظارهن إلى هنا وهناك، واللاتي يعرفهن - الإستحمار المعاصر - لنا على أساس أنهن فتيات المكالمات الهافمية والغواني الرخصية، اللواتي يمكن صيدهن

«بغمزة عينٍ واحدة» أو «قهوة على الرصيف»، كي يخدعوا فتياتنا بأن «المرأة المعاصرة» و «الفتاة المثقفة اللائقة» هي هذه، وغير هذا، ليس إلا تزمناً وحماقةً ومظهراً للتخلف وثقافة القرون الوسطى...

أما أولئك الفتيات اللاتي يتصرفن، في صفوف الدراسة والمكتبات و المتاحف و المجماع التحقيقية و المختبرات، كالأساتذة والمحققين و المستشرقين الطاعنين في السن الذين لا يهونون سوى العلم، فيقتلون كل هوى ورغبة دنيوية أخرى من أجل عملهم وعلمهم... هؤلاء لا يحق لنا التعرف عليهن!.

ولكن الإستعمار المعاصر، والذي يعبد الطريق للاستعمار المعاصر - كما كان الإستعمار القديم يعبد الطريق للاستعمار القديم بمحاولته إبقاء المرأة في الجهل التقليدي والانحطاط الإجتماعي لصالح الإستعمار القديم - لا يتحدث عن هذه المرأة لأن الاستعمار لا يرغب أبداً أن تفكر فتاتنا وتعمل بطريقة أوربية.

لا يرغب أن تكون فتاتنا مفكرة و حرة ومنتجة. فهو يسعى أن يصنع من الفتيات صنفاً يسمى «فتاة البار» كي تستطيع أن تلعب له دورين استعماريين كبيرين في المجتمعات المحافظة والتقليدية.

أحدهما، أن توجه أنظار وعواطف ورغبات الجيل الشاب من الأعضاء العلوية - الأذن والعين والرأس والقلب - إلى الأعضاء السفلية، ويطرح الحرية الجنسية بصورة يفتت بها كل «الروابط الثقافية» - أي سر وجودنا والقوام الوطني والديني لنا وأصالة شخصيتنا التاريخية -، ويعطل بها كل رغبات الجيل الشاب وإنفعالاته الأساسية في

المجتمعات الآسيوية - الأفريقية، ومن بينها الإسلامية، والدور الثاني، هو أن تصبح هي - فتاة البار - أحرص المستهلكين وأقوى المحرضين والمروجين للاستهلاك في مجتمعاتنا.

ومن أجل هذه الغاية، لابد، لفتيات العالم الثالث، أن يفهمن الحضارة، على أنها التجدد، وتلتبس عليهن «المرأة المعاصرة» «بفتاة البار».

أجل، فنساؤنا يجب ألا يعرفن هؤلاء النسوة، لأنه ليس من حقهن، إعتبار «السيدة ميشن» أو «دولافيدا» هي «المرأة المعاصرة» أو «المرأة الأوربية المتحضرة» وتقليدها. فليس أمامهن إلا اختياران. أما أن يبقين ضحايا الإستعمار القديم، أو يصبحن ضحايا الإستعمار الجديد.

الدين؟ «إمرأة المائدة»!

الحضارة؟ «إمرأة البار»! ولاشئ آخر.

تكاتف الرجعية والإستعمار

ها نحن نري كيف إلتقت اليد المكشوفة «للتقليدي الأحمق» باليد الخفية (وفي نفس الوقت البينة)^(١) «للمتجدد المتحضر» وتعاونتا على تدمير كل شئ في حياتنا كي يخلقا منا مستهلكين مطيعين، وعبيداً هادئين، ومن فتياتنا «نماذج لعرض الملابس في واجهات المحلات»، لافتاة شرقية ولاغربية، بل «دمية إفرنجية» خاوية، محسنة، لا عاطفة إمرأة الأمس عندها ولا إحساس إمرأة اليوم، مجرد ألعوبة

(١) تماماً كالشيطان الذي هو «عدو مبين» في نفس الوقت الذي يكون فيه خفياً.

مسيرة، لاهي «حواء» ولا «آدم»! لاهي «زوجة» ولا «حبيبة» «لا ربة بيت» ولا امرأة عاملة، ولا إحساس بالمسؤولية لديها، لإزاء الطفل، ولا المجتمع، وكلها لا، لا، لا. نعامة، لاتحمل الأثقال لأنها طائر، ولاتطير لأن حجمها كبير كالمواشي!

إنها «صناعة محلية» بباركة «صنع في أوربا» مغشوشة، بضائع إفرنجية الغاية خاصة للاستهلاك في الأسواق الشرقية والاسلامية، أوصوا بها! فصنعوها وصبوا قوالبها، يعطي الإستحمار القديم موادها الأولية، ويصنع منها الإستحمار الجديد، في أفران حرق الانسان والتلوين وأجهزة غسل الدماغ والمسوخ الثقافي والتفريغ المعنوي مستفيداً لذلك من الحوامض والإكسيرات الكميائية، يصنع منها، «جارية معاصرة»، من أجل «ليالي الجنس» و «تمثالاً مزيناً لعروض الأزياء» من أجل واجهات عرض الاستهلاك.

يتعاون التقليدي الأحق والرأسمالي المجدد معاً عملياً، كي يوجد صنفاً جديداً كهذا، أحدهما باسم «الأخلاق والدين» والآخر باسم «الحرية والتطور»!

الحمقى التقليديون يسوقون المرأة بسوط التعصب والتحجر والرجعية، ويتركونها بلا ماء ولا غذاء، ويتصرفون معها بوحشية، كي تفلت من أيديهم وترتمي في الحوض الناعم المدلل لأولئك المتغربين الخليقي الذقون الذين يفتحون أحضانهم لها برحابة، ويتحدثون معها بتأدب ويرفعون قبعاتهم إحتراماً لها، ويتسمون لها ابتسامة عذبة ساحرة!

وهذه المرأة الأوربية التي نراها ونعرفها - امرأة العصر الحديث - هي وليدة نطفة علفت من «القرون الوسطى»، وهي ليست إلا رد فعل على كل الخشونة والعنف الرجعي للقساوسة الذين أذلوا المرأة وأهانوا كرامتها في عصر إقذار المسيحية والكنيسة واعتبروها منبوذة الربّ و رمزاً للخطيئة والسبب الاساسي والمجرم الاصلي في خروج آدم من الجنة، وسلبوا منها حقها الطبيعي في الإستقلال الإقتصادي والحرية، وحق تملك أموالها، وأطفالها، وحتى حق إمتلاكها للّقب!

سُئل قسيس في القرون الوسطى، «هل يستطيع رجلٌ غريب أن يدخل إلى بيت فيه امرأة؟» أجاب: «أبداً! أبداً! فاذا دخل هذا الرجل إلى البيت، حتى إذا لم ير المرأة، فقد ارتكب خطيئة». يعني هذا أنه إذا دخل رجلٌ غريب إلى الطابق الثاني من بيت تسكن في قبوه امرأة فقد ارتكب إثماً وخطيئة، كما لو أن الخطيئة تنتشر في الجو لمجرد وجود المرأة.

يقول «سن توماس داكّن»: إذا رأى الله حباً امرأة يتلأأ في وجه رجل - وإن كانت المرأة زوجته - فسوف يغضب، إذ لا يجب أن يدخل إلى قلبه حبٌ، غير حب الله، لقد عاش المسيح بدون زوجة، ومن يمكنه أن يصبح مسيحياً حقيقياً هو ذلك الذي لا يقترب من المرأة. لهذا لايتزوج الأخوة المسيحيون والآباء الروحانيون - والأخوات المسيحيات - حتى نهاية أعمارهم. لأن الزواج علاقة تغضب الرب، ويجب أن تكون للمسيحي الحقيقي علاقة بالله فقط، وبالمسيح، لأن من غير الممكن إجتماع حبين في قلب واحد، والذي

يستطيع أن يصبح روحانياً - حاملاً لروح القدس - ليس سوى الذين يعيش أعزباً.

في المسيحية، كانت المرأة هي الخطيئة الأولى pecheoviginale، وكلما إتجه الرجل - باعتباره ابناً لآدم - نحو المرأة وإن كانت تلك المرأة زوجته - كما كانت حواء زوجة آدم الشرعية - فقد كرر الخطيئة الأولى، واعاد إلى ذاكرة الربّ ذنب آدم ومعصيته. فالمطلوب إذاً هو ان نعمل عملاً ينسى معه الرب آدم وخطيئته!!.

إن المرأة في الفكر القروسطي منبوذة و عاجزة و محرومة من التملك. إلى درجة أنها عندما تدخل بيت زوجها بأملأها الشخصية يسلب منها حق الملكية.

تنتقل مالكيها تلقائياً إلى زوجها لأن المرأة لا تملك شخصية. آثار هذا الفكر لاتزال مشهودة حتى يومنا هذا في أوروبا المتمدنة، وهي غير مقبولة حتى لدينا نحن الذين نعيش تحت تأثير المخلفات الساسانية والطبقية والتاريخية، والأخلاق المسيحية والزهد الديني غير الإسلامي. حتى أن المرأة اليوم، تغير إسمها بمجرد أن تتزوج، أي أنها تفقد لقبها، وهذا التغير ليس محصوراً داخل العائلة أو عرفياً بين الناس، وإنما يثبت حتى في الوثائق الرسمية والشهادات الدراسية، ففي كل مكان يحل لقب الزوج مكان لقب الأب، وهذا يعني أن المرأة بنفسها، لا شيء، ليس لها وجود ذاتي، الاسم معنى - والموجود الذي ليس له معنى قائم بغيره - وطالما هي في بيت أيها فهي تحمل اسمه ومتى ما انتقلت إلى بيت زوجها عاشت تحت لقبه، اما هي فليس لديها حق

وتملك الاسم ولقد أثرت هذه العادة في إيران أيضاً، لأنها عادة غربية، فالشيء وإن كان تقليداً إستعبادياً، ولو أسطورة، ولو تصرفاً قبيحاً مذموماً، بمجرد انه يحمل (ماركة) إفرنجية، يرر للمجدد عندنا، والذي هو ليس إلا مقلداً عاجزاً بلا وعي ولا تشخيص.

فالإحساس والإرادة والإختيار والحكم، سيئه وحسنه، حقه وباطله، مشلول عند المقلد، ومعياره في ذلك أصلٌ يقول: «كل عيب يقبله السلطان فهو فن» فإذا قال السلطان إنَّ النهار ليل، عليه أن يقول: «هاك القمر والثريا».

يسألون في الأوراق الرسمية الخاصة بالنساء المتزوجات في أوروبا عن إسمين: الأول: الاسم الحالي الثاني: الاسم البناتي (Jeune fille)، فيسألونها في الاسم الأول عن لقب زوجها، أي لقبها بعد الزواج، وفي الثاني عن لقب أبيها أي لقبها قبل الزواج.

أي أن المرأة ترتبط بصاحب البيت، وإن كان البيت من الناحية المالية ملكاً للمرأة، ألا أنها بما انها امرأة لا يمكن أن تكون «صاحبة البيت».

مجددونا هنا، إنتبهوا حديثاً لهذه العادة الأوربية فأصبحوا يدلون أسماءهم بعد الزواج، لالقب العائلة طبعاً، بل الإسم الخاص، هذا شيء مضحك للغاية. نموذج صادق عن المحاكاة التي يقوم بها أشباه الغربيين عندنا، «للجنس الأفضل»، أولاً يكررون و يقلدون كل ما يقولون و يفعلون دون معرفة لعلته و مغزاه، و قيمته، «لأنهم لا إحساس لديهم». و ثانياً، يقومون بالعمل الذي يقلدونه بصورة مضحكة

و خاطئة، «لأنهم لا معرفة لديهم». لهذا نقول إنهم صنعوا في مجتمعنا أشباه غربيين، و متغربين، لا وجود لهم و لا لأمثالهم في أوروبا نفسها.

هنالك قانون يطبق حالياً في فرنسا، يقضي على المرأة المطلقة ألا يكون لها أي حق في أطفالها بعد الطلاق. بينما نرى في الإسلام - الإسلام الحقيقي النقي لا هذا الإسلام المخلوط المشوه - أنه يعطي للمرأة شخصية وشأناً الى الحد الذي يسمع لها بالمطالبة حتى بثمن الحليب الذي أرضعته لأطفالها من زوجها، و تستطيع المتاجرة بدون تدخل الزوج، و المشاركة في عمل إنتاجي مستقلةً و بطريقة مباشرة، أو تشغيل رأسمالها، و بعبارة أشمل إمتلاكها حق الاستقلال الإقتصادي.

لقد سبب كل ذلك الضغط اللا إنساني وشبه الديني - باسم الدين - على المرأة، رد فعلٍ عنيف في أوروبا اليوم، ورد الفعل هذا ناشئ عن القرون الوسطى التي ما تزال ذكرها تعشعش في ذاكرة المرأة. ولا تزال المرأة في إيطاليا وإسبانيا - حيث الدين أقوى - محرومة من كثير من الحقوق الانسانية برغم كل المنشورات التي تتحدث عن الحرية وحقوق الانسان وأمثال هذه المزحات الكبيرة.

إننى أتحدث عن الحريات الإنسانية والحقوق الإجتماعية، لا عن الحرية والحقوق الجنسية، والتي نرى شيوعها بهذه السرعة الفائقة، حيث يُصدر مجاناً إلى العالم الثالث «الحرية والاخلاق والتكنيك والثقافة والفن والأدب الخاص بالجنس» مقابل

مواد أولية كالنفط والاملاس والمطاط والنحاس والقهوة والأورانيوم التي تسرق من هذا العالم بكل سهولة، فتعمل كل وسائل الاعلام والاتصالات والامكانات الاجتماعية والفنية والتعليمية لشعب «متخلف» على إشاعة وتبرير وتوسيع هذا الوارد، وهذا شئ غير الحريات وحقوق الانسان. فالحرريات الجنسية خدعة من كثير من الخدع التي لاتعد ولا تحصى «للاستعمار الجديد»، والتي يتوسل بها النظام الرأسمالي الغربي في عالم اليوم، شرقه وغربه، محليه وأجنبيه، كي يتمكن من «استغلال الشعوب الغريبة» و «إستعمار الشعوب الشرقية» بلا موانع ولا معوقات، وأن يستمر فاعلاً بالذات في أوساط الجيل الشاب المتهور، والذي هو عنصر عصيان وتمرد، ولا يتحمل، ولا يأبه لقيود الأديان التخديرية وحبال التقاليد الموروثة في يديه ورجليه، فيكون بذلك مهيباً لأن يثور في كل لحظة، ويقوم بعمل للإصلاح، مغرباً رأسه في مستنقع «الحب الغربي الرخيص» وأجواء «الحريات المصنعة عند الرأسمالية»، إلى درجة لا يشعر فيها بالدنيا وما يجري حوله، مشبعاً نفسه إلى درجة لا يفقه. بها فقره وأسره، ولهذا نرى كل هذا التهافت من قبل اعمدة «الاستبداد المحلية» في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، من أجل إعطاء الحقوق والحريات الجنسية المهداة من الرأسمالية الغربية إلى الجيل الشاب وإشاعتها، وتقويتها وتشديدها بصورة جنونية.

وهكذا يمكننا رؤية عفريت العالم الجديد خلف القناع الجذاب لهذه «القفزة الجنسية العاصفة» وأيضاً يمكننا رؤية الصنم الكبير ووجوه

مذهب التثليث لهذا العصر: «الاستغلال» و «الاستعمار» و «الإستبداد» التي صنعت من فرويدنياً كاذباً، ومن الفرويدية مذهباً علمياً وإنسانياً، ومن الجنس وجداناً أخلاقياً، وجهازاً حقوقياً، وأخيراً من «الشهوة» محراباً ومعبداً متيناً، كانت أول قرايينه «المرأة»

المرأة في الدور الثقافي والقاعدة الإجتماعية للعصر الحديث:

حدث بعد «النهضة» في القرنين الخامس عشر والسادس عشر وتجاوز العصر التقليدي والديني القديم، أن حلت الرؤية الدكارتية والمنطق الحسابي التحليلي، مكان العاطفة الغريزية والإحساس الديني، و «الفردية» بمعناها الدور كهيمي، أي الإستقلال الفردي إزاء المجتمع (العائلة، القبيلة، الشعب،...)، أو «ترجيح الأنا» على الروح الإجتماعية الواحدة و «تفضيل النحن على الأنا» (الإشترابية الدور كهيمية)، وأصالة «المنفعة» (utitite) مكان أصالة «المبدأ» (valeuz) وأصالة «الواقعية» مكان أصالة «المثالية»، وأصالة الغرائز العينية، مكان أصالة الميول الروحية، وأصالة الرفاه والترف المعيشي، مكان طلب الكمال والتقوى والقناعة، و «العلاقات العقلانية المنطقية والمتحيزة الإعتبارية» (بديلاً) عن العلاقات المعنوية المقدسة والأدبية والفطرية غير القابلة للتحليل بطابعها الأبدي وأخيراً الظواهر المعلومه والمصلحية المفيدة والإرادية القابلة للتحليل والدراسة العقلية والمعللة نسبياً والمتغيرة الدنيوية - التي تشكل في مجموعها العالم والإنسان والحياة والحضارة وكل أبعاد العالم وعناصر المجتمع ومظاهر الروح الحديثة - «بديلاً»

عن الأسس الإلهامية الرمزية والحقيقية القيمة، التي هي لا آرادية، ولا توصف، ما وراء عقلية، وخارجة عن التسلسل العلمي المنطقي، خالدة وغيبية وأفلاطونية - وهي متجذرة في أعماق الوجود، وتنشأ عن الأبدية، وهي مظاهر رمزية لعالم آخر، تنبع من ذات القدس والمطلق، ومبادئ التقدير الإلهي - وأيضاً، الطبيعة، بديلاً عن ما وراء الطبيعة والعلم مكان الإلهام و «اللذة» مكان «العفة» و «السعادة» بدل «الكمال» و «الترف» بدل «التقوى» وكما يقول فرانسيس بيكن: «القدرة» بدل «الحقيقة».

لقد ترك هذا التغير الروحي والفكري والتحول العميق للمبادئ الإنسانية وتغيير الوجهة الأصلية للثقافة والعلم والإحساس والحياة، ترك آثاراً ثورية جذرية، في العائلة، في الحب، في علاقة المرأة بالرجل، ونظرة الرجل عن المرأة، ووضع المرأة في المجتمع وازاء الرجل وفي صميم الحياة والأدب والفن والعواطف.

لقد فسر العلم والرؤية المنطقية الدكارتية، كل شئ وحتى المقدسات والأصول الأخلاقية، والتي نظر لها الإنسان دائماً على أنها مبادئ وراء عقلية وفضائل إلهية، فسرهما كأشياء مادية، ومنها المرأة والحب والتي كانت دائماً تحيطها «هالة» من القدسية والخيال والروح والإلهام والشعر والأسرار المستعصية، وضعها تحت مبضع التشريح، فجزأها وحللها. وقد تعهد بهذا العمل اثنان هما «كلود برنارد» الذي يعتبر الإنسان جثة بلا روح و «فرويد» الذي يعتبر الروح خنزيراً مريضاً، مخيمةً عليهما كليهما ظلال بورجوا الذي كان يفهم الحياة على أنها

«مال» فقط، وكانت نتيجة هذه التحقيقات هي ما نراه. وكان في مواجهتهم رجال المسيحية، وفي مواجهة هذا المختبر، كانت الكنيسة التي لم يكن لديها من جواب سوى التكفير، والذي أصبح هراوة لا يخافها أحد، فلم يكن هنالك أي أثر لإستنفارهم وصراخهم باسم الدين وإصدارهم فتاوى بلا أدلة، وتخويفهم الناس من نار جهنم، مقابل أولئك الذين كانوا على أية حال يستدلون ويستشهدون. والمرأة التي كانت في الماضي عضواً في العائلة، وإن لم تكن لديها شخصية إنسانية مستقلة فقد إنصهرت في وجود العائلة - وهي روح واحدة - إستقلت هذه المرأة تدريجياً من الناحية الإقتصادية لأنها استطاعت أن تعمل في الخارج، حيث سحبت الحياة الصناعية والمتحركة والمعقدة الحديثة والمشاغل الإجتماعية المتزايدة، المرأة خارج بيتها، وشغلتها.

إن الإستقلال الإقتصادي يعطي المرأة إستقلالاً إجتماعياً أيضاً فتحصل على «وجود بالذات» إلى جانب الزوج والأبناء وتستقل... الآن تمتلك المرأة إستقلالاً فردياً قبل تكوين الأسرة، وبما أنها ناضجة عقلياً ومنطقياً، يكون تصرفها تلقائياً مع الآخرين - الرجل، الحبيب، الأب، الأسرة - تصرفاً مبنياً على أسس عقلية ومحاسبات مصلحية دقيقة. لقد حررت الرؤية المحاسبة والواقعية والتحليلية والعلمية و«الأنانية» والمصلحية والمنافع الفردية، والتوجه نحو الغرائز وطلب اللذة، والترف والرفاه والعقلانية، والبحث عن السعادة، حررت هذه الأشياء المرأة من كثير من القيود الإجتماعية والعائلية والدينية، وفي نفس

الوقت، سلبتها كثيراً من العواطف العميقة وغير العقلية العاطفية والإنسانية و (تركتها لوحدها)، لأنها إستقلت.

لقد أثبت «دور كهيم» أن الروح الإجتماعية كانت متينة في الماضي، ولكن، وبمقدار ما نما التعقل والإقتصاد والفردية - من الناحية الاقتصادية -، قطع الأشخاص روابطهم مع الأقارب وعلاقاتهم العاطفية والإعتقادية التقليدية والروحية واستقلوا، فوهبهم هذا الإستقلال إمتيازات كثيرة، الى الحدّ الذي يمكن لفتاة في الثامنة عشرة من عمرها أن تعيش لوحدها في شقة مستقلة بدون أي ولي أو مشرف، و تستطيع معها المرأة أن تتمتع بكثير من الحريات داخل الأسرة لأن لديها إستقلالاً إقتصادياً، وكلما ساءت حياتها وتلوثت بالأذى تستطيع أن تتركها وتحرر منها، لأن لديها حقوقاً فردية، ولأن لديها إستقلالاً إقتصادياً، ولأنها تتصرف بتعقل.

فلا يسمح لها عقلها السليم أن تتحمل الآلام من أجل شخص آخر، وكلما لزم أن تضحى، أو تُؤثّر، أو تغض الطرف عن الرفاه واللذة والحرية والترف والسلامة من أجل حب رجل، الحفاظ على حرمة، الوفاء بقسم، أو الإلتزام بعقد، بعلاقة، فانها لاتفعل ذلك، لأن أموراً كالوفاء والتضحية والإيثار والشكر والحرمة والقسم والعقد والحب أمور روحية وأخلاقية، وغير قابلة للتحليل العقلي والمنطقي.

«أضحى بحياتي من أجل أن يعيش إنسان آخر»، «أتحمل الألم

كي يرتاح إنسان آخر»، معاملة لا تتناسب وأي حساب، إنني لا أحتاج إليه، إذن ليجب أحدكم عن سؤالي هذا: لماذا أضحي بنفسي من أجله هو الذي بحاجة إليّ وأبقى وفية له؟ لماذا عليّ أن أتحمّل رجلاً قبيحاً، ضعيفاً، من أجل عقد، عهد، أو قسم، قطعت له عندما كان جميلاً وقوياً أو ربما لأنه كان الإمكان الوحيد الموجود أمامي، وأترك رجلاً قوياً، جميلاً، إعترض حياتي، يشبع روحي وغريزتي؟ من أجل أي شيء أضحي؟

القضية التي يطرحها سارتر هي: امرأة زوجة لرجل لا يحمل أي جاذبية، وامامها رجلٌ جذاب ويحبها، حساب العقل واضح هنا. فكلاهما محتاج إليهما، أولهما كزوجة، والثاني كعشيقة، ولكن المرأة لا تحتاج إلى الأول، وبحاجة إلي الثاني، وهي ستضحي باحتياجين من أجل إحتياج واحد عندما تبقى وفية لزوجها، وعندما تتركه تضحي باحتياج واحد من أجل إحتياجين، إذن واجب المرأة واضح، فالعقل يصدر حكمه القاطع، معادلة رياضية دقيقة، إن آيّا من فرويد ودكارت لا يفهم العامل الذي يجعل المرأة تضحي باحتياجين من أجل إحتياج واحد، وهو ليس عاملاً عقلياً و منطقياً، المرأة العقلانية، تحاسب، وتعمل بصورة منطقية، يمكنها من ذلك الإستقلال الإقتصادي والحقوق الإجتماعية. يولد الابن والطفل، فيقيد حرية الوالدين، والعقل لا يقبل أن يضحي بحرية وراحة إنسانين من أجل إنسان واحد، إذن فاما أن يُلغى مشروع إنجاب الأطفال أو يوكل بتربيتهم إلى مربية أو مؤسسة. لقد إنهارت كل هذه الروابط غير العملية

والعواطف غير المنطقية والقيود الأخلاقية والتقليدية والنفسانية والوجدانية، التي كانت «تحفظ» المرأة وتصهرها في صميم روح الأسرة، وتربطها بمئات الحبال اللامرئية، فتضطرها للتحمل والصبر والتضحية والإيثار، والوفاء للزوج، للإبن، للبيت، للأسرة، والأقارب، إذن يكون الإستقلال الإقتصادي والإجتماعي والروحي والنضج العقلي، وغلبة المنطق على العواطف والنظرة الواقعية على طلب الحقيقة، حصولها على الروح الفردية والاستقلال بدل تلك الروح الجماعية - التي ينصهر فيها الفرد-، تكون هذه العوامل بمقدار ما تهبه للمرأة من حريات وإمكانات إجتماعية وفيرة، عاملاً أساسياً في وحدتها وانفصالها عن الآخرين.

الوحدة:

الوحدة هي كارثة القرن الكبرى، ولقد حلل «هالبواكس» في كتابه «الإنتحار» وكذلك «دوركهيم» في كتاب له بنفس الاسم، ظاهرة الإنتحار في أوروبا من الناحية الإجتماعية.

الإنتحار في الشرق، حالة نادرة، وإستثنائية، أما في الغرب فهو ليس حالة، بل ظاهرة إجتماعية، ليس «واقعة» بل واقعاً، ترتفع درجات منحنيه في الدول المتقدمة يوماً بعد آخر، حيث ينخفض مستوى الإنتحار في إسبانيا والتي هي دولة متخلفة - قياساً بالدول الأوروبية - ويرتفع في أوروبا الشمالية، ثم يصل أعلى مستوى له في أمريكا الشمالية نفس هذا المستوى يختلف في البلد الواحد من القرية إلى

المدينة، وفي المدينة الواحدة، من المناطق المترفة إلى المناطق الفقيرة، وفي المجتمع الواحد بين الفريق المتدين والمتحرر، والمتدين والقديم ذلك لأن الناس وحيدون يعانون من الوحدة والفراغ، وكما يقول الشاعر «أحمد شاملو» (١):

الجبال مع بعض... ولكنها وحيدة!

مثلنا، مع أولئك الوحيديين.

الدين يربط الأشخاص ببعضهم، ويخلق روحاً مشتركة بين أتباعه، وكذلك يربط كل شخص بربه، في الماضي كان الفرد مرتبطاً بمئات العلائق مع أقاربه وأهله ومعارفه وقومه، فجاء الاستقلال الإقتصادي وشعر الأفراد أنهم ليسوا بحاجة إلى بعضهم، فالمجتمع هو الذي يدافع عن الفرد بدل أسرته، وجاره، ووالديه، وإبنه، وصديقه وقريه، ويؤمن احتياجاته المادية والمعنوية، النضج العقلي أيضاً يهجم على هذه الروابط الروحية والدينية التقليدية، النضج العقلي والمنطقي والحسابي والروح المادية والغريزية والترف، يدمر هذه العلاقات الروحية اللاعقلية، فيستقل الفرد، يصبح أنانياً، يستغني عن الآخرين، عندها «يصبح وحيداً». لأن الآخرين أصبحوا مثله أيضاً، وعندما يستغنون عنه ينقطعون عنه، ولا يقصده الناس إلا من أجل مصلحة أو فائدة. وعندئذٍ ينفرد الشخص في جزيرته فيهاجمه الإنتحار - الرفيق الدائمي للوحدة -.

(١) أحمد شاملو: شاعر فارسي معاصر وحديث. المترجمة.

المرأة تختار رجلها، والرجل يختار إمرأته. ولكن العامل الذي يجذبهما لبعضهما - حيث كلاهما مستقل ومقتدر ومستغن - ليس هو العامل الجنسي، ولا العاطفي، ولا الحب، ولا العلاقة الإجتماعية والتقليد والميل نحو الأنيس والصاحب والجواذب الرمزية التي لا توصف، - فصوت هذه الأمور منيت هذه الأيام - إذن ما الذي يجذب؟ إنه ليس إلا محاسبة عقلانية، خاوية، لا نور فيها ولا ضياء، أو ربما ضرورة قانونية، أو حتى «الإضطراب».

تخلق الحريات الجنسية، - التي تبدأ «رسمياً» عند سن البلوغ، وعملياً، في أي وقت يشاؤون - في فكر الرجل والمرأة الإعتقاد بأن إرضاء الغريزة الجنسية لا يلزمه إلا وجود الغريزة الجنسية، وإذا كانت ضعيفة فيمكن جبران ضعفها بالمال، إذن المال هو اللازم فقط، ويمكن إرضاء الغريزة الجنسية على كل المستويات، وبمبالغ متفاوتة.

على أية حال يستطيع المرء أن يصبح دائماً وفي كل سن إما «دون جوان» أو «أوناسيس»، أما إمرأة أمريكا الأولى فيمكن شراؤها بمبلغ معين أيضاً، ولا فرق بينها وبين فتيات الأرصفة إلا في السعر. وبما أن الفتاة والفتى كلاهما يتمتعان بالحرية الجنسية لا يريان من مصلحتهما، في فترة عنفوان الغريزة الجنسية، أن يقيدا أنفسهما إلى نهاية العمر. كما أن العقل والمنطق السليم والحساب الصحيح ومبدأ ترجيح اللذة والترف والفردية والواقعية وغيرها، لا يفتي بوجود حرمان الشخص لنفسه من كل هذه الحريات المتنوعة، وتمتعه بأنواع الجمال، والجاذبية، من أجل شخص واحد.

تكوين الأسرة:

يقضي كل من المرأة والرجل فترة القدرة الجنسية في المراقص والمطاعم، والمنتزهات وأمثال هذه الأماكن بكل حرية، حتى تنتبه المرأة لنفسها فتجدها وحيدة، وترى حواليتها خالياً، لا أحد يقصدها، وإذا قصدها فلأجل تحديد ذكريات من الماضي.

والرجل أيضاً، صرف فترة التجربة الجنسية، واقتطف من كل بستان رهرة، و من كل وردة عطراً، فلم يعد أي شيء جذاباً ومثيراً بالنسبة له، هدأت عنده الثورة الجنسية، وحل محلها حب المال والجاه والشهرة والمنصب، فينبعث في أعماقه الميل نحو تكوين الأسرة والبيت.

إذن، تتشكل الأسرة ولكن أساس بنيانها هو خوف المرأة من الضياع والوحدة، وملل الرجل وتعبه! وعندها لن يكون في هذه الأسرة إلا الإرهاق والملل، بدل الحب والمثالية، وبدل أن يكون لوجودهما إلى جانب بعض طعم ولذة خاصة، وحياة جديدة نابضة، لاشيء جديد. وهما يعلمان جيداً ما الذي ينتظرهما. بالطبع لاشيء!

لا شيء يريح القلب، وهما يدريان كيف عثرا على بعضهما لأي سبب، وما حاجتهما، فكلاهما إتجها نحو بعضهما بمحاسبات دقيقة وعقلانية، وكلاهما يعلم الغاية من وراء كلمات الغزل والحب. حيث كلاهما اتخذ من الطرف الآخر وسيلة لإرضاء

حاجة في نفسه. وكلاهما محبان، والهان، ولكن في عكس الاتجاه الذي نفهمه نحن.

ولهذا، نرى مجاميع كثيرة كهذه، في الأيام المخصصة للزواج، تملأ قاعات البلدية - حيث لا يسمح لهم بدخول الكنيسة - فيعرفهم شخص نيابة عن رئيس البلدية بعلامة على صدره، تبين أنه موظف دائرة لاغير، لارجل دين (وجه يمثل الروحية والإيمان والحرمة والقدسية)، تماماً كنماذج مصبوبة في قوالب، يقرأ الأسماء من ورقة في يده فيأخذ الجواب من العروس التي يتبعها غالباً عدة أطفال. ثم يوقعون في نهاية إستمارة مخصصة، وتنتهي المراسم، فيعود الجميع إلى قوالبهم - بيوتهم، والظريف هنا هو عدم إرتداء أكثرية العرائس لفستان زفاف، فأغلبهن يقلن أنهن يخجلن من إرتداء شيء كهذا، في عمرهن الآن! ثم تنشغل المرأة بشيء ما، وينشغل الرجل بأمر آخر، وربما يدعوان أصدقاءهما إلى وجبة غداء في مطعم، هذا إذا كانت حفلة الزواج صاحبة شيئاً ما وإلا فانهما سينسيان كل شيء بعد إنتهاء المراسيم، كأن شيئاً لم يحدث. وغالباً ما ينظر الطرفان في قاعة البلدية إلى بعضهما، ماذا يعني هذا؟ أين يذهبان؟ إلى النزهة؟ وهما قد شبعنا منها، إلى حجرة النوم والعناق؟ وقد تذوقا طعم بعضهما مئات المرات، ولم تبق أي لذة في ذلك. إلى البيت؟ وقد جاءا تواءاً منه، إذن ما هو الشيء المثير بالنسبة لهما؟ يحرك خيالهما وإحساسهما؟ لا شيء. إذن أليس من الأفضل أن يتجه كلاهما نحو عمله. كالعادة وككل يوم. هكذا تتكون الأسرة، فقد عثر الرجل والمرأة

على بعضهما بعد محاسبة دقيقة، وشكلا شركة إقتصادية. أو إضطرهما الوضع أو القانون لذلك. هذا في حين يكون الطفل قد دخل إلى حياتهما وجعل من أمه وأبيه عروساً وعريساً. فاستسلم هذان الإثنان لهذه الشركة دون أي شعور بالحماس أو العاطفة أو الشوق. فلاهما بحاجة إلى بعضهما، ولا هما يلتجئان لبعضهما. لا سر فيهما ولا سحر في وصالهما. ولا شيء يبدأ ولا شيء يتبدل. ولهذا يكون أساس الأسرة ضعيفاً، فلا يرى الأبناء فيها حماساً وجاذبية وحرارة، وبما أن الأب والأم لا يستطيعان التضحية بحريتهما من أجل طفلهما، يعهدان به إلى مكان، يدفعان له مبلغاً من المال، ويواصلان حياتهما.

وعندما ينفصلان عن بعض، فتبعاً لنفس قوانين المنطق والمصلحة التي دعتهما للشراكة والعيش معاً. لأن الرؤية نفسها والمنطق نفسه والروح والإمكانات نفسها لاتزال قائمة. فكيف يمكن أن تشبع المرأة التعب المرهقة - التي يثير تسلطها في العلاقة الجنسية نفور الرجل واشمئزازه - كيف تشبع رجلاً احتضن كثيراً من الفتيات الصغيرات النضرات، وذاق طعم كثير من الأحضان الدافئة؟ وهكذا شأن المرأة، تعيش دائماً في حالة مقارنة بين زوجها المنهك وبين الأحضان التي تلقفتها، واضح أن مرتبة زوجها لن تكون مرتفعة في هذه المقارنة، في الوقت الذي لاتزال فيه الأحضان مفتوحة خارج بيتها والمقاهي ساخنة والحفلات قائمة... فيعود العامل الذي جمعهما على رغم كل هذه الدعوات، ليصبح عملاً لا منطقياً.

المرأة في النظام الإستهلاكي: الجنس بدل الحب:

في المجتمع الذي تكون فيه الأرجحية «للإنتاج والإستهلاك» و «الإستهلاك والإنتاج» الإقتصادي، والتعقل لا يفهم غير الإقتصاد. تكون المرأة هنا، لا ككائنٍ مثير للخيال، مخاطباً للعواطف الطاهرة، محبوباً لا ينسى، رابطة مقدسة، أمّاً، أنيساً، بؤرة إلهام، مرآة صادقة لنفس الرجل الحقيقية، بل سلعة إقتصادية تُباع وتشتري، حسب جاذبيتها الجنسية.

لقد صنعت الرأسمالية المرأة بالشكل الذي يجعلها تفيد لشيئين، أحدهما أن تشغل المجتمع عن التفكير في مصيره، بما هو عليه من الاستغلال، بمستقبله المظلم والأسود الذي صنعت له البرجوازية. ولا يسأل أسئلة كهذه:

«لماذا نعمل؟» «لماذا نعيش؟» «من هو السبب في كل آلامنا، ومن أجل من نتألم؟»

وأيضاً استخدمتها كأداة تسلية وترفيه، وباعتبارها الكائن الوحيد الذي يملك جاذبية جنسية، كي لاتدع العامل والموظف والمثقف يفكرون في أوقات فراغهم بالتمرد ضد الطبقة والرأسمالية، واستخدمت لتملأ كل الحفر والثغرات الموجودة في الحياة الإجتماعية، فعمل «الفن» بشدة على تبديل أسسه ومرتكزاته التي تعني دائماً الجمال والروح والعاطفة والحب إلى «الجنس» بناءً على توصيات الرأسمالية والبرجوازية، معتبراً الفرويدية السوقية والشبق الجنسي

المبتذل فلسفة علمية، وأساساً للانسان المثقف الواعي، وواقعية معاصرة، وكل الخيال والأشعار والعواطف المتألية أموراً خاوية لا معنى لها، و«الجنس» هو الشيء الوحيد الذي يصلح أن يكون أساساً ومعتمداً للفن الجديد.

لهذا نشاهد كيف أصبح كل من الرسم، الشعر، السينما، المسرح، القصة، المسرحية، يدور حول محور «الجنس» دائماً. كما أن الرأسمالية، ومن أجل تشجيع الناس على الإستهلاك الأكثر، ومن أجل إشعار الشعوب بحاجتهم إليها، فترفع من مستوى الإستهلاك والإنتاج، من أجل هذه الغاية، عرّفت المرأة على أنها كائن لا يملك إلا الجاذبية الجنسية - ولا شيء آخر - أي كائن ذو بعد واحد. وأعطتها مكاناً وحجماً واسعاً في الإعلانات والدعايات كي تخلق قيمة وعواطف جديدة، وتجلب بذلك الأنظار إلى البضائع الجديدة، وهكذا استخدمت المرأة لقتل الأحاسيس التي تهدد مصالح الرأسمالية وتدمر وجودها..

فحل «الجنس» مكان «الحب»، وتحولت المرأة، «الأسيرة المحبوبة» في القرون الوسطى إلى «أسيرة حرة» في القرون الحديثة. وحدث أن صارت المرأة في التاريخ والحضارات والأديان المتطورة - وإن لم يكن لديها المكان الخاص بها، ولكنها على أية حال كانت مصدر إلهام وعاطفة وذات مقام كبير متسام من الحب والعاطفة والفن - أصبحت الآن أداة من أجل الغايات الإقتصادية والإجتماعية، ومن أجل تغيير شكل المجتمع وتدمير قيمه الرفيعة وأخلاقه، وتبديل المجتمع التقليدي

- أو المعنوي والأخلاقي أو الديني - إلى مجتمع إستهلاكي خاه . من أجل تبديل الفن - الذي هو التجلي الإلهي للروح البشرية - إلى س. لمة لتغيير النوع البشري بواسطة «الجنس».

في الشرق:

والآن، جاءت الرأسمالية نحو الشرق - نحونا - وعملها هنا سسط للغاية. أبسط بكثير من مجتمعات القرون الوسطى، حيث أن حس الجنسي في الغرب عند الفتیان - بالذات في السويد، النرويج، وحتى فرنسا وألمانيا - يستيقظ متأخراً. إذ لا يملك الفتى هناك، حتى سن السابعة عشرة او الثامنة عشرة، أي إحساس يجذبه نحو الجنس للآخر، بينما تكون الفتاة، عند هذه السن، في عنفوان الفوران الجنسي. فتحدث عند الرجل حالة الهروب، وعند المرأة حالة الهجوم، مما يسبب لديه نفوراً وإشمئزاً من الجنس يلازمه طوال عمره، ويؤثران حتى في علاقاته العائلية.

لهذا طرح علماء الاجتماع وعلماء النفس في أوروبا الشمالية عدة إقتراحات من أجل رفع العاطفة الجنسية عند الرجل الأوربي الشاب، عن طريق الإثارات الجنسية الطبيعية والاصطناعية بواسطة المرأة .

أما في الشرق، فلا وجود لهذه المشكلة، إذ يصل الشاب الشرقي إلى التضج الجنسي قبل وصوله إلى سن البلوغ، وقد سبب هذا البلوغ المبكر مشاكل معقدة عند علماء الاجتماع وعلماء النفس الشرقيين، ولكن، أين الملتزم المتعهد بهذا الجيل، كي ينصت إلى مشاكله

ويفكر بها؟ والحرب بين الفريقين قائمة من أجل أشياء وأمور أخرى،
فالبحث بينهما يدور حول طريقة إرتداء الملابس وإستعمال أدوات
الزينة، والسلوك الخاص والعادات والأذواق.

والحرب بينهما ليست لصالح أحد، وليس من صالح أي شخص
ان يهزم أي منهما الآخر، فأحدهما يسمى نفسه كذباً «بالمتمدن»
والآخر «بالتدين»، وكلاهما لاعلاقة لهما لا بالتمدن ولا بالتدين.
الأول يعتبر المرأة النموذجية هي «المرأة الأوربية» والثاني «فاطمة»
و«زينب»، وكلاهما، إما أن يكونا كاذبين في إدعائهما، أو أنهما
غريان عن النماذج التي يدعون اقتداءهم بها.

يريد الأوربي أن يغير المجتمع الشرقي، كي يستطيع غزوه إقتصادياً
وثقافياً وعاطفياً. يسرق لقمته من فمه، ويدمر إحساسه ومعرفته
وأصالته وإرادته ومبادئه الإنسانية، اذ لا يمكن غزوه إقتصادياً ما
لم يستطع تدمير هذه الأشياء.

إذن، يجب قبل كل شيء أن نُفَرِّغَ من ذاتنا، وننسى كل القيم
الإنسانية، ونفقد كل التراث الذي يبقينا ويحفظنا، ننهار من داخلنا،
فنصبح كطبول خاوية، عارية عن الذهن، بروح عاجزة، مشلولة،
وفارغة، تماماً كسلة القمامة، التي يملأونها ويفرغونها من القاذورات
كيف شاؤوا.

هكذا يتعاملون مع العقل والروح الشرقيين، وإذا رأت الروح
الشرقية باطنها خالياً. لا يمكنه الإتكاء على شيء والإعتماد عليه لأنه
لا إيمان لديه ولا معرفة ولا مفخرة، ولا أمجاد، معتبراً ماضيه عاراً عليه،

وعديم القيمة والأثر، ودينه خاوياً خرافياً، ومعنوياته رجعية وتخلفاً، وحياته مبنوذة كريهة، بشعة، فلا يعرف نفسه ولا أصله ولا جنسه، أو يعرفها بصورة سيئة، هذه الروح كيف يمكن أن تصبح؟ لن تكون بالطبع إلا كبرميل فارغ، متعطش، محتاج إلى أوامر الإستعمار، يرمي في داخله ما يشاء، ويفزوه كيف يشاء.

وهكذا نراهم يفرغون الجميع، من أجل غزو الشرق، فيعدون للمسلم والبوذي والهندي والإيراني والتركي والعربي والأسود والأبيض، شعاراً ثابتاً، من أجل أن يصبح الجميع بشكل واحد، وبعد واحد، وهو أن يكونوا مستهلكين للبضائع الإقتصادية والفكرية، دون أن تكون لهم أفكارهم الخاصة بهم.

أما ما كان يسد الطريق على الغرب، ويحفظ الشرق، فهو الإلتزام، القيم الإنسانية، التقاليد والدين، فقد كان الإلتزام كقلعة تقف لحماية الإسلام والإستقلال في مواجهة الغرب، لم يكن للغرب باب للنفوذ، وكان المسلم ممتكناً معنويات وفخراً وثقة بنفسه، يهبه «تاريخه»، قاداته، حضارته، إيمانه، وشخصياته الدينية كل الإستقلالية والعظمة والعزة. لا يرى الغربي إلا شخصاً جديداً على التحضر والثقافة والثروة، فيمعن في إنتقاده وإحتقاره، ويستعرض نفسه أمامه. أما الغرب، فقد إستطاع بالمكر والحيلة أن يسكن في ثنايا هذه القلعة وزواياها ويبدأ كدودة الأرض يقضم كل شيء من الداخل في الشرق، فأفرغه بذلك من كل محتوياته، ودمر كل قواه المقاومه. وخلق من صانعي الملاحم الملتزمين بدينهم أشخاصاً يفتقدون كل حماس وثقة بالنفس، يستقبلون العدو

ويأخذون عنه ما يعطي، ويقومون بكل ما يأمرهم به، فأصبحوا
كما أراد لهم أن يكونوا.

دور المرأة في هذا الهجوم.

لقد كانت المرأة في البلدان الإسلامية عاملاً قوياً، تستطيع أن تغير
التقاليد، النظام القديم، العلاقات الاجتماعية، القيم المعنوية، والأهم
من كل هذا، الاستهلاك، (كما كانت عاملاً قوياً في حفظ
هذه الأشياء)، ذلك لأنها بطبعها العاطفي، بالأخص في الشرق،
تستطيع قبول المظاهر الجديدة لـ «شبه الحضارة» الحديثة، أي
الاستهلاك، أسرع من غيرها، خصوصاً وهي ترى أمامها التشعشع
الدائمي والخلاب للمظاهر الجميلة الجذابة، ثم لا ترى إلا القبح
والبشاعة في الجهة المقابلة.

ينقل أنه، في بدايات الاستعمار الأوربي لأفريقيا، كان هنالك
أوربي مخادع يتنقل بين القبائل السوداء، ويعرض عليها وعلى رؤسائها
أنواعاً من وسائل الزينة الزجاجية، والتي تلمع بالطبع أكثر من الطبيعية،
وبناءً على أحد قوانين علم النفس الذي يقول بازدياد حب الزينة
والإفراط فيها لدى البدو أكثر من غيرهم (نلاحظ هذا واضحاً
عند القبائل الأفريقية والقبائل البدوية العربية)، فقد كان يبيع عليهم
حفنة من هذه الوسائل المزورة، كي يأخذ بدلها امتيازات كبيرة،
كإمتياز زراعة القهوة وتصديرها أو شراء قطعان من الغنم أو حتى
إستخراج الألماس.

واضح أن دور المرأة، التي تعاني من العقد وتبحث عن التحضر، في معاملة كهذه فعالٌ جداً، كما أن المرأة في المجتمعات الشرقية؛ ومن ضمنها المجتمع «شبه الإسلامي» الموجود حالياً، تعاني من حرمانها من كثير من الحقوق الإنسانية، بإسم الدين والتقليد، كالدارسة والتحصيل والإمكانات الإجتماعية وحرية الثقّف، والتربية وتغذية الروح والفكر، وحتى أنها محرومة من كثير من الحقوق والإمكانات التي وهبها لها الإسلام باسم الاسلام، فهبط دورها الإجتماعي إلى الحد الذي لا تعتبر فيه إلا «كماكنة غسيل» وحصرت قيمتها الإنسانية في حدود «أم الأطفال» ولم تعد هذه المنزلة، وحتى إسمها، يشعر البعض، بالعار والخجل من ذكره فينادونها باسم إبنها (وإن كان صبيّاً لافتاة)^(١)

الظالم والمظلوم:

يقول علي «ع» إثنان مسؤولان عن إيجاد الظلم، الظالم ومن يقبل بالظلم. ويتعاون هذين الإثنين يظهر الظلم، وإلاّ فإن الظلم لا يظهر عن جانب واحد. فالظالم لا يستطيع أن يظلم الهواء، الظلم قطعة حديدية تتخذ شكلها تحت مطرقة الظالم وسندان المظلوم.

وليس الظلم وحده هو المحتاج في وقوعه الى طرفين، بل كل الفساد والانحراف والتعاسة والمصائب. فعند هزيمة «مجتمع ما» ليس

(١) هنالك عادة كانت متبعة في إيران عند بعض العوائل من جيل الأربعينات والخمسينات تسمى فيها المرأة بإسم إبنها أو زوجها، كأن تنادي «محمد» مثلاً أو «غير ذلك من الأسماء». المترجمة.

الغازي هو الوحيد الذي «يهزم»، المجتمع نفسه يجب أن «ينهزم» كي تتم الهزيمة. في القرن السابع مثلاً لم يكن چنگيز هو الذي هزمنا، بل نحن الذين كنا قد نخرنا من الداخل، وقد أعددنا أنفسنا لتقبل الهزيمة منذ القرنين الخامس والسادس، و لم يفعل چنگيز شيئاً سوى أنه رفس هذا الجسد المنخور، فانهرنا وهزمنا.

ان الديدان الموجودة في جذور الشجرة وجذعها هي التي تنخرها من الداخل، فتسلبها روحها ومحتواها، وتركها خاوية فارغة، وهيكلأ قائماً فقط، وهي التي تدمرها فتنهار على الأرض، لاتلك العاصفة الماره عليها، كمرورها على بقية الأشجار، والعواصف تهب دائماً على الغابات فلماذا نشاهد سقوط بعض الأشجار دون بعض؟

إذا كانت المرأة اليوم، تغير لونها وصبغتها، وتظهر نفسها بشكل دمية غريبة (لإمرأة غريبة)، علينا أن ننتظر عندها، الإستعمار الإقتصادي كامناً خلف الحدود، وهنا، داخل الحدود، نرى أنفسنا، نحن الذين ساعدناه ونصرناه، ياجبارنا المرأة على الهروب منا، كي يصطادها هو بسهولة، فقد لقبناها بالضعيفة، المستكينة، الجارية، أم الأطفال، وحتى «قليلة الأدب» و «المنزل» و «الماعز»، ففصلنا خلقها عن الإنسان، وبحثنا ما إذا كان باستطاعة المرأة أن تستقل بطريقة خاصة بها في الحياة أم لا؟ واستدللنا على إنكار ذلك بأن من الممكن في هذه الحالة أن تكتب المرأة رسالة إلى رجل غريب، (إذاً كان من الأفضل بناءً على إستدلالاتنا هذا أن نفقدها بصرها، ونفقاً لها عينها، كي لايقع نظرها على رجل غريب، فيرتاح بال الرجل الغيور الذي

يفضح ضعف شخصيته بخشيته من خيانة زوجته).

هكذا حفظنا للمرأة تقواها وعفتها، بالجدران والسلاسل، لا باعتبارها إنساناً، مفكراً ذا إحساس وعاطفة ووعي، وكنا نراها كحيوان متوحش لا يمكن ترويضه وتربيته، ولا مكان لحفظه إلا القفص لتلا يفرفر في أول فرصة تسنح له.

كانت المرأة سجيناً لا سبيل له، لا إلى المدرسة ولا إلى المكتبة ولا إلى المجتمع، وكانت مكانتها في المجتمع كمكانة (الأقوام النجسة) أو المنبوذين في مجتمع الهند ليست في عداد البشر.

هكذا كان الشعار: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»، يتحدث فيه الكثيرون على المنابر وترتفع به اصواتهم طيلة شهر رمضان، ولكن على أرض الواقع، كان الرجل دائماً هو الذي له حق الدراسة، والمرأة - عدا بعض الميسورات اللاتي كان بإمكانهن استقدام المدرسين إلى البيت - كانت محرومة من هذا الحق، ولم يكن بإمكانها أداء هذه «الفريضة الدينية».

لم يكن للمرأة مكان في كل المجالس الدينية، والنشاطات الإسلامية، وأعمال التبليغ ودروس القرآن والتفسير والحديث والفلسفة والعرفان والتاريخ. فما كان مسموحاً لها إلا بالجلوس في مجالس التعزية حيث لا يقصدها الخطيب في حديثه ولا يتوجه إليها إلا بامثال هذه العبارات، «اسكتي يا ضعيفة» أو «أخرسي طفلك»، فكلامه وحديثه للرجل، وتأنيبه وتوبيخه للمرأة، وفي النهاية، عندما يريد البدء بقراءة المراثي، يتوجه إليها باحترام مخاطباً جمعهن «بالسيدات»،

كي تبكي المرأة وتلطم على صدرها، وتضفي بذلك جواً ساخناً على مجلسه.

المرأة التي دورها في البيت ليس إلا إنتاج «الأطفال» وفي المجتمع، إنتاج «الدموع»، هذه المرأة هل من الممكن أن تكون قدوتها «فاطمة»؟ فاطمة التي كان إنتاجها بنتاً كزينب، شهدت قتل أخيها وإثنين من أبنائها البررة، ثم وقفت بعد أيام في مواجهة الطاغية الجلف ودكتاتور بني أمية الفظ، في عاصمة الخوف والجريمة في ذلك العصر، كي تقول كلمتها بشجاعة وثبات: «شكراً لله، الذي وهبنا كل هذا الفخر وهذه الرحمة» هل كل هذا الجلال وهذه العظمة هما مظهر للنساء اللاتي يخفن حتى من الفأرة؟

لقد حرموا المرأة كل شيء، حتى الإسلام، حتى الدين، حتى معرفة عقيدتها، وبما أنها كانت أمية، فكان، يجب أن تستغيث، واستغابت، وكان لابد أن تكتفي بالطبخ، واكتفت. عندما لم تكن لديها أية وسيلة أخرى للتسلية العلمية والفكرية.

وبما أنها لم يكن لها سبيل إلى المدرسة والكتاب والمجالس والمنابر، فما كانت تستطيع أن تنافس الرجل في مستواه العلمي، الرجل الذي يحضر في اليوم عدة مجالس وعدة حلقات درس. وهذا يعني تماماً كما لو أننا قطعنا يد شخص ما ثم قلنا بمأنه مبتور اليد، فعليه أن يكون محروماً من كل شيء. ومن المؤسف له أن عوامل كثيرة كخلق الخرافات والأساطير والعقد والجهل والتخلف والتقاليد القومية ومخلفات الأنظمة البدوية القديمة، والعبودية، وسيطرة الأب، والعقد

الجنسية والنفسية وغيرها، إتفقت جميعاً على تشكيل شبكة معقدة كبيت العنكبوت، ابتليت بها المرأة وسقطت بين طياتها، وبرربها «الجلوس خلف الستارة» باسم الإسلام وباسم التقليد وباسم التشبه بفاطمة! وحبست المرأة فيها باسم العفة، وعلى أساس أن وظيفتها الوحيدة هي تربية الأطفال.

ولست أدري كيف يمكن لشخص ناقص، محروم من نعمة العلم والكتاب والدراسة والتربية والفكر والثقافة والحضارة والتربية الاجتماعية، كيف يمكن أن يكون مربياً لجيل الغد؟ يبدو أن قصدهم من التربية هو إشباعه وتسمينه فقط، إذ ماذا يستطيع كائن ضعيف، جليس البيت، لافكر عنده ولاثقافة، بحاجة إلى التربية أكثر من غيره، ماذا يستطيع هذا الكائن أن يفعل حيال إنضاج وتربية روح الطفل وافكاره العميقة الحساسة؟ هل غير أن يُعطيه الحليب، ويُلبسه ويُنظفه؟ وماذا سيكون تأديبه وتربيته لهذا الطفل غير الشتيمة والبكاء والخداع والصراخ واللعن، وإذا تمكن من ضربه، ضربه. وإذا لم تؤثر هذه الأشياء يخوف بأخيه الأكبر أو أبيه، وإذا لم يغن هذا العلاج أيضاً، يطلب الاستمداد من الجن وعزرائيل والقبر، وإذا لم تفد كل هذه الأشياء في إخافة هذا الطفل «الشرير اللعين!»، يخلق موجودات غيبية أخرى يضفي عليها وجهاً مخيفاً، كالغول والعفريت، والظلام،... أجل، هذه هي وسائل التعليم والتربية الموجودة في نظام التربية والتعليم لأمرأة تلخصت كل حياتها في كيفية إعداد نفسها وتربيتها، فتقصر بذلك في تربية الطفل، أي رسالتها الوحيدة!

هكذا نرى المرأة في مجتمعنا التقليدي المنحط - الذي أضفوا عليه رداء الدين الكاذب - كيف «تفسد» في بيت أبيها كالفاكهة. وعندما تصل إلى سن البلوغ الجنسي تباع على مشترٍ. بمبلغ معين من المال، طبقاً لمعاملة تجري بين البائع (صاحبها السابق) والمشتري (مالكها الجديد وربها الثاني) وتنقل إلى بيته وهنا - حيث يعين دورها وسعرها في عقد مالكيته - تصبح «خادمة محترمة» (كان الرجل المتزوج يسمى بناءً على ذلك بالمخدوم)، فتعمل في البيت، تطبخ الطعام، ترضع الطفل، وتحافظ عليه، وتدير البيت، فتشرف على تنظيفه وترتيبه. خادمة وممرضة، ولكن، وبما أنها خادمة بلا أجر، وتخدم باسم الدين والشرع (ولا تستطيع أن تكون شيئاً آخر)، يسمونها «السيدة»، ولأن سيدها هو زوجها في نفس الوقت، تسمى «إمرأة»، ولأن الأطفال الذين ترعاهم هم أطفال زوجها، تسمى أمّاً، على أية حال، كان هذا عملاً مفيداً، وكانت المرأة عاملة، وإن كان عملها في مستوى عمل الخادمة والمرضعة فقط، ولكن، هكذا تربت، وهكذا تعلمت، ولم تحصل على شيء أكثر. هنا يجب أن أنبه إلى أنني أقصد في إعتراضي وعتبي الآباء الميسورين مالياً، الذين يحرمون بناتهم من الدراسة والعلم بجريرة أنهن نساء لاغير، وأحياناً باسم التدين، بالرغم من وجود كثرة من النساء في تاريخ الإسلام اللاتي وصلن إلى درجة الإجتهد، وشكلن حلقات درس عديدة، وألفن كتباً علمية وأخلاقية مفيدة. أما الفتيات اللاتي حرمن من الدراسة بسبب الفقر، وانشغلن بالعمل في بيوت آبائهن وأزواجهن، فهن يستحقن

كل إحترام وتخليد.

ولكن الأدعى بالسخرية من هذا الدور وهذا الوضع هو نوع آخر من النساء، يجب تسميته بـ «المرأة اللاشيء» وهي «سيدة البيت». ظاهرة رهيبة، وهي ليست المرأة البدوية والريفية في بلادنا، التي تعمل في رعي القطيع والاهتمام بالمرزعة مع الرجل، ولها دور في الإنتاج والدخل العائلي، بالإضافة إلى عمل البيت، تعجن، تعطي العلف، تحصد، وتقطف الفاكهة والعنب والقطن و...، تحلب البقر والماعز، وتصنع الزبدة، واللبن والجبن وأشياء أخرى كثيرة، إما أن تستفيد منها في بيتها أو تبيعها، تندف القطن والصوف، فتغزل الخيوط وتحرك، تخطط الملابس، وربما إنشغلت بعمل فني كالحياكة أو الأشغال اليدوية الأخرى.

إذن فهي زوجة ومرضعة، وأم وعاملة، وفنانة، وربة بيت، وممرضة، تعيش مع براعم حديققتها وتعشق طيور صحرائها، فتنجب الأطفال بكل إخلاص، كغزلان الصحراء. وتقوم بدور الأم، وتبقى وفيه لشريكها كأنثى الحمام، واهبة حريتها إلى رفيقها وشريك حياتها مقابل الحب، (نعم، نهبها، لأنها تمتلكها، وهم لا يسلبونها إياها، كي تهرب في أول فرصة). كما نراها أخيراً وقد نثرت البذور بأناملها في المزرعة، وهددت ابنها بنفس الأنامل في البيت، وأراحت زوجها في فراشه ليلاً. وفي السوق خلقت أجمل معجزات اللون والرسوم.

و«المرأة اللاشيء» ليست المرأة الأوربية أيضاً، المرأة التي تشارك في الحياة الزوجية «ذات الزوجين» (Monage)، ويكون فيها الرجل والمرأة

ندين متشابهين، يعمل كلاهما خارج البيت وفي داخله، إذا كانت فتاة فشأنها شأن الفتى، حرة، ترى كل شيء، وتتعرف على الحسن والسيء، الخيانة والخدمة، وكل ألوان وأسرار الحياة والمجتمع، وتدرس كالفتيان وتتنزه، وتمارس الرياضة، وتتعرف على الكتاب والقلم والفن والفكر ودروس الحياة، وتتخصص في عمل ما، وعندما تصل إلى الإستقلال الإقتصادي والإجتماعي، تختار رفيقاً لها «كزوج» و «شريك حياة». المرأة اللاشيء، ليست أيضاً ربة البيت، المرأة التي كبرت في بيت أبيها فقط وانشغلت بإدارة المنزل في بيت زوجها، ترى زوجها وأطفالها، وتطبخ وتدير كل الأمور. المرأة «اللاشيء» هي تلك المرأة الجالسة في بيتها، والتي لاتصلح إلا لإدارة البيت ورعاية الأطفال، لكنها وبسبب يسرها المالي تمتنع عن هذين العاملين، فتستخدم خادمة وغلاماً ومرضعة، يقومون بهذه الاعمال عنها. وبما أنها ليست قروية فهي لاتنتج في المزرعة، وبما أنها ليست بدوية فهي لا تشارك زوجها التفكير بدوابه، وبما أنها ليست أوربية فهي لاتعمل خارج البيت، ولأنها أمية فهي لاتفكر، ولا تقرأ الكتب ولا تكتب، ولأنها لم تتعلم، فهي لاتعرف أي فن وأي صنعة، وبسبب وجود المرضعة، فهي لاترضع أطفالها، كما أنها لاتشتري لوازم البيت لوجود الغلام، ولاتقوم بأعمال المنزل لوجود الخادمة، وتتخلى عن رعاية ابنها وتمريضه لوجود المرضعة، ولاتطبخ، فالطباخ موجود، ولاتفتح الباب لأن جهاز ال «F.F» الأتوماتيكي يغنيها عن ذلك. فأأي كائن هذا؟ ماذا تعمل هذه المخلوقة؟ وما دورها في هذا العالم؟ لاشيء!

ولكن هل يمكن أن توجد امرأة لا يمكن تصنيفها مع أي صنف من نساء الشرق والغرب قديمه وحديثه؟ لاهي امرأة مزرعة، ولا امرأة صحراء، لا امرأة وظيفة ودائرة، ولا امرأة معمل، لا امرأة مدرسة، ولا امرأة مستشفى، لا امرأة فن، ولا امرأة علم وكتاب وقلم، ولا امرأة بيت ورعاية أطفال، ولا هي حتى أكثر أنواع النساء إبتدالاً أي «امرأة اليوم»!، أجل إنها «امرأة ليلة الجمعة».

ياترى ما هو عمل نساء كهذه؟ هن «سيدات بيوت» وما هو شغلهن؟، الإستهلاك، والإستهلاك فقط.

كيف يقضين أوقاتهن؟ أوقاتهن؟! إنهن أكثر النساء انشغالاً، حتى أكثر من تلك المرأة القروية التي تقطر فناً وجهداً! ولكن ما هو عملهن على سبيل المثال؟ الغيبة، الحسد، التظاهر، الزينة، التنافس، كيل التهم، التكبر، الإدعاءات الفارغة الزهو، التذمر، الدلع، الغمز، والكذب.

ودائماً كانت هذه المرأة مشغولة، وكان بإمكانها بالاستفادة من أسلوب الحياة القديمة، أن تملأ هذا «الفراغ» الرهيب في حياتها، أين؟ كانت «حمامات النساء» سابقاً، قاعات مؤتمرات تشترك فيها كل النساء المحترمات والمخدرات، اللاتي جعلهن الترف، والبطالة، جميعاً على نفس المستوى ونفس الطبقة، وبنفس الحاجات، فيجلسن ساعات طويلة، معاً، يوماً كاملاً في الاسبوع، كي يبدأن بالحديث واحدة، واحدة، عن مغامراتهن طوال الأسبوع المنصرم، مغامراتهن التي ربما تكون من صنع خيالهن فقط، فيبدأ الزهو والغرور والتفاخر من أجل الهروب من العقد النفسية والإحساس بالنقص والفراغ الذي

يعانين منه! والعجيب أنهن جميعاً يعلمن بكذب حكايات بعضهن، ولكنهن ينصتن باعجاب وحماس. كي يضطرون الأخريات للإنصات إليهن بنفس الإعجاب عندما يأتي دورهن.

أما الآن فقد أغلقت هذه الحمامات الخاصة بنساء الطبقة المترفة، وجاءت الحضارة الحديثة بالحمامات المنزلية فحرمتهن من قاعات مؤتمراتهن، ولكنها فتحت بديلاً عنها، «اتحادات نسائية» متنوعة وباسماء مختلفة، فدعت النساء المحترمات العديمت الفائدة من بيوتهن إلى هذه الحمامات الباردة الخالية من الماء والبخار.

كما أن الإحتفالات الدينية وشبه الدينية القديمة قد بدأت تتوقف، ومجالس النذور والتعازي وحفلات ذبح العقيقة والأضحية، والولادة ونشاطات البحث عن عروس وإصطياد الأvhهار - التي كان بإمكان هذه المرأة فيها أن تخفى وحدتها وبطالتها تحت غطاء من الدين والتقليد والعادة، وتعطيها إحساساً بإيجابية وجودها، وشعوراً بالمسؤولية والأهمية، ومجالاً واسعاً لعرض الجمال والموضة والجواهر وإستعراض مفاخر عائلتها - قد بدأت ألوانها تبهت، فلا تشارك فيها الفتيات الأصغر سناً إلا بالاكراه، وللمجاملة، ويتخذن فيها وجهاً بارداً، مستغرباً، يهم بالفرار كل لحظة وفي أول فرصة.

إن بنت هذه المرأة - الخاصة بجيل وفصل آخر - تعيش في «عالم برزخ»، فعالم «السيدة الكبيرة» بالنسبة لها ليس إلا مجموعة من الحمامات الرسمية والمجسمة، والشعوذات القبيحة الخائفة!

فالجلسات والحلقات والموائد تدعوها للبقاء في عصر التخلف،

وهي متجهة بكل وجودها للكتاب والترجمة والرواية والآثار الأدبية المعاصرة والفنون الجديدة، وقد أحست شيئاً ما، بروح ثقافة العالم، واستنشقت جو الدراسة والعالم والتطور في المدرسة، أما خطب الولايم ومجالس التعزية النسائية - والتي غالباً ما يديرها مداحون وقراء أميون - فلا تستطيع تحملها وبالذات ذيولها وتبعاتها المتعبة.

تريد أن تهرب، ولكن أين؟ فالصوت الذي يصلها من الجهة المقابلة يأتيها من المراقص والحفلات المختلطة والحانات والنوادي الليلية والمقاهي الملوثة، تنتظرها فيها، مجموعة لا تراها إلا «كصيد جنسي مجاني».

ولكنها تريد أن تبقى وفيه لشخصيتها الإنسانية وإيمانها وأخلاقها، إلا أنها ترى ماتعرضه عليها أمها وأخلاقها وطباعها وخطيب حارتها سلسلة من «اللا» «لا تذهبي»، «لا تفعلي»، «لا تنظري»، «لا تقولي»، «لا تعرفي»، «لا تكتبي»، «لا ترغبي» و«لا تفهمي».

نلاحظ أن الأم تعيش في فراغ وعبث مترف، لا هدف لديها، لا مسؤولية، لا فلسفة لحياتها، ولا معنى لوجودها... لديها المال، ولكن ليس عندها أي إهتمام، ولا شيء يملؤ عليها فراغ عمرها، وليالي وأيام بيتها التي تتكرر، فتضطر للخروج من أجل الشراء، فتهرب من شعورها بالنقص بافراطها بالتزين والتحلي تحت عباءتها، وبالمشتريات الغالية التي تثيرها وتثير الآخرين معها.

ولكن هذه العجائب لا تثير إبتهاها، لأنها تتنفس في جو آخر، وهي كدمية ابتليت بين يدي طفلين أحمقين، لا يفهمان شيئاً، وكل واحد منهما يجرها نحوه بشدة، حتى تنفتت وتحول إلى قطع

متناثرة... ولاشئ...!

ونشاهد أنها تفتت وتفتت!

قلبها الآن معلقٌ بالسماء الملونة الرومانسية لخيالات الشباب ومظاهر الفتوة والحرية والحب، ووساوس الجنس، وأزمات الفتوة والشباب، وتصاوير دنيا جديدة - تسير خلف جدرانها، وتسترق النظر إليها أحياناً من نوافذ وثغرات ضيقة أما جسدها فأسير كذبابة بين خيوط عنكبوتية معقدة من أوامر ونواهي أمها وأبيها، تكرر عليها دائماً «لا، لا، لا» تشعر أنها وبجريرة كونها فتاة، ليست إلا «بضاعة مهربة خطيرة» يجب أن تخفى في ركن البيت تنتظر «المهرب الشرعي» كي يأتي إليها وينقلها إلى «بيت الحريم» الخاص به، وهناك لا تجد ساحة لتحركها إلا المسافة بين المطبخ والفراش، لأن الذي يهبها فلسفتها الوجودية ورسالتها الإنسانية لاشئ إلا بطن الرجل، وأسفل بطنه! أما الرجل فلا يشركها حتى في جلساته وعواطفه الدينيه، الدين، أيضاً، أصبح في هذا النظام، فكراً، مقسماً إلى قسمين رجالي ونسائي، فذكر المسائل الفقهية، والبكاء، والعويل واللطم والمائدة، هو دين النساء، والحوزة والمنبر والمدرسة والمكتبة والدورس والبحث والمحاضرات دين الرجال!

نداء الإستعمار:

كم هو واسع هذا المجال الذي يهيؤونه للإستعمار كي يقف فيه هاتفاً:

- لتحرري!

- ممن؟ ومن أي شيء؟

- لاتسألي من أي شيء، إنك تختنقين، لاشيء لديك، محرومة!

تحرري! تحرري من كل شيء!

والراقدة تحت أثقل الأحمال والأوزان، يوشك أن يختنق، لا يفكر
إلا بنفس الخلاص والنهوض من تحت هذا الضغط، لا بكيفية الخلاص
وكيفية النهوض؟

تحرر المرأة، ولكن، لا بالكتاب والعلم وإيجاد الثقافة والوعي
عندها، وإرتفاع مستوى الإدراك، والرؤية، بل بالمقص! بقص
الحجاب، وخلعه!

وتصبح المرأة مثقفة دفعة واحدة!

لقد باتت عُقد المرأة المسلمة - والشرقية - أكبر الحجج عند علماء
النفس وعلماء الاجتماع ولخدمة الإستعمار والإقتصاد الدولي، ومن
أجل أن يعرفوا المرأة بهذا الشكل:
«المرأة حيوان، يشتري»!

فيتحول التعريف الذي أدلى به أرسطو عن الانسان - الانسان
حيوان ناطق - في المرأة إلى «الانسان، حيوان يشتري». ولا تجيد
غير هذا شيئاً، لا شعور لديها، ولا دور ولا معنى، ولا غاية و...
لا حتى أية قيمة.

كتبت إحدى المجلات النسوية الشرقية أن إستهلاك وسائل
الزينة قد تضاعف من عام ١٩٥٦، ٥٠٠ مرة، وكذلك مؤسسات

التجميل.

هذا رقم كبير جداً، أمرٌ خارق! لم يسبق له مثيل طوال تاريخ البشرية. إن إستهلاك السلع الإقتصادية يرتفع ٨٪، ٩٪، ١٠٪ أو ٢٠٪، لا ٥٠٠٠!! إنه رقم خيالي، ويعني أنه إذا كان إستهلاك مسحوق التبييض وأحمر الشفاه والرموش الإصطناعية، في طهران مئة ألف تومان، يجب أن يكون قد أرتفع الى ٥٠ مليون تومان و إذا كان عشرة ملايين تومان فلا بد أن يكون قد أرتفع إلى خمسة مليارات!

وبالطبع إذا إستمر التصاعد مطرداً هكذا، من عام ١٩٦٦، إلى يومنا هذا،... لا، لا أستطيع التصور أبداً،

في كل مجتمع، عندما تتغير سلعة إستهلاكية تتبعها سلع أخرى، فمثلاً إذا تغيرت العباءة، وحلت محلها البدلة، فعليه، يجب أن يتغير النعال كي يصبح حذاءً، والقبعة المحلية كي تصبح قبعة أوربية، وفي البيت تحل الكنبه والكراسي مكان السجادة وتنهار البناية القديمة ويقام على حطامها بناءً جديد.

اذن، عندما يأتينا الأوربي ببضائع إستهلاكية جديدة، يفتح الباب، واسعاً لبضائع غيرها، تتبعها، وعندما تتغير نوعية الإستهلاك، يدل هذا على أن الإنسان - المستهلك - سيتغير أيضاً، لأن هنالك علاقة وثيقة وأساسية بين الإستهلاك الإقتصادي والمستهلك.

فمن أجل تغيير نوعية الإستهلاك، يجب في البداية، تدمير الأذواق و التقاليد التاريخية و الإجتماعية، و لهذا أحرقت الرأسمالية،

القيصرية، من أجل منديل!

والمرأة، في المجتمعات الإسلامية، يجب ألا تكون مستهلكة للسلع الواردة من أوروبا وأمريكا فحسب، بل عليها أن تؤثر تأثيراً جذرياً عميقاً على العلاقات الاجتماعية، على جيل اليوم والغد، على شكل المجتمع، على أخلاقه، قيمه وأديباته، فنه وعقيدته، وكل شيء.

إن إقتضاء العصر، الثقافة، الإمكانيات الاجتماعية، الإقتصاد الجديد، التحول في العلاقات الاجتماعية، الفكر الجديد وكل شيء، في المجتمع الإسلامي، يؤثر تلقائياً على تغيير الأشكال والأنماط والتقاليد، فتضطّر المرأة لتغيير روحها وقلبها وتقاليدها الظاهرية والباطنية، فظروف الماضي غير ممكنة وغير كافية لإمرأة اليوم!

الآن، وقد اقتضت الضرورة أن تتغير المرأة، في حين يعيش مفكرو ومثقفو المجتمع في غفلة، أليس من الأفضل أن أنشط أنا - الرأسمالي - واهيئ قواليبي، كي أدخلها فيها متى تحررت من قوالبها التقليدية القديمة، فأصنعها كيف أشاء، وعندها أمرها بتفكيك مجتمعتها بدلاً من قيامي أنا بذلك العمل وتكون حسب تعبير فرانكو المشهور «طابوراً خامساً» أي قوى أجنبية في الداخل!

ماذا يجب أن نفعل؟

ماذا علينا أن نفعل تجاه هذا التحول الفكري المفروض علينا؟ ومن الذي يستطيع أن يأخذ على عاتقه هذه المسؤولية العظيمة؟ إن التي تستطيع أن تقوم بعمل مفيد وتساهم في الإنقاذ

ليست هي المرأة التقليدية الراقدة في القوالب القديمة بهدوء وإنقياد، ولا هي المرأة الدمية الحديثة، التي اشبعت وغذيت في قوالب الأعداء، بل تلك المرأة التي تكسر التقاليد القديمة المتحجرة - التي تحكم على روح المجتمع وفكره وسلوكه باسم الدين ولكنها في الواقع ليست إلا تقاليد قومية ورجعية - وتستطيع أن تنتخب خصائص إنسانية جديدة، وهي تلك المرأة التي لا ترويهها تلقينات القدامى، كنصائح وراثية ميتة، ولا تخدعها الشعارات المستوردة المخادعة، وترى بوضوح خلف اقنعة الحرية، وجوهاً كريهة، لا إنسانية ولا أخلاقية تعمل ضد استقلال الإنسان ومعنوياته وحرمة المرأة.

إمرأة كهذه تعرف من أين يصب علينا البلاء ويفرض علينا كل هذا العناء؟ وأية أيدٍ تفعل ذلك؟ وأي سلع أرسلوا إلى الأسواق؟ دمي نظيفة وأنيقة و «لائقة»؟ وواضح لياقتها لأي شيء بلا إحساس، بلا إدراك، ولا إهتمام، ولا فهم، ولا مسؤولية، وحتى بلا أي عاطفة إنسانية، ووعي بشري، واضحة المقاييس التي يعرضونها على المرأة عندنا، وواضح أيضاً، لأي سبب؟

وقضية «كيف يجب أن نصبح» تهم النساء اللواتي، لا يرغبن أن يبقين «كذلك» ولا يردن أن يصبحن «هكذا» ولا يستطعن، الإستسلام لكل ما كان ولكل ماهو موجود، بدون إرادة ولا إختيار. إنهن ينشدن قدوة.

من؟

فاطمة.

فاطمة، هي رابع بنت لنبي الإسلام «ص» وصغراهن^(١)، إنها آخر بنت لأسرة لم يبق لها أي صبي، وأيضاً في مجتمع يرى قيمة كل أب وكل عائلة بالمولود «الذكر».

لقد كان النظام القبلي العربي قد تجاوز عصر «سلطة الأم» وكان يعيش في أيام الجاهلية القريبة على «البعثة النبوية» في عصر «سلطة الأب» وكانت «الآلهة» قد أصبحت ذكوراً. والأصنام والملائكة اناثاً^(٢) (أي بنات الاله الأكبر - الله) وحكومة القبيلة، يتولاها (الشيخ). وحكومة العوائل والأقارب، (الجد)، وغالباً ما كان الدين عندهم، عادة آبائهم، وتقاليدهم، ومعيار صحة وسقم إيمانهم وعقيدتهم هم، أبائهم.

لقد ثار كل الأنبياء الذين ذكروا في القرآن الكريم على هذا الدين «دين الآباء والأجداد»، فوقف كل منهم، بوجه «الثورة ضد عبادة الأجداد» و «التدين بأساطير الأولين»، حيث كان هذا الوقوف «رجعة تقليدية، وموروثة» تعتمد على أساس «عبادة الآباء» وكانت ثورة الأنبياء هي «بعثة ثورية، واعية وفكرية» على أساس

(١) بالترتيب: زينب ورقية (ذات الهجرتين، إلى الحبشة والمدينة) وأم كلثوم.

(٢) واتخذوا من الملائكة إناثاً... (الإسراء ٤٠)، «ثم يسمون أصنامهم بأسماء إناث زاعمين أنها بنات الله».

علاوة على هذا، كانت الحياة القبلية، بالذات في الصحراء القاسية، والحياة الصعبة، والعلاقات القبلية العدوانية، التي كانت مبنية على أساس «الدفاع والهجوم» والعهود والمواثيق، حياة كهذه، كانت تهب «الذكر» موقعاً متميزاً، كركيزة قتالية واجتماعية، تعتمد على «الفائدة والحاجة»، ولكن وبناءً على قانون اجتماعي كلي، تتحول «المنفعة» إلى «قيمة»، فتصبح نفس ميزة «الذكورة» فضلاً له «قيماً» معنوية وشرفاً اجتماعياً وأخلاقياً وإنسانياً، ولنفس هذا السبب، وبنفس النسبة، «تحتقر» نفس «الأنوثة» ويتحول فيها «الضعف» إلى «ذلة» و «الذلة» إلى «أسر» و «الأسر» يضعف قيمتها الإنسانية فتصبح مخلوقة «مملوكة» للرجل، عاراً على الأب، ألعوبة الشبق الجنسي للرجل. «ماعزاً»، «أو عبدة بيت الرجل»! وأخيراً، كائناً، يخشى «الرجل الغيور» دائماً أن «بأتيه بعار» فيقوم لأجل الإستراحة من شره، بوثده حياً منذ الطفولة، كي لا يلوث شرف أبيه وجده وأخيه العائلي! وكما يقول الشاعر العربي.

لكل أب بنت يرجى بقاؤها ثلاثة أصهار إذا ذكر الصهرُ
فبيت يغطيها، وبعل يصونها وقبر يواريها، وخيرهم القبرُ
ويبدو أن هذا التعبير، الذي يسمى «القبر» صهراً، متداول عند

(١) تتكرر هذه القاعدة في بعثة الأنبياء كثيراً في القرآن الكريم، أي التضاد بين «عبادة الماضي الأبوي» و «عبادة الله الواعية». «وإذا قيل لهم إتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون». «البقرة، ٧٠».

كثير من «الرجال الغيورين!» وكل أخ أو أب، يغار على شرف عائلته ويفهم «العار والشرف»!، ينتظر «الموت» حتى يأتي «خاطباً» لأخته أو ابنته، كي يضع يد العروس «ييد» هذا «العريس» الرهيب، منتخِباً لها «أفضل الأزواج» حيث يذكر شاعر آخر، أحب أصهاره إليه قائلاً:

أحب أصهاري إليّ «القبر»!
لأن القانون الذي كان شائعاً آنذاك هو:
«دفن البنات من المكرمات».

ولهذا يذكر القرآن الكريم، رجالاً كهؤلاء بلهجة لوم وتأنيب: «وإذا بشر أحدهم. بالأنثى، ظل وجهه مسوداً وهو كظيم».

لقد اكتشفت الدكتور عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ» الكاتبة الإسلامية المعاصرة^(١) نقطة مهمة في القرآن الكريم، وهي أن لهذا التقليد

(١) الأستاذة في جامعة «عين شمس»، والكاتبة التي وهبتها «الحقيقة» شجاعة جعلتها تتحرر من التزمّت الأحمق والتأثير المخادع، ووهبها «العلم» قدرة أمكنتها من التخلص من قيود التلقين الفرقي والتربية البيئية المحيطة بها، فتلافت قصور وإهمال الشيعة، بالرغم من كونها سنية، في إحياء ما ندعي إحياء بالبكاء والنحيب، والكذب وإتهام الآخرين، وما نسّميه زوراً إظهار المحبة لآل البيت، وما هو في الحقيقة ليس إلا «الفرقة وخداع الناس وتحريك التزمّت والعصبية الفرقة والطائفية بين المسلمين». فخصّت قلمها المتميز بالروح العلمية وأسلوب التحقيق والسلاسة وفي نفس الوقت بالدقة الفكرية والرقّة العاطفية، خصته بالتعريف بآل النبي (ص)، ومن آثارها: «أم النبي»، «نساء النبي»، «بنات النبي»

أساساً جذوراً إقتصادية وكان الخوف من الفقر هو الذي روج لها في المجتمع الجاهلي العربي، وهي تؤيد هذه الفكرة التي يعتقد بها أغلبية علماء الاجتماع المعاصرين، القائلة أن العقائد والعواطف والحساسيات الأخلاقية والمعنوية وبحث «القيم» المعنوية في قضية «المرأة والرجل» و«الصبي أو الصبية» من قبيل العار والحمية والغيرة والأفضلية والشرف وأرجحية الذكر، وذلة وإستكانة وضعف الأنثى، و وأد البنات خوفاً من مجيئهن بالعار في المستقبل، أو خوفاً من أسرهن في الحروب والغزوات، أو كما يقول - قيس بن عاصم - خشية زواجهن بأشخاص عديمي الكفاءة كلها أمور ثانوية والأصل هو العامل الإقتصادي، وكما أشرت سابقاً إلى أنه في النظام القبلي وبسبب فظاظة الحياة والإنتاج (بالأخص في صحراء الجزيرة العربية) والعداء الدائم بين القبائل، المحتاج بشدة إلى القوة وقدرة العضلات، يتحول «الصبي» تلقائياً إلى عامل إقتصادي ودفاعي وإجتماعي ضروري للعائلة أو القبيلة، وهو الذي يأتي بالخبز، والبنات تأكل فقط، طبعي، ان إختلاف الجنس يصبح ملاكاً إقتصادياً طبقياً، فيصنع الرجل الطبقة الحاكمة والمالكة وتصنع المرأة الطبقة المحكومة والمملوكة،

«الزهراء بنت النبي»، «سكينة بنت الحسين» و«زينب بطلة كربلاء».

تعرفت عليها صيف هذا العام صدفةً، فقالت: «لقد جعلني حبي لآل النبي، هذا الحب الذي نذرت له كل حياتي عملي وفكري، أتمنى هذه الأمنية بقوة، وتزداد يوماً بعد آخر وهي أن أتعرف على إيران وأتعلم اللغة الفارسية... كي أستفيد أكثر من بحوث وآثار علمائكم حول هذه الوجوه «الزهراء، زينب، وسكينة بنت الإمام الحسين (ع) وخديجة وفاطمة أم علي (ع)». بالطبع لم أجد لها جواباً.

وتصبح العلاقة بين المرأة والرجل علاقة والٍ ورعية، فتخلق هاتان القاعدتان الاقتصاديتان لكلا هذين «الجنسين» «قيمتين» إنسانيتين و معنويتين مختلفتين، كما تحمل الأملاك الاقتصادية في عائلة ما، بعد فترة معها، الشرف الوراثي والعرقى والقيم الأخلاقية والذاتية والفضائل والكرامات، على عكس الفقر الذي يذرو كل هذه الأشياء في الهواء! لهذا يصبح إنجاب البنات عاراً، وسبباً في الشعور بالحرَج وفي خشية زواجها من رجل ليس كفواً للعائلة، وفي رأيي، فإن هذا الخوف - والذي هو ظاهرة أخلاقية - ناشئ عن عامل إقتصادي وصريح، وهو حفظ الأملاك واستمرار تركز الثروة في الجيل القادم للعائلة، ولهذا السبب كان الصبي الأكبر هو الوارث الوحيد لأبيه في عصر «سلطة الأب»، وارث كل شئ، وحتى نساء أبيه، ومن ضمنهن أمه. ولنفس السبب حرمت الفتاة من الإرث، كي لا تقسم ثروة الأب بعد وفاته، ولا تتبعثر مع بناته في عوائل أخرى، خارج عائلته، وهكذا نرى بعض عوائل الأشراف المحافظة القديمة تصر على الزواج في داخل العائلة وبين أبناء وبنات العم.

فلذلك كثرت التبريرات والتعليلات التي طرحها المؤرخون القدامى والمحققون المعاصرون لتاريخ الأديان، في باب «وَأَدِ البنات» في الجاهلية، من قبيل الخوف من العار وخشية التزوج بغير الكفء، أو حسب قول بعض المؤرخين. ذبحهن قرايين للآلهة.

ولكن القرآن، يقول كلمته، بصراحة ووضوح:
إن السبب هو الخوف من الفقر، أي العامل الإقتصادي، وبقية

الأحاديث ليست إلا كلاماً فارغاً، في رأي ان هذا التصريح الوارد في القرآن الكريم، لم يأت من أجل فضح وإحراج الذين يمدون بناتهم ويررون ذلك بقضايا الشرف والعفة والعرض والغيرة، فيضفون على هذه القسوة الناشئة عن الخسة والدناءة والخوف من الفقر وعبادة المال والحاكية عن الجبن والضعف وجهاً أخلاقياً غيوراً «ولاتقتلوا أولادكم من إملاق، نحن نرزقكم وإياهم» (الانعام ١٥١)

«ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطأ كبيراً» (الاسراء ٣١).

ولكن، وفي نفس الوقت، وكما ذكرت سابقاً، فإن القرآن الكريم ينشد من وراء تكراره «نحن نرزقكم وإياهم» «فلا تقتلوهم خشية أملاق» غايتين، أولهما بيان العلة البعيدة لهذه الفاجعة وكشفها للناس، والثانية هي إنكار ونفي الإدعاءات الكاذبة في تبرير هذا العمل، من قبيل الغيرة، والحمية، والحفاظ على الشرف، قائلاً بصراحة ان هذا العمل لا يمت بأي صلة للشرف والأخلاق بل هو إقتصادي ١٠٠٪، ناشئ من الطمع والخوف. وإلا فإن الرأي العام لم يكن يعرف شيئاً عن هذه الحقيقة إلا عند البعض وبالذات من الطبقة الفقيرة، فكان الجميع يعتبرها مفخرةً وشرفاً ودليلاً على الغيرة والشهامة، إذ أن ضمير المجتمع القبلي العربي، يهب «الذكر» كل المزاي والفضائل الإنسانية، ويحسب «الأنثى» فاقدة لكل فضل وأصالة إنسانية «فالولد» ليس عامل كسب وثروة فقط أو ساعداً للأب، وحامي القبيلة في الغزوات، بل وارث كل مفاخر الآباء ولأجداد وحامل كل القيم

العرقية والاستمرار الأكيد لوجود العائلة الإجتماعي والمعنوي وحافظ الاسم واللقب بعد موت الأب، أما البنت فهي «مُعالة»، أثاث حي في بيت الأب، تنصهر شخصيتها بعد الزواج في عائلة غريبة، أثاث بيت غريب، لا تستطيع فيه حتى الإحتفاظ بقلبها، أبناءها يخلصون عائلة أخرى، لهذا كان «الولد» قدرة مادية، ورأس مال اقتصادياً، وساعداً إجتماعياً وعوناً مقاتلاً لأبيه، وأيضاً، زينة حياته، وإحترامه، وشهرته، وإعتباره الإجتماعي، ومقامه المعنوي، وظهير أصالة الأسرة، وضامن بقائها وإقتدارها في المستقبل، أما «البنت» فلا شيء!، «عورة» ضعيفة إلى درجة يجب دائماً أن يدافع عنها، ومعيقاً للمحاربين في القتال، وفي الدفاع، هنالك دائماً هاجس وقوعها أسيرة بيد العدو، وربما تسببها لفضيحة أو وصمة عار تبقى دائماً على جبين شباب القبيلة، وبعد كل هذا التعب والمصارف والخوف والهواجس، تصبح صيداً سهلاً لشخص آخر، ومزرعة يزرع فيها الغريب ويحصد!

فلهذا كانوا يفضلون - بطبيعة الحال - قتلها متى ما ولدت، وزفافها للصهر الصامت الرهيب. القبر!

والرجل الذي لا «صبي» عنده. أبتى، عقيم، بلا إمتداد، ولا إستمرار و«الكوثر» تعني الإمتداد، والكثرة والخير والبركة، وكثرة الذرية التي بشر بها الله جل وعلا نبيه الحبيب، رداً على نعت الكفار له بالأبتى.

في جو كهذا وعصر كهذا، كان التقدير وراء ستار الغيب، يعمل حثيثاً، من أجل خلط كل شيء، وانهييار كل شيء، وخفية، يخطط

لشجرة تقتلع الجذور، وعاصفة تثير كل شئ في هذا المستنقع الراكد العفن. وفجأة، كشف عن خطة رائعة، ولكن صعبة، انتخب لتنفيذها وجهان، أب وإبنته.

على محمد أن يتحمل العبء الأكبر فيها(الأب)، وعلى فاطمة أن تبرز في شخصيتها خلق قيم ثورية جديدة(البنت).
كيف؟

قريش، أكبر قبيلة عربية، حافلة بالمفاخر الدينية والدنيوية ووجه شرف القوم وعزتهم، عهدت بكل مفاخرها لأسرتين، بني أمية وبني هاشم، كان بنو أمية أكثر ثروة، ولكن بني هاشم كانوا أكثر مقاماً واحتراماً، وعزة، إذ أن سدانة الكعبة كانت من نصيب هذه العائلة، وشيخ قريش عبدالمطلب، منهم، أما وقد مات عبدالمطلب، فإن أبا طالب لا يملك نفس نفوذ أبيه وقدرته، خسر في التجارة أيضاً، فقسم أولاده بين أقاربه لشدة فقره.

كانت هنالك منافسة عنيفة قائمة بين هاتين الأسرتين، وكان بنو أمية يحاولون جهدهم، لإمتلاك كل شيء، كل مفاخر ومناصب قريش، وكذلك، يهزمون بني هاشم معنوياً ونفسياً، أما الأسرة الوحيدة من بني هاشم التي كانت قد بدأ يحيطها اعتبار و مكانة جديدة، فهي عائلة محمد، حفيد عبد المطلب، الذي قوي مركزه الاجتماعي بزواجه من خديجة سيدة مكة الشهيرة والثرية.

كما أن رزانه شخصيته وقوتها وأمانته، والمكانة التي حصل عليها محمد بين الناس، وبالأخص بين بني هاشم ورجال قريش، لفتت

الأنظار إليه وجعلتهم يرون به مرآة مفاخر عبدمناف، وحارس عزة بني هاشم، وبالأخص محيي إعتبار عبدالمطلب، فحمزة شاب بطولي، متهور، وأبولهب رجل لقيمة له، والعباس ثري بلا شخصية، وأبوطالب رجل ذو شخصية ولكنه فقير، ومحمد هو الوحيد الذي كان ذا شخصية نافذة هو وزوجته، مع شبابه، وصاحب ثروة لا يستهان بها، فعلى شجرة بني هاشم أن تورق وتتفرع من هذه الأسرة، وتلقي بظلالها على كل مكة. الكل ينتظر أن يولد في هذا البيت «فتية أشاوس» يهبون آل عبدالمطلب. وعائلة محمد، القدرة والإعتبار، والقوة.

وكان المولود الأول بنتاً! زينب.

ولكن العائلة تنتظر صبياً.

المولود الثاني بنت أيضاً: رقية.

اشتدت لهفة الإنتظار وازدادت الحاجة.

الثالث: أم كلثوم.

وفجأة صبيان، القاسم وعبدالله، كانت تلك بشارة كبيرة، ولكنهما أفلا قبل أن يلتصع نجمهما في سماء العائلة، ولم يبق في هذه الأسرة إلا ثلاثة أطفال، كلهم بنات.

كبرت الأم، وتخطى عمرها الستين، والأب، وإن كان يعتز ببناته، ولكنه يشارك قومه عواطفهم وحاجتهم وإنتظارهم.

هل ستأتي خديجة التي قارب عمرها على النهاية، بطفل؟ كان الأمل ضعيفاً جداً أجل! إلتهب الحماس والأمل في هذا البيت، وتأجج إلى آخر حد، هذه آخر فرصة لعائلة عبدالمطلب، وآخر أمل، ولكن...

إنها بنت، مرة أخرى!

سميت البنت «فاطمة».

لانتقل الأمل والحماس، الى بني أمية وانتشرت الهمسات
والشماتة والاستهزاء في وسط العدو المتربص. و سُمى محمد
«بالأبتر»، الرجل الذي كان آخر حلقة في سلسلة أسرته، يملك عائلة
«بأربع بنات» فقط!

وعجباً للقدر، كيف يلعب لعبة رائعة وجميلة، وعجيبة، تمضي
الحياة، فيغرق محمد في السيل الذي أثارته رسالته ويصبح نبياً،
ومحرراً لمكة، وتصبح قريش كلها أسيرة بيده فيحررها، ويسمي الذين
يحررهم «بالطلقاء»، وتترضح كل القبائل لطاعته، فتتمد ظلاله الوارفة
على كل شبه الجزيرة، ويخدش سيفه وجوه كل إمبراطوريات الدنيا،
ويطير اسمه في الأرض والسماء حاملاً القدرة بيد، وباليدين الأخرى
النبوة، حافلة بالامجاد والنصر الذي ما كان يخطر على بال أحد من
بني أمية أو بني هاشم. والآن، ذلك هو محمد، نبي، في المدينة. في
ذروة الجلال والقدرة والعظمة التي يمكن لإنسان أن يتصورها. شجرة،
نبتت، لامن عبدمناف وهاشم وعبدالمطلب، بل من النور. في أعماق
الجبل، في حراء، وكل الصحراء، ماذا أقول؟ بل كل آفاق الدنيا...!
وحتى كل سعة الزمن، تحتوي كل المستقبل حتى نهاية التاريخ،
وستحتويه وهذا الرجل، لديه أربع بنات.

ولكن لا، فثلاث منهن توفين قبل وفاته.

والآن، لابنت عنده إلا واحدة، وهي صفراهن.

وارثة كل مفاخر أسرتها، وريثة نبل جديد لا ينشأ عن الأرض والدم والمال. بل ظاهرة وحي، صنيع الإيمان والجهاد والثورة والفكر والإنسانية و...، نسيج جميل، من كل قيم الروح المتعالية. ومحمد لم يرتبط بعبد المطلب وعبد مناف، قريش والعرب، فقط، بل كل تاريخ البشر ووارث إبراهيم ونوح وموسى وعيسى، وفاطمة، هي وارثة الوحيد. «لنا أعطيناك الكوثر، فصلّ لربك وانحر، إن شائتك هو الأثر»

عدوك، أبتري، بما عنده من أولاد عشرة. ونحن أعطيناك الكوثر، فاطمة، هكذا تظهر «الثورة» في صميم ضمير الزمن!

الآن، تصبح «بنت» ملاك مبادئ أبيها، وريثة كل مفاخر أسرتها، وإمتداداً لسلسلة كبيرة، تبدأ من آدم وتمر على كل قادة الحرية واليقظة في تاريخ البشرية فتصل إلى إبراهيم العظيم، وتلحق بها موسى وعيسى، متجهه نحو محمد(ص) كي تنتهي بآخر حلقة في «سلسلة العدل الإلهي» هذه، سلسلة الحقيقة الصحيحة: فاطمة.

آخر بنت لعائلة طالما انتظرت المولود الذكر.

ومحمد يعرف ماذا تفعل به يد القدر.

وفاطمة تعرف من تكون!

أجل، هكذا، يثرون، في هذا الدين.

في هذا الدين، هكذا يحررون المرأة.

أفليس هو دين إبراهيم وهم وارثوه؟

ليس من حق أحد أن يدفن أي جثة في المسجد، و«المسجد الحرام» هو أعظم مساجد العالم. والكعبة. هذا البيت، الذي هو حرم الله، وحريمه، قبلة كل الساجدين البيت الذي بني بأمر إبراهيم الكبير وعلى يده، والبيت الذي كان فخر نبي الإسلام و«رسالته» هي تطهير وتحرير هذا «البيت الحر» والطواف حوله والسجود نحوه. كل الأنبياء العظام في التاريخ كانوا خدمة هذا البيت، ولكن، لم يكن من حق أي منهم أن يدفن هناك.

بناه إبراهيم ولم يدفن فيه، وحرره محمد ولم يدفن فيه. وبقي هذا الشرف، حتى تمتع به شخص واحد، في كل تاريخ البشرية، لقد إختار رب الإسلام شخصاً من النوع البشري، كي يدفن في بيته الخاص، في الكعبة، من؟ امرأة، جارية، هاجر. إن الله يأمر إبراهيم أن يني أكبر معبد للإنسان. ابن بيتي إلى جانب بيت هذه المرأة. وعلى البشر دائماً، أن يطوفوا حول بيت هاجر.

فرب إبراهيم، يختار، جنديه المجهول من بين هذه الأمة الكبيرة، امرأة، أم، وجارية. أي الكائن المحروم من أي مقام في الأنظمة البشرية. أجل، هكذا يثورون في هذا الدين. في هذا الدين، هكذا يحررون المرأة. فهذا تكريم لمنزلة المرأة.

والآن، مرة أخرى، اختار رب إبراهيم، فاطمة.

تصبح فاطمة «الأنثى» وارثة لكل مفاخر أهلها، وصاحبة مبادئ أسلافها، وإمتداد شجرة نسبها، وإعتبار أبيها، بديلاً عن «الذكر». في المجتمع الذي لم يكن يرى غسل عار البنت إلا بوأدها حياة، وأفضل الأصهار الذي يتمناه كل أب هو «القبر». كان محمد يعلم ماذا تفعل به يد القدر. وفاطمة تعرف من تكون.

لهذا، وقف التاريخ مدهوشاً أمام تعامل محمد مع إبنته الصغيرة، وراكعاً، أمام مديحه غير العادي لها.

بيت محمد وبيت فاطمة متجاوران. وفاطمة هي الشخص الوحيد مع زوجها علي التي تشارك النبي السكن في مسجده. تفصل بين هذين البيتين المتجاورين مسافة مترين، ونافدتان متقابلتان، كل صباح، يفتح الأب نافذته ويحيي إبنته الصغيرة.

كلما سافر طرق باب فاطمة وودعها، فتكون هي دائماً آخر من يودع، وكلما عاد من سفر، كان بيت فاطمة هو أول بيت يزوره، يطرق بابها ويسأل عن صحتها.

حيث يُنقل في بعض النصوص التاريخية أن «النبي (ص)» كان يقبل وجه فاطمة ويديها. معاملة كهذه، تعني شيئاً أكثر من التدليل والحب الأبوي الذي يمكن أن يفيض به قلب أب على إبنته. «أب يقبل يد إبنته». و«إبنته الصغيرة». هذا التصرف يعتبر ضربة ثورية إنهالت على العوائل والعلاقات غير الإنسانية للبيئة هناك. «نبي الإسلام يقبل يد فاطمة».

هذا التصرف يبين بوضوح لأعين كبار الصحابة، وسياسي المسلمين وعامتهم عظمة فاطمة الكبيرة. وأخيراً يعلم هذا التصرف كل الناس، والناس دائماً، كيف يتحررون من العادات والأوهام التاريخية والتقليدية، ويعلم الرجل أن ينزل من عرش جبروته وتجبره اللفظ، وتفرغه أمام المرأة، مشيراً إلى المرأة أن ترتفع عن ذلتها وحقارتها القديمة والجديدة في كونها ألعوبة في الحياة، إلى قمة الجلال والعظمة والعفة الإنسانية!

وهكذا، كان النبي يكبر من شأن فاطمة، لا علامة على حبه الأبوي لها فقط، بل «كواجب»، «كمهمة خطيرة»، قائلاً:

- أفضل نساء العالم أربع: مريم، آسية، خديجة، وفاطمة (ع).

- إن الله يرضى لرضاك، ويغضب لغضبك.

- رضا فاطمة من رضاي، وغضبها من غضبي، من أحب ابنتي

فاطمة فقد أحبني ومن أرضاها فقد أرضاني، ومن أغضبها فقد أغضبني.

- فاطمة بضعة مني، من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد

آذى الله... لماذا كل هذا التكرار؟ لماذا يصر النبي (ص) على مدح ابنته

الصغيرة بهذا الشكل؟ ولماذا يصر على الثناء عليها أمام الناس،

وإطلاعهم على حبه الخاص لها؟ وأخيراً لماذا يؤكد دائماً على

«غضبها» و«رضاها» ويكرر بهذه الصورة كلمة «أذيتها»؟ إن جواب

«لماذا» هذه. وإن كان خطراً وحاداً جداً، إلا أنه واضح، فتد أجاب

التاريخ على كل شيء، والمستقبل، عمر فاطمة القصير بعد وفاة أبيها

كشف لنا عن سر قلق أبيها.

أم أبيها.

إن التاريخ، دائماً، لا يقصر حديثه على «العظماء» فقط بل حتى أنه يهتم «بكبار السن» فقط، وينسى «الأطفال» دوماً.

كانت فاطمة أصغر أطفال البيت، وإنقضت طفولتها في خضم العواصف والحن، والمؤرخون يختلفون في تحديد سنة ولادتها، حيث يتفق الطبري وابن إسحق، وابن هشام على أنها كانت في السنة الخامسة قبل البعثة، بينما يقول المسعودي في مروج الذهب أنها كانت في السنة الخامسة بعد البعثة، أما اليعقوبي فلا يذكر التاريخ بدقة، بل يقول إنها كانت «بعد نزول الوحي»، لهذا كان إختلاف الروايات سبباً في إتخاذ أهل السنة الخامسة بعد البعثة تاريخاً لذلك.

ولكنني أترك هذه البحوث للمحققين، فأنا تهمني نفس فاطمة، سواء ولدت قبل البعثة أم بعدها.

من المؤكد أن فاطمة بقيت وحيدة في مكة، مات أخوها في الصغر، وزينب، أكبر أخواتها التي كانت بمثابة أم صغيرة لها، أنتقلت إلى بيت أبي العاص فذاقت فاطمة مرارة غيابها، ثم جاء دور رقية وأم كلثوم حيث تزوجتا إبني أبي لهب، وبقيت فاطمة لوحدها، هذا إذا قبلنا بأنها ولدت في السنة الخامسة قبل البعثة، وفي الحالة الثانية، يجب أن تكون أساساً، قد ولدت وحيدة، على أية حال اتفقت بداية عمرها مع بداية الرسالة الخطيرة وإشتداد القتال، والصعاب والآلام

التي خيمنت على بيت النبي(ص)، يحمل الأب على عاتقه رسالة إيقاظ الناس وتوعيتهم، ويتحمل عداوتهم، والأم مريضة تتابع زوجها المحبوب، فكانت فاطمة ومنذ نعومة أظفارها، وفي أول تجارب طفولتها، تعرف طعم الألم والحزن وخشونة الحياة، وبما أنها كانت صغيرة جداً، فقد كان بإمكانها الذهاب بحرية خارج البيت، مستفيدة بذلك من هذا الإمكان، في مرافقة أبيها، وهي تعلم أنه لا وقت لديه ولافرصة، كي يأخذ بيدها بنعومة ويلاعبها في أزقة المدينة وأسواقها. بل يذهب دائماً لوحده، سابحاً بين أمواج العداوة والخصومة في المدينة، يلاحقه الخطر أينما ذهب، وكانت الصغيرة التي تعرف ماضيه ومصيره لا تفارق يده.

وكم مرة شاهدته يقف بالناس يتحدث فيهم كأب رؤوف رحيم، يدعوهم برقة وعطف، وهم يعدونه عنهم بعنف ولا يجيبونه إلا بالسباب والشتيمة فيعود وحيداً فريداً، ولكن هادئاً وصبوراً، راعياً جمعاً آخر ومسترسلاً في حديثه، وفي النهاية، يرجع كبقية الآباء إلى بيته، ليرتاح قليلاً، ثم يعاود عمله مرة أخرى.

يذكر التاريخ، أن فاطمة كانت تقف قريبة من أبيها، عندما إنهالوا عليه يوماً بالضرب والشتم في المسجد الحرام، وقد عادت معه بعد ذلك إلى البيت.

وكذلك، في اليوم الذي كان فيه النبي ساجداً، وجاء أحد أعدائه ورمى رأسه بكرشه شاة، أوصلت فاطمة نفسها فجأة إلى أبيها وأزاحتها، ثم قامت بمسح وجهه وشعره بيديها الصغيرتين الحميمتين حتى

عادا معاً إلى البيت.

وعندما شاهد الناس، هذه البنت الصغيرة النحيفة، كيف تقف إلى جانب أبيها البطل الوحيد، وكيف يمكن لطفلٍ ما أن يرعى أباه، ويلطفه ويواسيه في المصاعب بكل وجوده، بكلمات وتصرفات بريئة حنونة، عندما شاهدوا كل هذه الروعة، اطلقوا عليها إسم: أم أبيها.

بدأت السنين السوداء والعجاف، سنين الجوع والعطش، في شعب أبي طالب، سجن فيها كل أفراد بني هاشم وعبدالمطلب، نساءً ورجالاً، كباراً وصغاراً، كانت المعاهدة قد كتبت بيد أبي جهل مثلاً لكل أشرف قريش،. وعلقت على جدار الكعبة.

على الجميع ألا يتصلوا ببني هاشم وبني عبدالمطلب.
إقطعوا كل علاقاتكم بهم، لا تشتروا شيئاً منهم، ولا تبيعوهم شيئاً، لا تتزوجوا منهم، ولا تزوجوهم و...

يجب على بني هاشم أن يبقوا في هذا السجن الصخري، حتى يسلمهم الفقر والجوع وخشونة الحياة، إما إلى الأصنام أو إلى الموت. عليهم جميعاً أن يتحملوا هذا العذاب، سواء أولئك «الصابئون» أو أولئك الذين لم يميلوا بعد إلى الدين الجديد ولكنهم «أحرار»، وبالرغم من اختلافهم الفكري مع محمد ولكنهم يدافعون عنه أمام جبهة أعدائه الموحدة، فاذا ما كانوا يعرفون محمداً ويؤمنون بطهارته وعظمته واعتقاده بما يقول، وعبادته للحقيقة، وإخلاصه، وآماله من أجل إنقاذ الناس. وهم أكرم بكثير من الواعين الأذلاء، الجبناء، أمثال

علي بن أمية؟ الذين كانوا يعارضون التخلف والرجعية، وتوصلوا إلى ايدولوجية متطورة وثورية جديدة، وحلّلوا عبثية أوهم قريش وسوء النظام الإجتماعي الأشرافي والطبقي للعرب، بادراك وعي إسلامي، ولكنهم في نفس الوقت بقوا إلى جانب أبي جهل وأبي لهب، وتفرجوا على تعذيب أصحابهم في الرأي كبلال وعمار وياسر وسمية... ولم يعترضوا علي أي شيء، تاركين أخوتهم في العقيدة والفكر يواجهون الحصار وحدهم، وانشغلوا هم في المدينة والسوق والبيت بحياتهم، وحتى أنهم كانوا ينسقون مع أعوان الكفر والجريمة، وأحياناً يتعاونون! كل هذا من أجل ألا يخسروا ثروتهم وشرفهم العائلي ومركزهم الإجتماعي وسلامتهم البدنية، وأمن حياتهم، وقد تركوا بتصرفهم هذا سنة وفتحوا طريقة ومسلكاً، كان أتباعه فيما بعد أكثر من أتباع النبي وعلي وأبي ذر وعمار وفاطمة والحسين وزينب وكل المجاهدين والمهاجرين والأنصار في الإسلام!

فكانوا أول المسلمين الذين التزموا «التقية» «كقانون مفيد» إلى آخر يوم في حياتهم حتى بعد أن أعلن النبي (ص) إنتهاء فترة هذا القانون.

ويا له من كائن عجيب هذا الانسان!

فعندما تشتعل نار إيمان جديدة في الأرواح، وتبدأ حركة خطيرة في المجتمع، وفي محك الاختيار والتجربة حيث يضطر كل شخص لإمتحان نفسه وتعيين واجبه نحوها بقطعية، عندها تتضح عجائب هذا الانسان الخاصة به، سموه وإنحطاطه، وقدرته وذلته الكامنة في أعماقه.

وفي هذه المحاصرة الرهيبة، التي خيم الصمت والصبر فيها على ثلاث سنوات من الجوع والوحدة والمصاعب والحيرة، وُجد أشخاصٌ لم يكونوا مسلمين ولكنهم شاركوا في هذه الثورة الإلهية الإنسانية العظيمة، وانضموا إلى صفوف محمد وعلي وأصحابهما المهاجرين في أكثر لحظات تاريخ الإسلام حسماً. في حين شوهدت في مدينة الشراب والراحة والسرور، التي ظللتها غيوم الجهل والرجعية، واللامسؤولية، وجوه، مسلمة، ترعى «بأذيال ملوثة» و«أيدي قذرة»^(١)

(١) هنالك كتاب لسارتر (les mains sales) حول مثقفين من هذا القبيل. وأيضاً جملة لدستوفسكي يقول فيها (يكررها سارتر باعجاب وحماس): متى ما أريق دم في أي بقعة من الأرض فإن أيدي كل الناس في العالم ملطخة به. بينما نرى هذا النوع من الفكر الاجتماعي والحقوقى عن الجريمة والمجتمع في ثقافتنا الإسلامية ليس «جملة» أو «حديثاً» لأحد الكبار فحسب، بل على صورة أصل أساسي وبديهي لإعتقادي، فالقرآن الكريم عندما يذكر هلاك قوم ما، فانه يضع مرتكبي الجريمة مع الذين رضوا بها أو الذين لم يمنعوا وقوعها في مكان واحد. يقول أمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة ما معناه أن ناقة صالح عقرها شخص واحد، ولكن الله أسند هذا العمل للجميع، فقال «فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ». ونحن عندما نلعن في الزيارات قاتلي الشهداء فاننا نلعن معهم أيضاً الذين سمعوا بذلك ورضوا به، وسيرضون عنه، فنقول: «ولعن الله أمة سمعت بذلك فرضيت به». إذن لم يكن كل الناس الذين هلكوا من أجل جريمة وعقاب مشاركين فعلاً بهذه الجريمة، بل إن أكثرهم لم تكن لهم يدٌ في هذا العمل وكانوا محايدين، ولكنهم مساهمون بسكوتهم وانزوائهم وخوفهم على أنفسهم، في ظهور الظلم والانحراف في المجتمع، لأنهم لم يسعوا من أجل منعه والدفاع عن الحق والحقيقة. وقد قال تعالى لشعيب ما معناه: أنني أهلكت مئة ألف من قومك، أربعين ألفاً من الطالحين وستين ألفاً من الصالحين، فسأله شعيب بدّهشة: ولكن لماذا الصالحون. فقال الله: إنهم شاهدوا الشر ولم يفعلوا شيئاً. والقرآن يعتبر

الذين لا يقاتلون ضد «الشر» كفاراً، وأيضاً يقول أبو ذر: إنني أعجب لمن لا يجد خبزاً في بيته، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه؟ ألا ترون إنه يقول، عليه أن يثور»، يقول أعجب كيف لا يثور؟ إنه لا يقول: «ضد المستغلين والرأسماليين والمحتكرين والطبقة الحاكمة والعوائل المتخمة أو الذين سرقوا خبزي» بل يقول: ضد الناس:، أي إذا كنت أنا جائعاً في هذا المجتمع فان كل الناس مسؤولون عن جوعي، كل المتخمين لهم دور في جوعي. ذلك الذي سرق رغيفي، وذلك الذي «تمسك برغيفه» وترك الآخر يسرق رغيفي. انظروا إلى هذا الكلام، وكلام سارتر ودستوفسكي.

وهكذا نستطيع أن نعرف كم إن بعض كتاب أهل السنة الذين يتحدثون عن «كفر أبي طالب» (وربما بسبب بغضهم لعللي) كم هم بعيدون عن الإسلام برغم كل طهارة روحه، إخلاصه وجهاده في الدفاع عن النبي (ص)، وتحمل أصعب سنين المقاومة واستقبال أعظم الضربات التي كانت توجه من قبل العدو الخطير في أيام ضعف الاسلام، فوقف في مواجهة كل الأخطار، عشر سنوات، بكل وجوده وحياته وحتى إعتباره الاجتماعي، واستقبل ذلك السجن الاسود باختباره، كي يبقى وفياً للنبي (ص) وصحابته. وبالرغم من كونه شيخ قريش وأكثر شخصيات مكة هبة وجلالاً فقد تبع ابن أخيه الشاب ودافع عنه ... أو أننا نرى أيضاً وبرغم كل هذا. كيف يريد بعض المحققين العلماء من الشيعة إثبات «دين أبي طالب» (وربما يفعل هؤلاء ذلك حباً لعللي) فيبحثون عن قرائن عقلية ونقلية كثيرة. فهل «الدين» شيء غير الذي أظهره أبو طالب في هذه السنوات العشر وعمل به وقاله؟ الإسلام هو العمل. سيقولون وإن ما فعله أبو طالب كان نابعاً من حرته وإخلاصه وحب الطاهر وحميته وغيرته الإنسانية وأخلاقه وعظمة روحه وتعالى فكره وفكرة الدفاع عن الحق ومواساة المظلوم والعداء للشر والنذالة والظلم والقسوة والجاهلية.

لا أدري، أفليست هذه هي من ضمن «أصول الدين»؟ وألم يأت الإسلام من أجل هذه الأشياء؟ أولئك الذين يقولون: فلان عمله حسن، أفكاره رفيعة، خدماته جليلة،

في مراتع أمنها وإستقرارها، تتفرج على الكارثة أو تشارك فيها. وإن ادعى اصحابها أنهم «متدينون» في «باطنهم السابع!»، ويحبون «المتدينين»، لقد إنقطع بنو هاشم وبنو عبدالمطلب في هذه السنين الصعبة عن المدينة والحياة والناس والحرية وحتى الخبز. فيحدث أحياناً أن ينزل أحد رجالهم خفية عند منتصف الليل ليحصل على طعام للجوع والمنتظرين، بعيداً عن أعين قريش وجواسيسها، أو يوصل إليهم صديق أو قريب خبزاً وطعاماً، بعيداً عن الأنظار ومن باب الرحمة والعطف. كان الجوع يصل أحياناً إلى درجة يتخذ فيها «وجه الموت الأسود ولكن الذين أعدوا أنفسهم لإستقبال «الموت الأحمر» ما كان يهمهم ذلك.

يذكر سعد بن أبي وقاص الذي كان محاصراً أيضاً، أن الجوع قد أمض به حتى كان ليلة، يسير لوحده في الظلام فر كل شيئاً طرياً تحت قدمه فألقاه في فمه من حيث لا يشعر وابتلعه، وبعد مضي عامين على هذه الحادثة فقد كان ما يزال جاهلاً لما أكل، أي شيء كان؟

في ظروف كهذه، يمكن بسهولة معرفة ما كان يجري على أسرة النبي(ص)، وإن لم ينقل التاريخ شيئاً.

كل هذه الأسر، تحملت الآلام والجوع والوحده والفقر، من أجل هذه الأسره فقط. والنبي(ص) كان هو المسؤول عن الجميع، وكان

وأوقف كل حياته في سبيل الإيمان والعقيدة والحق، ولكنه لا إيمان لديه في قلبه. انما قولهم تنبؤات كاذبة مَرَضِيَّة. فهل هؤلاء. يُمَلَكُون أشعة(X) أم أنهم ينظرون إلى الإيمان بأجهزة خاصة تخبرهم عن الباطن.

كل شيء يحدث، يعصر قلبه الرقيق الحساس، كل طفل يصرخ من الجوع، كل مريض يعاني نقص العلاج والطعام، كل عجوز، يضيق بالمصاعب والضغط، وكل وجه تحمّل ثلاث سنين من الجوع والعذاب النفسي والحياة في هذا الوادي الصخري الصلب، فبهت لونه، ونحل عوده، ومع ذلك حاول ألا يظهر هذا أمام محمد(ص) فيظهر الصلابة والإخلاص في الوفاء والحب. كان كل هذا يؤثر في قلبه الرقيق.

لا شك أنه لم يكن نصيب إبنته وزوجته من أي طعام يصل في الظلام إلا أقل شيء، ولا ريب أنه ما كان ليختصهما بشيء لولا خشيته على حياتهما.

كانت أسرة محمد(ص) في هذا الحصار، تتكون من زوجته وإبنته الصغيرة فاطمة، وأختها أم كلثوم، التي أمر أبو لهب ولديه بتطليقها هي وأختها رقية بعد بعثة النبي(ص)، أما رقية فقد تزوجها عثمان الشاب الجميل الثري وهاجرت معه إلى الحبشة، وأما أم كلثوم فقد ضحت بسعادتها من أجل مبادئها، مفضلة بذلك، الحصار والجوع والوفاء لأبيها البطل العظيم في سبيل الدين والحرية، على الرفاه والراحة والسعادة والترف في بيت أبي لهب، وإلى جانب عتية زوجها المتخلف.

تمر الأيام بصعوبة في هذا السجن، فتخيم الليالي وتلقى بظلالها الداكنة على رؤوس ساكني الجبل المنعزل، وتتقدم الأسابيع والأشهر والسنوات بصعوبة ووطء على أجساد وأواح أصحاب النبي، التعب، ولكن البطلة، وتمضي.

أما أسرة النبي، فقد كان وضعها يختلف عن الجميع. قرب الأسرة، يحمل على عاتقه المصير المر للجميع، إبنته أم كلثوم إنهارت حياتها الزوجية، فعادت إلى بيت أبيها، وإبنته الثانية، فاطمة، طفلة صغيرة بعامين أو ثلاثة، أو إثني عشر عاماً أو ثلاثة عشر، وبمزاج متأثر وروح حساسة عاطفية، وزوجته خديجة عجوز شارفت على السبعين، والتي أنهكتها، وإن لم تفقدها صبرها، عشر سنين من صنوف الأذى الذي حلّ بزوجه، وموت إبنها، وما جرى على بناتها، فترأى الموت لها في لحظة.

وفي وضع كهذا، كان الجوع، أحياناً، يضطر خديجة العجوز المريضة - التي أمضت كل حياتها في الثروة والنعيم - لأن تبلّ قطعة جلد وتضعها بين أسنانها. كانت فاطمة الصغيرة الحساسة، قلقة على أمها، والأم قلقة عليها، آخر أبنائها صغيرتها الضعيفة والتي كان يضرب المثل بحبها لأما وأبيها.

في أحد الأيام الأخيرة للحصار، كانت خديجة - التي أحست باقتراب اجلها - راقدة على فراشها، تجلس إلى جانبها أم كلثوم وفاطمة، وكان الأب خارجاً يقسم الطعام بين الناس.

أحست خديجة، بالضعف والإنهاك في جسدها المريض، فقالت بحسرة: - ليت الأجل، يمهلني لحظة، حتى تنتهي هذه الأيام المظلمة فأموت سعيدة، آملة أجابتها أم كلثوم بلوعة:

- أماه ليس هذا مهماً، لاتقلقي.

- نعم والله، لايهمني أنا ولا أخشى على نفسي شيئاً، فيا إبنتي

لم تذق آية امرأة من قريش ما ذقته أنا من النعيم، بل لم تصل آية امرأة في كل الدنيا، إلى ما وصلت إليه أنا من الشرف، وحسبي من الماضي في هذه الحياة أن زوجي الحبيب هو نبي الله ومصطفاه وحسبي من عاقبتني في الآخرة، أنني أول المؤمنين به، وأم المؤمنين به.
ثم أردفت هامسة:

- رباه! لا يمكنني إحصاء نعمك وألطافك، إلهي، إنني لست ضائقة بلقائك، ولكنني أطمع أكثر في أن أكون مستحقة للنعمة التي تهبها لي.

بينما كان الموت والصمت والحزن الثقيل مخيماً على رؤوس خديجة وأم كلثوم وفاطمة في البيت، فجأة دخل النبي (ص)، بوجه مشرق أملأ وإيماناً وقدرةً وتوفيقاً، كأن سنين الوحده والجوع والعذاب الثلاث، قد زادته صلابة وشجاعة وإيماناً.

لقد إنتهت سنين الحصار المظلمة، فرأت خديجة أمام عينيها، خلاص المسلمين وحرية زوجها الحبيب وبناتها العظيمات الوفيات. وذاق النبي طعم أول نصر له على قريش. ولكن القدر الذي أعد هذا الرجل من أجل تغيير التاريخ، لا يريد للراحة والدعة ان تجد طريقها اليه، فوجه إليه، فوراً، ضربتين قويتين.

مات أبوطالب وخديجة بفارق زمني قليل عن بعضهما، وفي وقت ليس بعيداً عن يوم الحرية والخلاص.

أبوطالب هو الذي ربيّ محمداً اليتيم ورعاه، فعوضه بحنوه عليه وحبه إياه عن حنان أبيه وأمه وجده العطوف عبدالمطلب، فهو الذي

ناصر محمد(ص) الشاب ودافع عنه، ووجد له عملاً عند خديجة، وهو الذي ساهم كالأب في زواج ابنه محمد(ص) من خديجة، وهو الذي كان كالدرع لمحمد النبي(ص)، فحماه بكل نفوذه وشخصيته ومكانته الإجتماعية، وحتى أنه تحمل ثلاث سنوات من الحصار إلى جنبه. ومن أجله هو لم يتعرض محمد«ص» للقتل والتعذب الذي نال أتباعه من الناس العاديين. والآن، ها هو يفقده، فقد أبا طالب، أكبر حماته، ماذا أقول؟ بل حاميه القوي والعطوف الوحيد، امام خطر مكة وعداوة أهلها.

وخديجة، المرأة التي وهبها القدر لمحمد عوضاً عن كل الحرمان الذي لاقاه في حياته الشخصية تعرف محمد(ص) ذو الخامسة والعشرين عاماً الى جانبها بعد فترة يتمه ورعيه للغنم والفقر والصعاب، تعرف على حب الزوجة، وحنانها، وعرف فيها إيمان الصديق والرفيق، ولجأ إليها من صعوبة الفقر والحياة، وتمتع معها بحب الصديق، وعوضته بحبها ورعايتها عن حنان الأم.

وعندما بدأت البعثة، وسنوات المصاعب والخوف والخطر والوحدة والحقد والعداوة والخيانات، كانت خديجة، هي التي رافقته، خطوةً خطوة، من أول لحظات علاقته بالوحي وحتى الموت، ووهبته كل حياتها وحبها وإيمانها وتضحيتها وثروتها، في أيام، كان فيها، أكثر من أي وقتٍ آخر، في حاجة ماسةٍ إليها.

والآن، فقد محمد، حاميته، رفيقته ومؤنسته، أول المؤمنين به، وأكبر مواسيه، وأخيراً أم «فاطمته»، وفقدت فاطمة أمها.

إزدادت الصعاب شدةً، رحل أبوطالب، وترك محمداً(ص) وحيداً بلا مدافع، في مواجهة العداوة والبغضاء، وتزداد الخصومة تجذراً وقسوةً كلما ازداد ثبات وإيمان محمد(ص) وأتباعه، كان النبي(ص) قد بقي وحيداً، وحينداً إلى آخر حد. عندما خلت المدينة من أبي طالب، والبيت من خديجة. أما فاطمة، فيبدو أنها أحست اليوم - أكثر من أي وقتٍ آخر - بمعنى ومسؤولية كنيثها «أم أيها». فعندما ألفت نفسها وحيدة بعد ذهاب أخواتها إلى بيوت أزواجهن، تعلقت بأمها قائلة:

- أماه أنا لا أحب أبداً أن أختار بيتاً غير هذا البيت، أماه! إنني لن أفارقكم أبداً.

فأجابتها خديجة بابتسامة تقطر إعجاباً:

- إن الجميع، يقول هذا، وقد قلناه نحن قبلك يا ابنتي، دعي موعده يصل بنفسه.

فتقول فاطمة مصرة:

- كلا! إنني لن أترك أبي أبداً، فلن يستطيع أي أحدٍ فصلني عنه. فصمتت الأم.

والآن، وبعد وفاة أمها، تشعر فاطمة بأن رسالتها هي هذه، وعهدا الذي لم يكن إلا رغبة طفولية. إزداد إيمانها برسالتها عندما سمعت أباها يخاطب قريشاً هكذا.

- يا مجمع قريش، عودوا إلى أنفسكم، فلست بمغنٍ عنكم شيئاً أمام الله.

- يا أبناء عبدمناف، لست بمغنٍ عنكم شيئاً أمام الله.

- يا عباس بن عبدالمطلب، إننى...

- ياصفية إبنة عبدالمطلب...

يا فاطمة لك من ثروتي ما تشائين، ولكني لست بمغنٍ عنك

شيئاً أمام الله، فتجيبه فاطمة بشوق وثبات:

- بلى، بلى، يا أغلى أب، وأفضل داعية.

عجباً له! يخاطبها باسمها، أمام كبار قريش، وشخصيات

بني هاشم وبني عبدمناف؟ هي؟ طفلة صغيرة؟ ويختارها، هي من

دون كل أفراد عائلته. فيتبدل الإحساس الطفولي والحب الواله لهذه

البُنية - والتي كانت قد كررت كثيراً أنها لن تتزوج ولن تترك أباه -

يتحول تدريجياً إلى عهدٍ واعٍ، ويتخذ لوناً من المسؤولية والرسالة.

وافقت سنين عمرها الأولى، أول سنين البعثة والمصاعب والآلام،

فكانت فاطمة أنسب من كل أبناء محمد(ص)، ومن كل الأبناء

عامة، لتحمل أصعب المصائب، وعناء أثقل أحمال الرسالة التي حملها

أبوها على كتفه، عالمة بمصيرها هي وأبيها وأُمها. إتجهت نحوها

خديجة في أحد أيامها الأخيرة بقلق وقالت.

- كم من الأشياء التي ستمر عليك يا بنيتي من بعدي. إنني سوف

أنهي أيامي في هذه الدنيا اليوم أو غداً، ورقية وأم كلثوم تعيشان بسلام

مع زوجيهما، وسن أم كلثوم وتجربتها يطمئنا ني على مصيرها،

ولكنك أنت يا فاطمة، ستغرقك المصائب، وأمواج الآلام المتتابعة

يوماً بعد آخر.

فأجابت فاطمة كمن أخذت على عاتقها حصة من حمل أبيها

الثقيل:

- إطمئني، ولا تحزني من أجلي يا أماء. إن وثنية قريش سوف تزيدهم طغياناً إلى آخر حد، وتزيدهم قسوة في تعذيب وإيذاء المسلمين إلى الحد الذي يستطيعون فتقرعين المسلمين بقبول هذا «العذاب الجليل» وفاطمة أحق في تذوق هذا العذاب، بقدر ما أنعم الله عليها في كونها «بنت النبي» وما إختصها من حبه وإعتزازه بها.

كانت العداوة والبغضاء قد وصلت إلى أوجها، بعد موت أبي طالب، فهاجرت مجموعة من أنصار النبي (ص) وأقاربه إلى الحبشة، في حين تقضي مجموعة أخرى تحت شدة العذاب، واشتدت المصاعب والوحده والفقر وأذى قريش، ومحمد الذي إنقضت خمسون عاماً من عمره، وأصبحت حياته سندان كل الضربات الموجعة، يعيش وحيداً مع فاطمة إبنته الحزينة.

ولكن لا... فالقدر قد جاء بولدٍ إلى هذا البيت، مع وجود أبيه، ولا أحد يعلم ماذا يحدث خلف ستار الغيب! علي.

فعلي، يجب ألا يعيش في بيت أبيه، ينمو هناك، بل يجب أن يكون إلى جانب فاطمة منذ الطفولة، ويُصنع في بيت والد «فاطمة»، فمصير هذا الصبي مرتبطٌ إرتباطاً عجيباً بمصير هذا الأب وابنته.

إن التاريخ يلعب لعبته، ففي هدوء وصمت يلقه الغموض، يعد في ذهنه مشروعاً للإطاحة بأصنام الحجر، وحراس العزة والقومية

والإستبداد والتضاد والتمييز العنصري، ولإطفاء نيران خداع الوعاظ في معابد النار في فارس، وهدم مجمع القصور في المدائن، ورمي إمبراطورية الشهوة والدم والأسر في روما إلى البحر، وأكبر من كل هذا وأعظم، إزالة صبدأ التقاليد والعادات، وقذارة الخرافات و الأساطير البالية، والتحيزات والعواطف والعقائد العفنة، وغسلها، وإثارة امواج من الحرية والمساواة والعدل والجهاد والوعي في البحر الملوث بالأساطير العرقية، ومفاخر الاشراف وغرور القوة، وملاحم القسوة والغزو وعبادة التراب والدم والصنم وكل شئ، وأيضاً، دفع الجماهير المجهولة والمعدومة للثورة على آلهة الأرض، كاتباً بذلك تاريخاً من الدم والحياة والتحرك بدل تاريخ العظام النخرة ولوحات القبور المنهدمة وملوك السيف والذهب، فيبدأ بذلك سلسلة، من وارثي هذا «الراعي المبعوث»، يرتدي كل واحد فيها بردة من «الشهادة» وتاجاً من «الفقر» ممضياً عمره إما في ساحات القتال أو تعليم الناس أو سجن الظلم، وفاطمة هي البداية الأولى في هذه الرسالة الخطرة، والتاريخ بحاجة إلى «علي» من أجل هذه المهمة.

لهذا قادت يد الفقر الرحيمة، صغير أبي طالب، إلى بيت ابن عمه بالرغم من وجود أبيه، كي لاتتلوث روحه بأدران الجاهلية، حتى يصل الوحي. فقد كان حاضراً منذ البلاغ الأول، لكي يكون في صميم الحوادث من اللحظة التي تبدأ فيها البعثة، حتى يصقل في قرن الآلام والمنازعات والأفكار، حتى يعي بدوره الخطير في الهجرة، حتى يضمن نصر ثورة الإسلام في ساحات بدر وأحد وخيبر والفتح وحنين... و...

حتى يترعرع إلى جانب فاطمة، وأخيراً، حتى يوجد مع فاطمة «الأسرة المثالية» للإنسانية، ويبدأ تاريخاً جديداً في مواصلة درب إبراهيم.

الهجرة.

إنتهت ثلاثة عشر عاماً من الصعاب والنضال والحصار في مكة، شاركت فيها فاطمة منذ الطفولة، خطوةً، خطوةً، مع أبيها، في المدينة، في البيت، وفي الحصار، وتحملت بروحها المرهفة، ضربات الحقد الموجهة، وصعاب النضال والجهاد في جو الجاهلية المتوحش، ورعت أباهما البطل الوحيد، كأم، بيديها الصغيرتين. بدأت الهجرة، انتقل المسلمون إلى المدينة، وفي النهاية، ترك النبي (ص) مكة خفيةً برفقة أبي بكر. فخرجت فاطمة وأم كلثوم من مكة، وفجأةً، أوصل أحد أشرار قريش نفسه إليهما وأنزلهما بحدة وعنف عن هودجهما. فعانت فاطمة التي كانت ضعيفة البنية أصلاً، بالإضافة إلى تأثير سنين الحصار على صحتها، عانت آلاماً مبرحةً جراء هذه الحادثة طوال الطريق إلى المدينة، فأثرت هذه الدناءة من جانب «الحويرث بن نقيذ» بشدة على المسلمين وخصوصاً النبي (ص) والإمام علي (ع)، إلى درجة لم ينسوها، بعد ثمان سنوات، فقد ذكر النبي (ص) لإسمه في فتح مكة ضمن الأشخاص المهذور دمهم والواجب قتلهم وإن تعلقوا بأستار الكعبة، بالرغم من تجنبه (ص) لإراقة الدماء وليس من قبيل الصدف أن يكون عليّ هو منفذ هذا الحكم.

الآن، هم في المدينة وقد أتم النبي بناء مسجده، وإلى جانبه بيته

من الطين. وسعف النخيل.

ثم أعلن «مراسيم الأخوة والتآخي» فتآخى المسلمون في الله،
إثنين، إثنين. اتخذ جعفر بن أبي طالب من «معاذ بن جبل» غيايماً
أخاً له، وأبوبكر من خارجة بن زهير، وعمر بن الخطاب من عتبان بن
مالك، وعثمان أخاً لأوس بن ثابت و...
- «أنا، هذا أخي».

محمد أخاً لعلي.

مرة أخرى، ومن بين كل الوجوه، يقف عليّ إلى جانب محمد،
ويقترّب خطوة أخرى نحو محمد، ففاطمة أم علي، هي التي رعت
محمد (ص)، وكان أبوطالب أبو علي (ع) حامياً لمحمد (ص)،
ومحمد (ص)، ترعرع في بيت علي (ع) وعلي (ع) في بيت
محمد (ص) وإلى جانب فاطمة بنت محمد (ص)، وفي حضن
خديجة، أم فاطمة، وهو ابن عم محمد (ص)، والآن هو أخ
لمحمد (ص).

لم تبق إلا خطوة واحدة، كي يصل علي إلى آخر منزلة
قدّرت له في تاريخ محمد (ص) وفي رفقة الاسلام.

لاتزال فاطمة وفيّة لعهدّها، ولم تترك حضن الزهد والوحدة في
بيت أبيها، والكل يعلم بهذا، وبالذات، عندما رفض النبي خطبة عمر
وأبي بكر لها بشدة، عرف جميع الصحابة أن لفاطمة مصيراً خاصاً
ويقنوا أن النبي (ص) لا يجيب خاطباً إلا بعد إستشارتها.

فاطمة، ترعرت مع علي، رآته أخاً عزيزاً لها، وفرأشة محبة ترفرف

حول أيها، والقدر، كان قد ربط مصير هذين الإثنين بصورة خاصة منذ الطفولة، فكلاهما لا صلة لهما بالجاهلية، وكلاهما كبرا ودرجا في عاصفة البعثة منذ سنين عمرهم الأولى، وترعرعا تحت نور الوحي. ماذا كان إحساس فاطمة نحو علي؟ وعلي، أي صورة علقها عن فاطمة، على جدار قلبه الكبير الشجاع والمملوء عاطفة؟

من الممكن لخيالنا ان يحلق و يتصور، ولكن الكلمات ستعجز عن الوصف. فكيف يمكن وصف عاطفة متشابكة تركبت من الإيمان، الحب، الاحترام، الإعجاب، الحب الأخوي، الإشتراك في المصير، قرابة الروحين، الاشتراك في تحمل آلام ومصاعب المستقبل، وأخيراً، الإشتراك في السفر، خطوة خطوة، لحظةً، لحظةً، طوال طريق الحياة، والتمتع بنفس منبع الحب والإلهام والإيمان؟

إذن لماذا يصمت علي؟ خمساً وعشرين سنة مضت من عمره، وفاطمة، حان موعدها، تسعة أعوام، أو تسعة عشر عاماً؟ في رأيي، إنّ ما كان يمنع عليّاً واضح. ففاطمة أوقفت نفسها في خدمة أبيها، تعتبر نفسها أمّاً لأبيها، إذن كيف يستطيع عليّ أن يأخذ فتاة تعلقت بأبيها إلى درجة يبدو معها أنه لا إمكان في فصلها عنه؟ أطلبها من محمد؟ ولكنه يشارك الزهراء إحساسها.

فجأةً تغير الحال، فقد جاءت عائشة إلى بيت النبي (ص) وحصل محمد (ص)، لأول مرة في عمره، وآخر مرة، على زوجة شابة تطفح بالحماس واللهفة للحياة الجديدة.

وتشعر فاطمة، بالتدريج، بأن هذه الزوجة الشابة، ستكون خليفةً

لخديجة، وخليفة لها، لا في قلب أبيها، ولكن - بلا ريب - في بيته.
ويشعر عليّ أيضاً، بوصول اللحظة التي قرر لها القدر. ولكنه
لا يملك شيئاً.

فالصبي الذي ترعرع صغيراً في بيت محمد، وأمضى كل شبابه
في طريق الجهاد والعقيدة، ولم يجد فرصة لإدخار شيء ما.
أو الحصول على شيء ما. هذا الفتى، لا يملك من دنياه شيئاً سوى
التضحيات التي بذلها في سبيل محمد (ص) وإيمان محمد (ص).
رأسمال؟ كلا! بل حتى أثاث بيت بسيط. أثاث حياة فقيرة. لا شيء.
ولكننا نراه، برغم ذلك، يُقبل نحو النبي (ص)، ويجلس إلى
جانبه، خافضاً رأسه، يتحدث بخجل وحياء جميل.

- ماذا وراءك يا ابن أبي طالب؟

يذكر اسم فاطمة، بلحن ناعم، لطيف، هاديء من فرط الحياء.
يجيب النبي (ص) مرحباً وأهلاً.

ثم يسأله غداً في المسجد

- هل تملك شيئاً؟

- لا شيء يا رسول الله.

- أين الدرع الذي أعطيتكه في بدر؟

- هو عندي، يا رسول الله!

- يكفي، هاته!

أسرع عليّ، وجاء بالدرع إلى النبي (ص)، فأمره ببيعه في السوق،
وتأسيس حياة جديدة بمثنه.

اشترى عثمان الدرع بسبعة واربعين درهماً ثم دعا النبي أصحابه
وقرأ صيغه العقد: «... فاطمة بنت النبي، بأربعمئة مثقال من الفضة...»
ثم دعا لهما بالذرية الصالحة، عندها جاءوا بأطباق التمر، وكان
هذا هو حفل الزفاف، أما جهاز فاطمة فهو:
رحى صغيرة، إناء خشبي، فراش.

وفي غرة محرم الحرام، في العام الثاني للهجرة، عثر على علي
بيت خارج المدينة، جنب مسجد قبا، وأخذ الزهراء إليه.
لحمزة، عم النبي وعلي، سيد الشهداء، وبطل المجاهدين العظيم،
ذبح باقتين، ودعا كل أهل المدينة.

طلب النبي (ص) من أم سلمة مرافقة العروس حتى بيت زوجها،
ثم أدر بلال لصلاة العشاء، وذهب النبي (ص) بعد صلاة العشاء إلى
بيت علي (ع)، طلب وعاء ماء، وبينما كان يقرأ عليه آيات من القرآن،
أمر عروسين بالشرب منه، ثم توضأ هو به، ورش على رأسيهما منه.
أراد أن يعود فبكت فاطمة بشدة، إنها تفارق أباهما لأول مرة.
هدأها النبي قائلاً:

- لقد أوكلتك لأقوى الناس إيماناً وأكثرهم علماً وأفضلهم أخلاقاً
وأسماهم روحاً.

«الفصل الثاني»

تبدأ «وديعة محمد» الفصل الثاني من حياتها. والقدر، يهدي أعز «الودائع» آلاماً ومصاعب جديدة.

فزينب في بيت أبي العاص، تاجر مكة، رقية وأم كلثوم عاشتا من قبل في النعيم والرفاه في بيت أبي لهب، ثم إنتقلتا واحدة بعد الأخرى إلى بيت عثمان الصحابي الثري، وأما فاطمة، التي ولدت ونمت منذ بداية الفقر والصعاب في بيت أبيها، ها هي الآن تنتقل إلى بيت علي، البيت الذي لا يحتوي من الأثاث والزينة سوى الحب والفقر.

بدأت صعوبة الحياة في بيت علي أشد من أي وقتٍ آخر، وكانت فاطمة تواجه نفس مسؤوليتها الدائمة، ولكن تجاه علي هذه المرة.

الشاب الذي كان ينظر إليها بالأمس، بعين الأخت، واليوم بعين الزوجة، وفاطمة تعرف جيداً أن حياة علي ستبقى دائماً هكذا، تدري أن زوجها لا يفكر إلا بالجهاد والله والناس، وأبداً، لن يعود يوماً

الى بيته، إلا بيدن خاليتين، وفاطمة، ترى مسؤوليتها أثقل وزناً عنها في بيت أبيها، أن تكون مسؤولة عن زوجها، هذا الرجل الفقير، الأهم حتى من السعادة والأعظم من الحياة نفسها.

فاطمة تطحن بالرحى، تخبز الخبز، تعمل في البيت، وشاهدوها لمرات وهي تجلب الماء من الخارج... وعلي الذي يعرف جلال فاطمة وعظمتها، بالاضافة الى أنه، يحبها لأكثر من سبب، ويعلم كم أن مصاعب الحياة والآلام التي أحاطت بها منذ الطفولة، قد أضعفتها وأثرت عليها، يتألم بشدة لكل هذه المعاناه وهذا الجهد الذي تبذله.

يقول لها يوماً بلهجة مشفقة عطوفة:

«لو أتيت أباك فسألتيه خادماً يكفيك حرّاً ما أنت فيه من هذا العمل، فأنت النبي(ص) فأستحيت وانصرفت... وقالت لعلي أنها استحيت أن تطلب شيئاً من النبي(ص)، لنفعل عليّ جداً، فأعان فاطمة ورافقها إلى النبي(ص)، ثم سأله هو بدلاً عنها، فأجابه النبي(ص) جواباً حاسماً:

- لا والله، لا أهبكم أسير الحرب، وأترك بطون أهل الصفة خاوية، ولا أجد شيئاً أعطيه إياهم، ولكني أبيعه، وأهب ماله لأهل الصفة.

شكره على وفاطمة، وعادا صفر اليدين، حلّ الليل، ورقد الزوجان في بيتهما الخالي صامتين، يفكران بما طلباه من النبي(ص).

أما النبي فقد كان هو الآخر يفكر بالجواب الذي أجاب به أعزّ أقربائه.

فجأة فتح الباب، ودخل النبي (ص).

وحيداً من بين ظلام الليل، الليل البارد الذي كان يرفف علياً وفاطمة في فراشهما. لاحظ أنهما غطيا أنفسهما بلفاف شفاف عندما يسحبانه على وجهيهما تظهر أقدامهما وعندما يغطيان أقدامهما به ينكشف وجهيهما أمرهما بعطف: لا تتحرك!

ثم قال (ص)، أفلا أعلمكما ماهو خير من الخادم؟ إذا أخذتما منامكما، فسبّحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين وكبراً أربعاً وثلاثين، فأخرجت عليها السلام رأسها، فقالت: رضيت عن الله ورسوله ثلاث دفعات. ١

هكذا، مرة أخرى، تتعلم فاطمة الدرس، بضربة دقيقة، وصلت إلى عمق وجودها، تعلمها أنها فاطمة!

كان هذا درساً، تعرفه منذ الطفولة، ولكن دروساً كهذه تحتاج دائماً إلى تعليم مستمر وتذكير دائم، فهو ليس درس «علم» بل درس «صيرورة وتحول»، فأن هذه هي مسؤوليات فاطمة ومكانتها، ولكن قيمة فاطمة نفسها - أي كونها فاطمة - اضطرت النبي (ص) للتشدد في تعليم « هذه التلميذة الخاصة والصحابة الفريدة»، فلا يجب أن تعيقها لحظة إستقرار في الحياة عن «السير والتحول» فالألم والحرمان هما غذاء هذه الشجرة التي يجب أن تنمو في نور الوعي، وتثمر من أجل الحرية والعدل، تكون بداية تلك «الشجرة الطيبة» الموكول إليها، بتحمل «النار الإلهية» من السماء إلى الأرض وإيصالها للإنسان، وعليها، حقاً، أن تحمل حمل كل

الأرض الثقيل، و«تقاوم»!

لهذا كان على فاطمة أن تتعلم دائماً، التعلم الذي لا ينتهي كالضوء والهواء والغذاء «للشجرة» المتكرر والمستمر الكلمة، بديلاً عن الخادم. لإنهما الزوجان الوحيدان الذان، يمكنهما إدراك أنه بالإستطاعة العيش «بالكلمة» ونيل السعادة بها وشربها، وأكلها، والإرتواء بها! وهذه الكلمات، هي كالمنطق الذي يجب أن يهطل باستمرار، فيشربه هذان البرعمان العطشانان الآتية بذورهما من أكرم بذور «الإنسانية» وكان نداء محمد(ص) المفاجيء، في قلب الليل والظلام الملىء بالمعاني، هو صوت قطرت هذا الماء.

ومن أكثر عطشاً وأكثر حباً، من هذين الإثنين على الأرض؟
وليس عبثاً أن يسمعوا علياً رجل العمل والجهاد والسعي، بعد خمس وعشرين سنة مضت على هذه الحادثة يقول:
- واللّه، لم أترك هذا الدرس منذ علّمنيّه.
فيسألون بدهشة:

- : حتى ليلة صفّين؟

فيجب... مؤكداً: «وحتى ليلة صفّين»

فاطمة أيضاً، عاشت مع هذا الدرس، حتى ماتت، فخلدت هذه التسييحاً - باسمها.

الكلمات السماوية التي كانت تمدها في الحياة بديلاً عن «الخادم». «الكلمات التي أهديت لها «كهديّة الزواج» جاء بنفسه

وأعطاهما، ثم عاد.

كان النبي (ص) يتشدد كثيراً على فاطمة إبنته الحبيبة. لقد تعلم هذه المعاملة من ربه، ففي القرآن الكريم، لم يعاتب، أي نبي بقدر ما عوتب محمد (ص)، حيث لم يكن أي نبي حبيباً عند الله بقدر ما كان محمد، أو مسؤولاً عن الناس بحجم مسؤوليته.

وكما يقول شاندل: «الحب والإيمان، في أوج إرتفاعهما، يتجاوزان مستوى الشاء والمديح، فيغرق المحبوب في أوج صعوده في عين محبه بالتأنيب والعتاب واللوم، ويحدث هذا في الوقت الذي يفقد فيه المحبوب إستحقاق العفو عنه في عين المحب».

مرة ككل الأيام: يدخل النبي (ص) إلى بيت فاطمة، فجأة يقع نظره على ستارة مزينة، منقوشة، يقطب حاجبيه فوراً، ويعود من حيث أتى دون أن ينبس ببنت شفة.

تشعر فاطمة بذلك، فتعرف ذنبها، وتعرف كيف تتوب؟ بسرعة، ترفع الستارة عن الحجرة، وترسلها إلى أبيها كي يسيعها وينفق ثمنها على فقراء المدينة. لماذا كل هذا التشدد والخشونة؟ فهذه زينب غارقة في النعيم والثراء في بيت أبي العاص، وأخواتها كن دائماً في بيوت الثروة والرخاء، سواء في بيت عثمان، سليل الأشراف، أو في بيت أولاد أبي لهب سابقاً، ولكن فاطمة، لم تسمع أبداً أن أوتبت أخواتها اللاتي يكبرنها بكثير من أجل الثروة والزينة.

ويبدو واضحاً، من طريقة وأسلوب تعامل النبي (ص) مع فاطمة ولهجته في ذلك، أن فاطمة شيء، وبناته الأخريات شيء آخر.

«يا فاطمة إعملي، فاني لست بمغني عنك شيئاً غداً»

لاحظوا الفارق والفاصلة بين هذا الإسلام، والإسلام الذي يقول:

«قطرة دمع على الحسين، تطفيء نار جهنم، وتغفر الذنوب وإن كانت بعدد قيعان البحار ورمال الصحراء ونجوم السماء، وحب علي (ع) يبدل نفس الذنوب يوم القيامة إلى حسنات»! والاكثر مدعاة للآلم، هو القول المنسوب لله سبحانه وتعالى! الذي يقول، «محبّ عليّ في الجنة وإن عصاني، وعدوه في النار وإن أطاعني».

لن يكون - هناك في يوم الحساب - نظاماً جزاء وحساب وعقاب نظام الله ونظام علي فعلي، والله سبحانه وتعالى، لم يختلفا في الحساب، والقضية جادة وخطرة للغاية، حتى النبي (ص) لا أمل لديه في نصرة فاطمة أمام العدل الحاكم على العالم، وأمام حاكم العالم. ففاطمة يجب أن تصبح نفسها. هناك لن ينفعها كونها ابنة محمد. هنا فقط تستطيع أن تفيد من ذلك، وذلك من أجل أن «تصبح فاطمة» لاغير، فإن لم تصبح فهي خاسرة، و«الشفاعة» تعني هذا، لا الغش في إمتحان يُسيطر عليه اللهو والعبث والقرابة واحتساب الأهل والأصدقاء، في حساب الحق والعدل الإلهي، أو التدخل في «كتاب الأعمال» وإدخال الأقارب من جدران أو أبواب الجنة السرية.

وفاطمة تعرف كل هذا، علمها النبي ذلك، هي والجميع، «الشفاعة» التي تنقض أساس الحساب والكتاب والمسؤوليات التي جاءت كل الأديان من أجل إقرارها، هي وثنية جاهلية، فهم كانوا

يحسبون الأصنام ويعتبرونها «شفعاءنا عند الله».

يرتكبون الجرائم، ويمارسون آلاف الأعمال القذرة، والسيئات، ثم يذبحون جملاً أو أسداً في حضرة اللات والعزى، وبقية أصنامهم الصغيرة والكبيرة، ويطلبون «الشفاعة» منهم بكلمات التملق والتوسل والتضرع وإظهار العواطف والحب والإخلاص.

أنا لستُ معتقداً بشفاعة «النبي» فقط، بل حتى بشفاعة الإمام والمعصوم، وحتى شفاعة الصالحين والمجاهدين الكبار و... ماذا أقول؟ بل حتى أنني أعتقد أن زيارة «تراب الحسين» تغفر للمسيء ذنبه. ولكن من حيث أن هذه الأعمال، وهذه الشخصيات تؤثر تأثيراً تغييرياً وثورياً، في روح الإنسان وفكره الإنسان الذي يفكر ويعتقد بهذه الشخصيات الإنسانية العظيمة، تغييره، تهدم فيه الضعف والخوف والشر وعبادة الأصنام وعبادة الشخصيات والعبودية للذهب والسيف، وتلهمه روح الجهاد والثبات والإخلاص وعظمة المعنويات وتهبه مبادئ جديدة وتقوي فيه القيم الإنسانية، وتقتل في عمق ضميره أمراض الإرادة المشلولة. والعادة، أي عوامل الخطيئة والشر وتصنع منه إنساناً كبيراً، فطبيعي إذن ومنطقي جداً أن تبقى أخطاء الماضي للماضي، وينتهي «هو» الذي كان في الماضي، ولا وجود له الآن، ولن يكون بعد الآن.

فهذا الحر، بطل كربلاء، تخلص من جهنم مجرمي نظام الظلم والإرهاب والشر، بشفاعة الحسين، فأوصل نفسه، بعدة خطوات، إلى ذروة أبطال الحرية والحقيقة والانسانية. وفاطمة لم تصبح فاطمة،

إلا بشفاعة محمد(ص)، إذ أن الشفاعة في الإسلام هي عامل الحصول على «إستحقاق وأهلية الخلاص» لا وسيلة «لخلاص غير المستحق» فالشخص هو الذي يجب أن يأخذ شفاعته من الشفيع فيغير بذلك مصيره، أي يغير سريره بحيث يصبح أهلاً لتغيير مصيره، أجل، فالشخص هو الذي يأخذها من الشفيع، لا أن يعطيها الشفيع له، إن أي عنصر مذنّب وملوث، لاقيم عنده ولا مبادئ، ليس من الممكن أن يمر على «الصراط» بأي حيلة ووسيلة، إلا أن يكون قد تعلم فن «إجتيازه» في هذا العالم، «عالم الحياة والكدح والعمل والخدمة والخيانة»، والشفيع هو أحد هؤلاء المعلمين.

إن الحسين يصبح شفيعاً للإنسان الذي يريه حب الحسين والإيمان به وذكره وقصته، على أن يكون مجاهداً فينقذه بذلك من الضلال ويقوده نحو الطريق الذي يكون فيه إماماً.

والأ فان الدموع لن يكون لها أي أثر كيميائي على ذنوب الإنسان، إذا لم تؤثر على وعيه ومعرفته وسريته.

- يا فاطمة إعملي، فإنني لست بمغن عنك شيئاً غداً!

فاطمة كانت «مثال» محمد(ص). ومحمد أيضاً لم يستثنَ في نظام العدل الإلهي وقانون الإسلام، فهو مسؤول أيضاً، عليه أن يجيب عن كل خطوة يخطوها، وكل كلام يقوله، مرة، قامت إحدى نساء قريش - والتي كانت قد أسلمت - بسرقة، سمع النبي بذلك، يجب قطع يدها. كثير من الناس أشفقوا عليها، واعتبرت الأسر الكبيرة في قريش هذا العمل وصمة عارٍ لا تمحى.

جاءوا إليه يطلبون الشفاعة، سألوه أن «يشفع» عند الله لهذه المرأة، فلم يرض، توسلوا «بأسامة بن زيد»، أسامة هو ابن زيد، ابن النبي (ص) بالتبني، والذي كان النبي (ص) يحبه هو وابنه أسامة حباً جماً، فسأله أسامة، برصيد الحب والقرب الخاص الذي كان يتمتع به عند النبي، وماضي الوفاء والتضحية لديه ولدى أبيه، غلام خديجة مولى الرسول (ص)، سأله أن يغفر لهذه المرأة القرشية الشقية زلتها. أجابه النبي (ص):

- لا تكلمني يا أسامة، فطالما القانون بيدي، لن تجد لها مفرأً، فلو سرقت فاطمة بنت محمد، لقطعت يدها.

لماذا إختار «ابنة محمد» من بين كل أقربائه؟ ولماذا باسمها: فاطمة؟ الجواب على هذه الأسئلة واضح، أفلم يختار فاطمة الصغيرة من بين كل أقاربه، من بين كل أفراد عائلته، ومن بين كل بناته، عندما جهر بدعوته، وجعلها مخاطبة دعوة الإسلام الكبيرة؟

وفاطمة، حسب تصريح له هو «ص»، هي إحدى أربع وجوه نسائية ممتازة في تاريخ الإنسان، مريم، آسية، خديجة، وأخيراً: فاطمة. لماذا في النهاية؟

أكمل حلقة في سلسلة التكامل، في كل الكائنات، على مدى العصور وفي كل فترات التاريخ، هي الأخيرة، وكذلك في الأنبياء، الأخيرة، وفاطمة، من بين كل نساء العالم، النمودجيات، الأخيرة.

كرامة مريم، بعيسى الذي ولدته وربته، كرامة آسية (زوجة فروعون)، بموسى الذي ربته، ورعته، وكرامة خديجة بمحمد (ص)

الذي نصرته وبفاطمة التي ولدتها وربتها.

وكرامة فاطمة؟

كيف أقول؟ وماذا أقول؟

بخديجة! بمحمد(ص)! بعلي(ع)! بالحسين! بزينب! بنفسها!!

الآن يعيش عليّ وفاطمة، في بيت خارج المدينة، بعيداً عن الحياة، والمدينة والناس، في قرية «قباء»^(١) على مسافة ثمانية كيلومترات جنوب المدينة، جنب مسجد «قباء» وهو نفس المكان الذي أقام فيه النبي(ص) في بداية هجرته للمدينة أسبوعاً كاملاً، ووصل إليه علي الذي بقي في مكة ثلاثة أيام بعد رحيل النبي(ص) عنها، ثم دخل النبي لأول مرة إلى المدينة من هناك، فأسس أساس الإسلام الحر في هذه المدينة، وبنى مسجده، بيت الله والناس، وبدأ التاريخ.

وأي صدفة عجيبة هذه.. أن يذهب عليّ وفاطمة إلى قباء، مرة أخرى، وينون أول بيت لهم جوار مسجد قباء، أول مسجد بُني في الإسلام، ويقيان لفترة هناك، مؤسسين بذلك «بيت العترة» في ذلك

(١) هذا حدسٌ أقرب إلى اليقين مني، يقول التاريخ: ان علياً وفاطمة عاشا في بداية حياتهما في بيت غير هذا البيت المشهور الآن، وقد أشاروا لي في السفر الذي قمت به صيف هذا العام من أجل التحقيق في آثار حياة النبي وآثار عصره في مكة والمدينة وباقي أراضي شبه الجزيرة العربية، إلى مكانٍ باسم «دار فاطمة» جوار مسجد قباء، قرب بئر «الخاتم» وقد بقي منه قطعة حجرية في ركن منزوٍ واضح أن هذا البيت لا يمكن أن يكون غير تلك الدار، فالقول باحتمال إمتلاك فاطمة لبيت شخصي هناك قولٌ لا أساس له وغير وارد.

المكان، فينشأ التاريخ الذي يتدئ بعلي وفاطمة من هناك.. من نفس المكان الذي بدأ فيه تاريخ الإسلام، ثم يدخلان المدينة، ويسكنان بيتاً مقابل بيت النبي(ص) وجنب مسجده.

إن التشابه بين هاتين «البدايتين» وتطابق هاتين الحادثتين، ليهز مشاعر كل من يعرف الإسلام والتشيع الحقيقي، ويعرف قصة «مسجد النبي» و«بيت النبي» وإذا لم يثر المنطق، فانه ولاشك سيثير العاطفة.

ولكن، صعب «على النبي(ص)» ألا يرى علياً وفاطمة إلى جنبه، وفراق علي صعب عليه كفراق فاطمة، فعلي قد عاش مع النبي(ص) في بيته، منذ نعومة أظفاره.

والآن، يعيش هذان الإثنان - وهما روح بيت محمد(ص) - بعيدين عنه وخارج المدينة، في بيت توافق فيه الفقر والمشقة مع الحب والإيمان توافقاً عجيباً، وعظيماً، وعلي الذي درج مع الفقر والوحدة والمشقة، ثم المنازعات والبغضاء والجهاد وترويض النفس والثبات وتحمل الحياة العابسة في مكة، ولم يمض شبابه وحتى طفولته إلا في منازعات الدين والجهاد، على هذا، روحه جادة جداً، زاهدة، لا يفكر بالبيت والحياة واللذة والثروة والترف، فم لا يرتوي إلا بالمرارة، معتاد على التفكير والعمل والجهاد، فاطمة أيضاً هي عصارة الألم والزهد والفقر، وقد أثرت على روحها الشفافة، الآلام والمصاعب التي لاقاها أبوها، وأمها وأخواتها، هي وأخوها علي، في السنوات التي كانوا فيها بمكة.

جسمَ نحيل، وعاطفة رقيقة، وقلب حساس، تعصره الآلام
والمصاعب والفقر في بيت علي(ع)، فلا علي، هو رجلٌ يهتم بمشاغل
الحياة اليومية وملاهيها وعيشها العائلي، ولا فاطمة هي تلك المرأة
التي يهتمها ضجيج ولهفة أيام الزواج الأولى، كي تنزل بعلي من
سمائه إلى الأرض.

إن النبي(ص) هو الشخص الوحيد الذي يثير أمواجاً من التحرك
في هذا البيت، برعايته وحنوه وحده، وحبه وكلماته التي كانت
كالشهد والحلاوة.

والنبي(ص) يأتي بعلي وفاطمة إلى جواره بإدراكه لحاجة هذه
الأسرة العزيزة التي تعيش وتحيا «بالحب».

فيكون بيتهم مثل بيته تماماً، داراً من الطين وسعف النخيل، بابها
على المسجد، تجاوره جداراً بجدار، بنافتين متقابلتين واحدة من بيت
علي والأخرى من بيت محمد(ص).

إن هاتين النافتين المتقابلتين، ترجمة حية لقلبيهما المتقابلين، قلب
أب وقلب بنت، تفتحان كل صباح لبعضهما.

ومن هذه النافذة، كان النبي(ص) يلقي التحية على فاطمة كل
صباح، إلا في أيام سفره، كما يقول المؤرخون.

لماذا كان على بيت فاطمة فقط، من بين كل الصحابة والأقارب،
وحتى بناته، أن يكون في المسجد ومجاوراً لبيته هو؟ كما لو أنهما
بيت واحد؟ وقد كانا هكذا في الواقع. فبيت محمد(ص) هو بيت
فاطمة. وأسرة محمد(ص)، هي الأسرة التي كان فيها علي هو الأب،

فاطمة، الأم، الحسين الإبن، وزينب البنت!

إن «العترة» و«أهل البيت» الذين أكد عليهما كثيراً في القرآن والسنة مطهرين من الرجس، ومحفوظين بالعصمة، ويشكلان مع القرآن ثقلين تركا للناس في كل العصور والأجيال، هما هذا البيت وهذه الأسرة، وكل من يعرف هذا البيت، لن يكون بحاجة إلى الاستدلالات العقلية والبحوث الكلامية فان لم تكن أية رواية ونقل، سيعترف بها العقل.

والآن، بُني في المدينة، بجوار جدار عائشة، هذا البيت، فتفتحت أزهار هذا الارتباط، الكبيرة والنادرة، متتابعة:
الحسن، الحسين، زينب، أم كلثوم.

بدأ تاريخ آخر، وظهرت آفاق جديدة بطلوع هذه النجوم:
لمحمد(ص) معنى الحياة، للإسلام: الحجة في الدعوى، للبشرية: كل شيء.

في السنة الثالثة للهجرة، أي بعد عام من الزواج، ولد الحسن فاحتفلت المدينة، بأثمار إنتظار محمد(ص)، وتذوق محمد(ص) لأول مرة بعد ستة عشر عاماً، لم يسمع فيها إلا السباب والاذى والحقد والعداوة والشر والخيانة وأخبار تعذيب وقتل أعزائه، تذوق لأول مرة طعم الحياة الحلو.

يدخل سعيداً، مسروراً إلى بيت فاطمة، يحتضن أول ثمار إرتباط علي بفاطمة يؤذن في أذنه، وأخيراً، ينفق بمقدار وزن شعره فضةً على فقراء المدينة. يمر عام، فيأتي الحسين.

ولد الآن، صبيان للنبي(ص).

هكذا أراد القدر، مات ولده القاسم والطاهر، كي يكون أولاده من فاطمة. كان يجب أن يكون إستمرار نسل النبي في إبنته، فاطمة! فاطمة.

وعلي، ما كان يجب أن يبقى بعيداً عن السلسلة التي تبدأ من محمد(ص)، أفليس علي هو إمتداد محمد(ص) في المعنى، ووارثه في الروح؟

إذن، كان يجب أن يكون إستمراراً لمحمد(ص) في النسل أيضاً. كي ترتبط هاتان الروحان ببعضهما، في تتابع الأجيال، وأن يكون علي حاضراً في ذرية محمد(ص)، وأن يكون محمد(ص)، يرى الثلاثة في وجهيهما، علياً، فاطمة، ونفسه! يشكر القدر أن وهبه بديلاً عن إبنه، هذين الولدين، ثمرتي إرتباط علي بفاطمة.

فاطمة أم أيها - وكل الصحابة يعلمون بذلك ويرددونه - «أصغر بناته وأعزهن» وأحب إليه من علي.

وعلي؟

إبنه، ربيبه، اخوه، وأعز عليه من فاطمة.

فخيوط الحب التي تربط علياً بمحمد(ص) كثيرة لاتحصى، كلاهما يعودان إلى عبدالمطلب، وأم علي، رعت محمدأ(ص) منذ كان في الثامنة، وأبوه أبوطالب كذلك، فقد درج محمد(ص) من الثامنة من عمره حتى الخامسة والعشرين في بيت علي، وعلي أيضاً، عاش في بيت محمد، من الطفولة وحتى الخامسة والعشرين، رعته

خديجة كأم ورعاه النبي (ص) كآب.

أية روابط قرينة متقابلة هذه، قرابات متشابهة.

فعلي هو أول المصدقين بالإسلام، وأول يد بايعت النبي (ص) في غربته ووحدته ومنذ ذلك الحين، وقف دائماً بوجه الأخطار، وعاش في قلب الأحداث والمصاعب حتى... الموت.

قبل البعثة، عندما كان صغيراً، طفلاً في السادسة أو السابعة، كان يأخذه معه وحيداً إلى غار حراء، يرافقه في خلوته وتأملاته العميقة، ومناجاته العجيبة، في ليالي وأيام العزلة تلك.

لقد كان قمر شبه الجزيرة يرى دائماً، على جبل النور و غار حراء، في صمت ليالي رمضان يرى رجلاً وحيداً يقف على سفح الجبل، أو يجلس أو يخطو بهدوء، يفرق أحياناً في بحر الالهام، في أحاسيسه الخفية الغامضة، و يرفع أحياناً أخرى رأسه إلى السماء، كمن ينظر إلى شئ معين في أفاقها المجهولة، ينتظر شيئاً معيناً، أو يرى شيئاً معيناً لم يسبق له معرفته. وفي كل هذه الحالات كان هنالك دائماً صبي، يرافقه كالظل، أحياناً على كتفه وأخرى إلى جانبه.

وأيضاً، كان علي طفلاً صغيراً، بثمان أو عشر سنوات، عندما دخل مرة إلى حجرة أبيه وأمه: محمد (ص) وخديجة!

شاهدهما يركعان ويسجدان، يجلسان وينهضان، ويهمسان بأشياء خاصة سوية، دون أن يهتمما به أو ينتبها له، بقي مدهوشاً، متحيراً، ولكنه سأل في النهاية: ماذا تفعلان؟

أجابه النبي (ص):

- اننا نصلي، أمرت أن أبلغ الناس دعوة الاسلام و ادعوهم لتوحيد الله ورسالته. يا علي، إنني أدعوك أنت أيضاً.

وعلي، وإن كان ما يزال طفلاً صغيراً ويعيش في بيت محمد، وإن كان غارقاً في حبه وعطفه ورعايته، ولكنه علي.

إنه، لا يقول نعم، بدون تفكير. فيجب أن يمر إيمانه عبر عقله، كي يجد طريقاً إلى قلبه بعد ذلك، ولكن وعلى أية حال فلسانه ناطق عن سنه وعمره:

- إسمح لي أن أصارح أبي، أباطالب، بذلك، واستشيريه في الأمر، ثم أقرر. ثم خرج من فوره، كي ينام في حجرته.

ولكن هذه الدعوة ليست أمراً عادياً أو دعوةً عادية، تترك علياً ينام هائناً، هادئاً لقد بقي مستيقظاً جفاه النوم حتى وقت متأخر.

إن أحداً لا يعلم ماذا كان يجري في بال وذهن هذا الطفل الكبير تلك الليلة، ولكن الصباح، كان يبشر بالخير، فما هو صوت أقدامه الصغيرة يأتي عن ثبات في الرأي وتصميم قاطع، ووصل إلى حجرة أبيه - ابن عمه - وقال بلحن طفولي عذب وبمنطق علي الرائع المحكم:

- لقد فكرت مع نفسي الليلة الماضية، فوجدت أن الله لم يستشر أبي أباطالب في خلقي، والان، لماذا عليّ أن أستشيريه في عبادته؟ أعرض عليّ الاسلام.

فأخبره النبي، وقبله علي. ومنذ ذلك الحين نذر كل لحظات عمره من أجل هذا الايمان وهذا العهد، فأصبح آية عظيمة في عبادة الله

والوفاء لمحمد وحب العباد، وعظمة الروح، واتصل بمئات الخيوط الخفية والظاهرة بروح وفكر وقلب محمد(ص).

وكان الجميع يعلمون ذلك والنبي أكثر من الآخرين، حيث كان يحس بالآلاف الأشعة الخفية للحب تشرق على علي من روحه. ولهذا أراد عليّ بعد أن أحس بحب النبي(ص) بروحه أن يسمع ذلك من لسانه، فسأله قائلاً:

أيّ الاثنين أحب الى رسول الله من صاحبه: إبنته الزهراء، أم زوجها عليّ؟

أحس النبي(ص) أنه وضع أمام سؤال محرج، ولكنه إبتسم وقد عثر على جواب شعر أنه بيان عما يحس به قلبه وقال بصوت مليء بالثقة:

- فاطمة، أحب إليّ منك، وأنت، أعز عليّ من فاطمة.

* والان، جاء الحسن والحسين، أحفاده، ثمرة وجود وحياة «أحب أعزائه». و«أعز أحبائه» في كل الدنيا.

النبي الذي تحدث عنه التاريخ بكل هذا الحجم، عن إرادته وحزمه وقدرته، وخافه الأكاسرة والقيصرة وجبايرة العالم كل هذا الخوف، كان في نفس الوقت، رجلاً عاطفياً مرهفاً، بقلب ينبض بالحب، وروح تثيرها الأيادي الحميمة الصادقة.

ففي حرب حنين الرهيبة التي إتحدا فيها أعداؤه كجسد واحد من أجل إبادته وقتله، والتي أسر فيها النبي آلاف الأسرى، وغنم فيها المسلمون أربعين ألف بغير وآلاف من رؤوس الغنم والشيءاء. جاءه رجل

من العدو المهزوم وقال:

«يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك! ولو أننا ملحنا للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل ما نزلت به، رجونا عطفه وعائده، وأنت خير المكفولين!

ثم جاءوا بامرأة تصيح:

«تعلمون والله أنني لأخت صاحبكم من الرضاعة» فسألها النبي (ص): «وما علامة ذلك؟» فقالت: عضه عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك».

أثير النبي (ص) بشدة، وتذكر حنان وحب مرضعته وبناتها، وتذكر أيام حياته في الصحراء بين هذه القبيلة، حتى إغرورت عيناه بالدموع، فبسط لها رداءه، ثم قال: هاهنا، فأجلسها عليه، وخيرها، وقال: إن أحببت فعندي محبة مكرمة، وإن أحببت امتعك، وترجعي إلى قومك، قالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي، فمتعها رسول الله (ص) وردها إلى قومها^(١)

وهكذا كان أيضاً في بيته وعائلته، في الخارج، رجل الحرب والسياسة والقيادة والقدرة، وفي البيت، أب عطوف وزوج حلو الطباع ومحب إلى درجة، كانت فيها نساؤه اللاتي لم يكن يسمعن في ذلك الوقت غير لغة الضرب في المجتمع والتي ما كان النبي

(١) تاريخ الطبري، مج ٢، ص ١٧١. المترجمة.

يعرف شيئاً عنها، يتجرأ أن عليه ويؤذنيه ومع ذلك فلم يمد يده الى أية واحدة منهم طوال عمره، والمرة الوحيدة التي وبخهن فيها كانت عندما بدأن يضيقن الخناق عليه ويشكين من أنهن لا يتحملن كل هذا الفقر في بيته، فلم يفعل شيئاً غير أنه، هجرهن، فلم يذهب إليهن للبيتوتة معهن بل نام شهراً كاملاً في مخزن البيت، حتى هدأت نساؤه - واللائي كن يحببنه ويؤمن به في نفس الوقت - وخجلن من تصرفهن، فاستسلمن له، عندها خيرهن بين الطلاق والدنيا أو نفسه والفقر، فاخترن جميعاً - إلا واحدة - ^(١) الرسول والفقر.

إن الرسول (ص) ما كان يحاول إظهار نفسه على أنه إنسان غير عادي، وغامض، تحيط شخصه الرموز، بل على العكس من ذلك كان يتظاهر بالبساطة، ويردد دائماً أنه لا يعلم من الغيب شيئاً إلا ما يوحى إليه، بالاضافة إلى ما يقوله عنه القرآن، «إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ»، فكان يتصرف تصرفاً يظهره كأني إنسان عادي آخر، وكان يحاول أن يبعد الخوف والرغبة منه عن قلوب الناس.

جاءته عجوز يوماً تسأله عن بعض الأشياء، ولكنها ما إن وصلت إليه حتى اخذت ترتجف وبدأت فرائصها بالارتعاد تائراً بكل ما سمعته عنه من الاخبار والعظمة، وعند ما يشعر النبي (ص) بذلك، ويعلم أن شخصيته وجلاله أثرا عليها، يقترب منها بتواضع وبساطة

(١) باعته بالدنيا، فلم تشتريها الدنيا، وماتت فقيرة.

ثم يضع يده على كتفها برقة قائلاً:

- ماذا جرى يا أماه؟ إنني ابن تلك المرأة القرشية التي كانت تحلب

الماعز.

أية عاطفة عميقة هذه؟ أية رقة رائعة، وأي قلب حنون، ذلك

الذي يمتلكه هذا الرجل، إنها العظمة!

اما في البيت فقد كان يتواضع إلى درجة يستطيع فهم إحساس

عائشة ذات التسع سنوات واللحاق به، يقبل يد فاطمة، أما تعابيره

في الحب، فلها خاصية فريدة: «علي مني وأنا من علي، فاطمة

بضعة مني...»

والان الحسن والحسين.

بالروعة مايفعله معها!

إنه من النوع الذي يحب الأبناء، بالذات لأنه كان يتمنى الولد،

في نفس الوقت الذي كان يحترم فيه بناته ويحبهن إلى درجة

لايستوعبها إدراك الرجل المعاصر، ولكن القدر، أبقى له بنتاً واحدة،

وقد جاءت له ابنته الوحيدة بصبيان، فمن الطبيعي إذن أن يحبها بشدة،

تثير دهشة الجميع:

- دخل يوماً إلى بيت فاطمة، ككل يوم، وككل ساعة ولحظة

منذ مجيء الأطفال! دخل، رأى فاطمة وعلياً نائمين، بينما

الحسن يكي جائعاً، ولكنه لم يستطع إيقاظ أعز أحبائه وأحب أعزائه،

فأسرع هو، وحلب نعجة كانت في البيت، ثم أطعم الطفل الجائع

حتى هدأ.

ومر، يوماً، مستعجلاً امام بيت فاطمة، فجأة سمع صوت بكاء الحسين، عاد، ودلف إلى البيت قائلاً لفاطمة بعتاب:
- أما تدرين أن بكاءه يؤذيني؟

كان أطفال علي وفاطمة، يرون في وجه النبي(ص)، سمات الجد، الأب، الصديق، وقريب العائلة، والراعي، ورفيق اللعب، وكانوا أحراراً معه أكثر منهم مع أيهم وأهمهم. مرة تأخر النبي(ص) في السجود. فثار ذلك الدهشة عند الجميع، الذين كانوا قد سمعوا عن النبي توصيته بمراعاة أضعف الناس، وكان يسرع في الصلاة، فظنوا أما أن تكون حادثة قد وقعت، وأما أن الوحي قد نزل الساعة، سألوه بعد الصلاة عن السبب، قال، قفز الحسين على ظهري فهو معتاد على هذا دائماً في البيت، والآن وبمجرد و أن رأني اسجد، ركب على ظهري، لم أحب أن اضعه أنا، فانتظرت حتى تركني هو، لذلك تأخرت في السجود.

ألم يكن النبي(ص) عامداً في إظهار كل هذا الحب لهذين الطفلين الحسن والحسين وأمهما وأبيهما، أمام الناس وبالذات صحابته؟

والأفلاماذا يكرم فاطمة كل هذا التكريم أمام الجميع؟ يقبل يدها ووجهها؟ يمدحها ويشني عليها بهذا الشكل في المسجد؟ يعلن عن حبه وعلاقته غير العادية بهذه الأسره على المنبر؟ وبالذات إلحاقه لهذا الرجاء في نهاية كل مديح للحسن والحسين، لفاطمة وعلي:

اللهم أحبه أنت أيضاً، أو أحبهم أنت أيضاً، من أرضاها فقد

أرضاني، أو من أرضاهم فقد أرضاني، ومن أرضاني فقد أرضاك.
اللهم من آذاها، من آذاهم، فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذاك.
هذه الشروط؟ كل هذا الحب وكل هذا التعبير عن عاطفته
الخاصة تجاه أفراد عائلته... لماذا؟

الغد، يجيب عن كل هذه الاسئلة، فمصير الأسرة، فرداً
فرداً، جواب لهذه الأسئلة.

فما أن يرحل النبي(ص)

أول الضحايا، فاطمة، ثم علي، ثم الحسن، ثم الحسين، أخيراً...
زينب.

السنة الخامسة، سنة بعد الحسين، ولدت بنت لهذه الأسرة، كان
يجب أن تولد زينب مباشرةً بعد الحسين، ثم بعد عامين بنت أخرى:
أم كلثوم.

زينب وأم كلثوم، أسماء بنات النبي(ص).

وفاطمة تصبح «كل شيء» لمحمد و«شيء الوحيد». تموت إبنته
زينب، ورقية وأم كلثوم أيضاً، في السنة الثامنة، يرزقه الله صبياً،
إبراهيم، ولكنه يستردّه منه بعد عام.

وألان، هاهوذا محمد(ص)، والابنة الوحيدة التي تبقى لديه.
فاطمة وأبنائها. هؤلاءهم «أهل بيت النبي».

وحب النبي(ص) للحسن والحسين، يزداد يوماً بعد آخر، وقد
أصبحا كل حياة محمد(ص) فكلما خرج من البيت، وأينما ذهب،
في الازقة، في شوارع المدينة وأسواقها، هنالك دائماً من يرافقه منهما

محمولاً على كتفه.

كان يتحدث على المنبر، والجمع ينصت ساكتاً، فجأة يدخل سبطاه إلى ساحة المسجد، والتي هي في الواقع ساحة منزلهم أيضاً، بقميصين أحمرين يتعثران بمشيتهما لئيبه النبي (ص) إليهما، فلم يستطع غض النظر، ظل يتابعهما برهة، ولكنه أخيراً لم يطلق صبراً، فنزل من على المنبر واتجه نحوها، ثم حملهما وجاء بهما، وعاد إلى منبره، وخاطب المجمع المدهش من كل هذا الحب، وهو يضعهما برقة أمامه.

- صدق الله العظيم «إنما أموالكم وأولادكم فتنة» قد وقع نظري على هذين الطفلين فرأيتهما يمشيان ويتعثران، لم أطق صبراً، حتى قطعت كلامي وحملتتهما.

ولكن يبدو أن مداعبته للحسين، لها وضع آخر، فقوة الحب تتعدى حدها، يمسك بكتفيه، يلاعبه، يتمدد، ويضع قدميه على صدره، يقول له: «إفتح فمك» فيفتح الطفل فمه، عندها يلثمه من شفتيه بحب وحنان لا يوصف قائلًا:

«اللهم أحبه، فانني أحبه».

كان مرة يسير مع بعض أصحابه مدعواً إلى مكان، فرأى الحسين يلعب مع أقرانه في الرقاق، فلم يستطع الصبر والتحمل، إقرب منه وناداه، ولكن الحسين فر من بين يديه، فأخذ يتبعه ويطارده حتى أمسك به ضاحكاً، وضع إحدى يديه خلف رأس الحسين والآخرى تحت ذقنه وقبله بحب وحنان قائلًا:

«حسين مني وأنا من حسين، اللهم أحب من أحبّ الحسين».
دهش مرافقو النبي (ص) من هذا التصرف، والتفت أحدهم إلى
الآخرين قائلاً:

- إنظروا إلى النبي كيف يفعل مع حفيده، عندي صبي والله
لم أقبله يوماً. فقال النبي (ص) الذي إنزعج من هذه القسوة:
- من لا يرحم لأيرحم.

كانت الأيام والليالي تأتي وتمضي، وفاطمة تتذوق أحلى أيام
حياتها فتتسلى بالتدريج مرارة الأيام الصعبة الماضية.
وقعت حرب خيبر، وأعطى اليهود أرض فدك للبنّي، فوهبها
هو إلى فاطمة ذات الأربعة أطفال والتي تخلصت الآن بفضل فدك
من بعض فقرها.

ثم فتحت مكة، وعادت فاطمة برفقة أبيها المنتصر وزوجها
البطل حامل الراية، إلى مكة المكرمة، فشهدت أعظم نصر
للاسلام، وجددت ذكرياتها في مسقط رأسها: المسجد الحرام، وتلك
الحوادث، بيت أبيها، حياتها بجوار أخواتها اللاتي لم يعدن موجودات
الآن، «مولد فاطمة»، شعب أبي طالب، قبر أبي طالب، قبر
أمها خديجة.

هاهي ذي تعود، تنضح نصراً وسعادة، غارقة في الفخر والسرور.
أبوها يرتاح رويداً رويداً من أحقاد العدو، وتخيم ظلاله الوارفة الخضراء
على كل شبه الجزيرة، وزوجها، وجه ضربات إلى العدو في
بدر وأحد والخنق وخيبر وفتح مكة وحنين واليمن، إحداهن

«أفضل من عبادة الثقلين»

وبرفقة أبنائها، الثمار الوحيدة لحياة كلها تعب وألم، ولعلاقه كلها حب وإيمان، واستمرار ذرية أبيها، وهي، قلب العترة، محور بيت واسرة النبي الطاهرة.

أجل، يبدو أن فاطمة، قد استلمت ثواب كل آلامها ومرارتها، وفضائلها.

أما أكثر مايروي ظمأها فهو ماتراه من سعادة مشرقة عند أبيها بولديها، أبيها الجيب الذي حرم من الأبناء الذكور وحتى كل الأبناء، فبناته توفين في شبابهن جميعاً، ولم يبق إلا هي، كما أنه لم يحصل على أي طفل من بقية نسائه اللاتي تجاوز عددهن الثلاث عشرة امرأة بعد خديجة باستثناء إبراهيم، من الجارية المصرية والذي توفي في طفولته، هاهي ترى نفسها الآن وقد جبرت قلبه بحسنها وحسينها وزينبها وأم كلثومها، وعرفته بلقائهم على حلاوة الحياة التي لم يذق فيها إلا المرارة بالذات وقد تجاوز عمر أبيها الآن الستين، فهو بأمس الحاجة إلى هؤلاء الأبناء أكثر من أي وقت مضى.

ها قد بدأت الحياة تعطف وترق، فترسم إبتسامة جميله على وجه فاطمة، وتحيط بيتها بهالة من السعادة والافتخار والعزة. وفاطمة تتمتع بحب أبيها الذي لا يوصف، وعظمة زوجها والحماس الذي يثيره أبنائها في حياتها، تجلس في هودج من السعادة، والكمال وتحقق الأحلام والامال.

ولكن، كل هذه الأشياء، هي سكون ماقبل العاصفة، وجاءت

العاصفة. سوداء، هوجاء، رهيبة، دمرت بيتها.

رقد النبي في الفراش.

ولم يستطع أن ينهض مرة أخرى.

تغيرت الوجوه فجأة في عينيها، المدينة النظيفة الطيبة، إمتلأت بالحقد والبغضاء فالسياسة، قد سلبت مدينة محمد(ص) الايمان والاخلاص، تفككت الروابط الأخوية، وعادت الروابط القبلية تتنفس من جديد.

إذ لم يعد النبي(ص) هو الذي يدير المقود.

يرسل في طلب علي، فتخبر عائشة وحفصة أبيهما.

بالأمس، سمعت صوت عمر يصلي في محراب أبيها، واليوم صوت أبي بكر.

جيش أسامة، يتوقف في الجرف ولا يتحرك، برغم إصرار أبيها على تحركه، إذ يرتفع صوت الاعتراض على إختيار أسامة قائداً للجيش، بالرغم من أن من اعطاه الراية هو النبي نفسه(ص).

واليوم هو «الخميس» وياله من خميس، تغرورق عينا أبيها بالدموع، أمر أن «إئتوني بلوح وقلم كي أكتب لكم شيئاً لن تضلوا بعدي أبداً، أثاروا ضجة، لم يدعوه يفعل ذلك، قالوا إنه ليهجر، قالوا كتاب الله موجود، ليس هنالك حاجة للكتابة.

وها هوذا أبي صامت في بيت عائشة، مجاوراً لجدار بيتي، رأسه في حضن علي، فشفتاه لاتنطقان، يتكلم معي بعينه أكثر:

إنني لاطاقة لي على كل هذا الضيم - وهو أبي - وأنا كنت أمه.

كيف له أن يتركني وحيدة مع هؤلاء؟

ولكنه لا يرفع نظره عني، قلق على أكثر من ي شخص آخر، قرأ في وجهي ما أعانيه من ألم. رق قلبه على فاطمة، ابنته، أصغر بناته وأحبهن إليه.

أشار إلى بعينه، أحنيت رأسي على وجهه، قال في أذني أن هذا المرض هو السام، إنني راحل.

رفعت رأسي، هجم على الشقاء والمصيبة حتى أعجزانني، فمصيبة بقائي بعد أبي، كادت تمزق قلبي.

لماذا يخبرني أنا فقط بهذا؟ أنا التي هي أكثر الجميع عجزاً عن تحمل ذلك. ولكنه لا زال ينظر إليّ، رق قلبه على حيرة واضطراب صغيرته المحتاجة إليه كطفل صغير أشار مرة أخرى، كأنما يريد الاستمرار في كلامه، قال:

- ولكن أنت يا ابنتي، ستكونين أول أهل بيتي لحوقاً بي، ثم أضاف:

- أما ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة أو نساء العالمين؟

يا له من عزاء عظيم. أية بشرى غير هذه تطفئ نار هذه المصيبة؟ رائع أنت يا أبتاه. تعرف كيف تسلي فاطمة وتواسيها، وتعرف لماذا على أنا من بين كل هؤلاء أن أسمع هذا الخبر، والان، بامكاني أن أبكي، وأن أنوح:

وأبيضُ يستسقى الغمام بوجهه

ثمّال اليتامى، عصمة للأرامل

فجأة فتح النبي (ص) عينيه، قال لها:

- فاطمة، هذا شعر أبي طالب في مدحي. لا تقرأي الشعر،

إقرئي القرآن، إقرئي: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله

الرسل، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم» ثم قال:

- لعن الله قوماً صنعوا من قبر نبيهم معبداً لهم.

لم يدعه السياسيون يكتب شيئاً، سألوه أن يقول ما يريد كتابته

بلسانه. نظر إليهم متألماً وقال:

- إن الذي أنا فيه، خير مما تدعونني إليه.

ثم أوصاهم، إذ استمروا يلحون عليه في ماذا أردت أن تكتب،

بثلاثة أشياء هي أولها طرد المشركين من جزيرة العرب، وثانيها إستقبال

وفود القبائل العربية كما كان يستقبلها هو، وثالثها:....!

صمت!

تحولت الأنظار فجأة إلى علي، وعلي، كان غارقاً في تفكيره،

ملتزماً الصمت مع حزنه، سكت أبي، وطال سكوته، تعلقت عيناه

بمكان ما، واستقرت نظراته الفادقة بالدموع على نقطة في باله،...

إنصرف الجميع.

صرخت من فرط ألمي، ما أعظم مصيبتك عليّ يا أبتاه!

ولكنه قال في جوابي، بصوت قرأت فيه كل معاني الراحة

والخلاص:

«لاهم لأبيك بعد اليوم».

وأطبقت شفتا أبي.

الشفتان الناطقتان بالوحي، الشفتان اللتان كانتا تقبلان إِبنته وأبناءها. نظر إلينا برهة، ثم إنطفأت نظراته، وسال الدم من فمه. كان رأسه على صدر علي، وكان على صامتاً، صمتاً رهيباً وثقيلاً، كأنه ميت قبل النبي(ص)، إنحنيت عائشة على أبي وكذلك بقية نسائه.

أجل، أجل!

مرت لحظات الرهبة والهول، في صمت الموت. فجأةً، سقطت يداه اللتان وضعهما على رأس أسامة داعياً، وتحركت شفثاه.

إلى الرفيق الأعلى.

وانتهى كل شيء.

أبتاه. يا أبتاه!

أجاب رباً دعاه،

إلى جبريل تنعاه.

ارتفع الضجيج في الخارج. كانت المدينة تبكي بخوف وشك وجاءني صوت عمر يقول: مامات رسول الله، ولا يموت حتى يظهر دينه على الدين كله، وليرجعن فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم ممن أرفج بموته، لا أسمع رجلاً يقول: مات رسول الله إلا ضربته بسيفي.

إنصرمت عدة ساعات، هداً الوضع فيها، رأيت أبا بكر وعمر يدخلان، رفع أبو بكر الغطاء عن وجه أبي، بكى ثم ذهب، هو أيضاً

إنصرف، وعلي إنشغل بغسل النبي(ص) وتكفينه^(١).

كان زوجي أبو الحسن، يعسل جسد أبي الطاهر وهو يكي، يسكب الماء على جسده، والنار على روحه هو، إذ، فَقَدَ الناسُ نبيهم، والمساكين ملجأهم، والصحابة قائدهم الرحيم، وأما، أنا وعلي، فقدنا كل شيء، فجأة شعرت أننا عدنا غريبين في هذه المدينة، وفي هذا العالم.

تغير كل شيء دفعة واحدة، الوجوه، تقطر غربة، والأبواب، الشبابيك، والجدران تقطر خوفاً، ونصبت «السياسة» خليفةً «للصداقة».

إبتعدت الأيادي التي كانت تتصافح بعهد «المواخاة» عن بعضها، وإقتربت أيادي الأقارب والأهل، فعادت الطبقة إلى الحياة، إلى جانب جسد أبي الذي فقد الحياة.

أما أنا وعلي، فقد كانت الفاجعة أكبر علينا من أن نفكر في غير وفاة النبي(ص) ففي الحين الذي كانت المدينة تُملأ بالمشاريع والمؤامرات والمنازعات، كان العالم يبدو فارغاً في أعيننا.

جاءنا العباس، عمنا الكبير وقال مخاطباً علياً، بينما القلق والخوف مرتسم على وجهه:

- هات يدك لا بايعك، كي يقولوا أن عم رسول الله بايع ابن عم

(١) صرحت بذلك كل من الكتب التالية: طبقات ابن سعد، سيرة ابن هشام ومسند أحمد بن حنبل.

رسول الله، فيبايعك أبناء عشيرتك، وعند ما يحصل هذا الأمر،
لن يعود...

- ماذا؟ فهل يطمع آخر في هذا الأمر؟

- ستعلم ذلك غداً.

أحس عليّ بالخطر، ولكن هذا الاحساس لم يكن إلا كبرقٍ إلتمع
في صدره واختفى.

فباطنه مشغول. بحزن آخر. محمد كان قريب علي وأباه، ووليه،
معلمه، أخاه، صديقه، نبيه، وكل ما يدعو عليه للفخر، ورأس مال له،
وإيمانه وعاطفته ووجوده، وعلي ما كان قادراً على التفكير بغير
ما يجري في داخل هذا البيت، فقد كان يحس بروحه تحت يديه
الباردين المرتعشين، حين كان يغسل النبي(ص) كان هو مشغولاً
بتغسيل النبي(ص)، وكنت أنا بأبنائه... أبنائي.

الحسن ذو السنوات السبع، الحسين ذو الست، وزينب ذات
الخمس وأم كلثوم ذات الثلاث سنوات، هؤلاء هم الصغار الذين
لم يهبهم القدر من بعده سوى الحقد والألم.

وفي خارج المدينة في «السقيفة» كان أصحاب النبي المدنيون
(الأنصار) مجتمعين لاختيار خليفة النبي(ص) من بينهم، فقد أحسوا
أن المهاجرين المكيين (القرشيين) قد خططوا لأنفسهم شيئاً ما، ولكن
أبا بكر وعمر وأبا عبيدة يوصلون أنفسهم بسرعة، ويقنعونهم بأن النبي
قال «الخلافة في قريش» فاستدلوا من ذلك، على أن الخليفة يجب
أن يكون من أقارب النبي(ص)، وانتخبوا أبا بكر.

لا قلب يدري، أي شئ يفعلُه الألم بقلب فاطمة الحساس اليقظ.
فحب فاطمة لأبيها أعظم وأقوى بكثير من حب أي فتاة تهيم
بأبيها، هذه البنت هي أم أبيها أيضاً، ورفيقة غربته ووحدته، المريحة
مهمومه وأحزانه، والمجاهدة معه، المشاركة له في حصاره وآخر بناته،
البنت الصغيرة للنصف الثاني من عمر أبيها، أصغر البنات،
والابن الوحيد له في هذه السنين الأخيرة، وتركته الوحيدة بعد الموت،
مصباح عترة الوحيد، عماد أمله الفريد، وأخيراً، الأم الوحيدة لأبنائه،
ذريته، زوجة عليه، فاطمته.

لقد عاشت فاطمة وابتدأت حياتها في حضن أمها وأبيها عند ما
لم يكن هنا لك أثر لثروة أمها، وخلو بال أبيها، ومرح أخواتها
الطفولي، كانت الأم قد تجاوزت الخامسة والستين (١)، وتبدل حالها
من الثروة والجاه والغنى، إلى الفقر والعجز والشيخوخة وحقد وعداوة
المحيطين بها، وخديجة، قبل أن تكون أماً لفاطمة وزوجةً لمحمد، هي
المرأة التي كانت أكبر مرافقي الرجل الذي تحمل عبأ الرسالة بسهولة
على عاتقه، رسالة تنوير الجاهلية السوداء، وإهداء الدفء الإلهي إلى
ضحايا شتاء الظلام وإنقاذ الأسرى في قيود النظام الاقتصادي القائم

(١) كانت خديجة في الأربعين من عمرها عندما تزوجها النبي (ص)، أو ٤ عاماً
حسب رواية أخرى، وولدت فاطمة في السنة الخامسة قبل البعثة، فإذا قبلنا بالرواية
الأخيرة، التي يعتقد بها مؤرخو الشيعة فإن فاطمة الصغيرة، عاشت مع أمها في أيام
كانت فيها الأم بين الستين والسبعين عاماً، وهي السنين التي لم تعد فيها خديجة،
هي خديجة الثرية، بل الفقيرة، المتألمة والمعجوز.

على الرق، وسجن الوثنية. وها هي أم فاطمة مشغولة بمحمد(ص)،
المثارة في داخله عاصفة عجيبة من الأحقاد والالام وبغضاء عبودية
المادة والخصومة، أم فاطمة مشغولة بآلام وثورات محمد(ص)،
ومحمد بآلامه وثوراته، بربه ودعوته وناسه، فتشعر فاطمة تماماً في
نفس السنين المحتاجة فيها إلى عطف ورعاية الأم والاب، أنهم بحاجة
إلى عطفها ورعايتها أكثر.

وهكذا أحبت فاطمة أباهاً حباً ليس كحب أي فتاة
لأيها، فالإخلاص والعاطفة التي تحسها نحوه والعلاقة التي
لاتنهار، ولا توصف، التي تربطها به، هي وليدة سنين حافلة
بالمصاعب والأحقاد والخوف والعذاب التي كان أبوها البطل
ضحيتها، كان فيها غريباً في وطنه وبين أقاربه، محارباً من
كل الجبهات ومجابها بالجهل والوثنية، حاملاً رسالة إلهية ثقيلة،
وحيداً في طريقه الطويل من الأسر إلى الحرية، فريداً في صعوده
من مستنقع الضلال في مكة إلى قمة جبل النور، متألماً من الأحقاد
والخيانة والجمود في الفكر، وإنحراف الناس، جراحه تسعر في القلب،
وتؤذي جسده، بُعث إلى قوم هم أكثر الناس إيذاءً له، وأقاربه الذين
هم أقرب إليه من الجميع، يؤذونه أكثر من غيرهم ويتعدون عنه
ويتركونه وحيداً، غريباً، وهو روح متألمة وحيدة، يتحمل من جهة
عداوة الأعداء، وبلاهة الناس، ومن جهة ثانية وحدته، وغربته، وحمل
عبء تلك «الأمانة» التي «عُرِضت على السماوات والأرض فأشفقن من
حملها» والكلمات التي تواتيه متتالية من الغيب، تلك الكلمات التي

إذا أنزلت على جبل خرّ خاشعاً متصدعاً من خشية الله، تصهر الحديد وتذويه، ولكنه بالرغم من كل هذه الآلام، تقوده كل صباح، النار المشتعلة في داخله، في أعماقه كي يتحدث إلى قومه، يصعد على تلّ «الصفاء» ويدعو الناس ويحذرهم من الخطر، مبلغاً رسالته في صحن المسجد الحرام، إلى جانب «دار الندوة» وأمام أعين أكثر من ثلاثمائة وثلاثين صنماً أخرس لا إدراك لها ولا روح - يعبدها الناس - ينادي بالحرية، ويدعو لليقظة، وفي نهاية اليوم يعود منهكاً تعباً، بجسد مجروح وقلب طافح بالألم ويدين فارغتين، إلى البيت، خلفه ضوضاء الشتيمة والاستهزاء، وأمامه بيت صامت وعجوز ممتلئة حباً تنتظره على أحر من الجمر.

وكانت فاطمة، طفلة صغيرة، ضعيفة، ترافق أباه، في أزقة المدينة الحاقدة، في المسجد الحرام، الناضح سباباً واستهزاءً واذىً، ترافقه، كحمامة يخرج فرخها من العش فتواجهه انياب وأسنان الطيور المتوحشة والحيوانات المفترسة، تظلل أباه لوحدها، وتحميه بكل وجودها، تحتضن البطل الفريد، بيديها الطريتين الصغيرتين، تمسح الدم عن جسده بأناملها اللطيفة وتداوي جراحه بكلماتها الطفولية البريئة، فتعود بهذا المتألم الكبير إلى البيت، وتثير بين أمها الحزينة وإيها المتألم مشاعر الحب والحنان، وعندما يعود أبوها من الطائف، دامياً وحيداً، تخفّ لاستقباله، وتنسيه كل آلامه وتشرده بمحاولاتها الطفولية، فتسلي عن قلبه بشوقها الشديد، ثم تشاركه حصار الأعداء له

ثلاث سنين متوالية، جوار أمها المريضة، الحزينة، وأبيها المشغول، وتحمل الجوع والحزن والوحدة والمصاعب التي لا تحصى، وتملأ الثغرة التي تحدث في حياة أبيها بعد موت أمها وعمها، ابوها الذي عاد وحيداً في بيته، خارج بيته، ترعاه رعاية الأم لابنها، وتروي حسه الأبوي، بحبها، فتوقف كل حياتها له، وتهب القوة والفخر بتقواها وإيمانها برسالة أبيها، وها هي ذي تعيد له الأمل بذهابها إلى بيت علي، واختيارها لفقره وشرفه، فتهدى أباه المحروم من الأبناء والمصاب بفقد ثلاث من بناته، الحسن والحسين وزينب، أحلى وأعز ثمار حياتها المليئة بالالام، هذه هي الأشياء التي خلقت في روح وضمير فاطمة طوال ثمانية عشر عاماً أو ثمانية وعشرين عاماً، علائق أكثر صميمية من علاقة الأبوة والنبوة، وأشد من الحب، أكثر إخلاصاً من العزيمة والإيمان، وأغنى من المحبة.

وها هي الان، ترى كل هذه الخيوط يقطعها الموت، وعليها أن تكون وتعيش، بدونه!

ما أقسى هذه الضربة الموجهة على قلب فاطمة الرقيق وجسدها الضعيف! هذه الفتاة التي عاشت بحب أبيها، بإيمانها بإيمان أبيها، ومن أجل أبيها.

ولم يكن صدفةً، إهتمام النبي (ص) بمواساتها هي من دون الآخرين، على فراش الاحتضار، كى يهبها القوة التي تتحمل بها صدمة موته، وما كانت هذه القوة إلا بشرى وفاتها القريبة من بعده، فكان لها هذا الحظ، وهذا القرب الخاص الذي أهلها لأن تكون أول

من يلحق به .

فمن أجل أن تنتهي فاطمة (ع)، بأعنف صدمة تستطيع الطبيعة أن توجهها لها، فتموت فجأة بافجع شكل، كان يكفي لذلك موت أيها، ولكن القدر لم يكتف بذلك، فجاءتها الصدمة التالية، الصدمة التي إن لم تكن «شديدة» كالأولى، فلاشك أنها كانت عميقة مثلها ولربما أعمق. لم تتمهل يد القدر، جاءت الصدمة التالية مباشرة بعد الأولى، بفارق عدة ساعات فقط.

إختير شخص آخر خليفة للنبي (ص). ولايفرق من يكون هذا الشخص، أبابكر، أم غيره، المهم أنه لم يكن علياً.
هنا لتضح كل شيء!

لماذا توقف النبي (ص) عند غدير خم، بعد حجة الوداع، وعرف علياً، على أنه خليفته، أمام الجميع، ثم أخذ لإعترافهم بأن ولايته مرادفة لولاية علي.

ولماذا، وفي نفس هذه الرحلة تنصب مجموعة كميناً للنبي (ص)، في إحدى منعطفات طريق جبلي، قبل الدخول للمدينة، كي تغتاله هو - وربما عليا - واضح أن هذه المؤامرة لها علاقة بحادثة غدير خم، إذ لاحادثة تمر في أيام الانتخابات على سبيل الصدف.

ولماذا، لايفش إسم أي واحد من هذه المجموعة، التي يعلم بها النبي (ص) قبل أن يحدث أي شيء، فيأمر بازالتها عن الطريق، بينما هي ليست حادثة عادية. خصوصاً وان التاريخ ينقل أقل الحوادث أهميه واكثرها تفاهة في حياة النبي، لشدة تعلق أصحابه به وإهتمامهم

بتفاصيل حياته. (١)

ولماذا يذهب النبي (ص) الكبير في السن، في آخر حرب له (غزوة تبوك)، مع بقية صحابته الذين كانوا رجال سياسة أكثر منهم رجال سيف وقاتل، للحرب مع الروم المحاربين الأشداء في الشمال متحملاً بذلك خطر الموت ولكنه يستثني علياً، ويستخلفه على المدينة، بالرغم من رغبة عليّ الباطنية، وشماتة اليهود وإستهزائهم به، فيقول له: «إنما خلفتك لما ورائي، إن المدينة لاتصلح إلا بي أوبك فأنت خليفتي في أهل بيتي ودار هجرتي وقومي، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لاني بعدي» بينما هو رجل السيف، بطل الحروب الكثيرة، وحامل الراية، في غزوات النبي (ص)، الشهيرة؟

ولماذا يرسل جيشاً إلى الروم، وهو على فراش الموت، ومن أجل حرب تأرية، لإضطرابية أو دفاعية؟

ولماذا يرسل معه أبابكر وعمر، وباقي الكبار والسياسين ذوي النفوذ القوي؟ ولماذا ينصب بيده لقيادة جيش كهذا، يحوي كبار القوم، جندياً شاباً - في التاسعة عشرة من عمره -، ويغضب لإنتقادهم

(١) بالذات في ذلك الوقت، فالنبي (ص) كان في ذروة قدرته السياسية، ونهاية عمره، ولم يكن قد بقي وله عدو في كل شبه الجزيرة العربية، خصوصاً الحجاز، وبالذات في المدينة، فمن يقوم بمؤامرة كهذه ضده ويستفيد منها؟ وحدها القدرات الداخلية هي التي يمكن أن تخلف النبي في هذه الأيام، فتستفيد بالطبع من قتله لذلك، لا الأعداء الخارجيين.

ومعارضتهم قائداً كهذا برغم صغر سنه ويعلن أمامهم جميعاً أن ملاك الرئاسة والقيادة ليس السن بل الأهلية لذلك، والكفاءة؟ ولماذا يصبر بهذا الشكل وهو على فراش الموت، ويعيد ويكرر ويؤكد، على حركة الجيش بسرعة وتحرك أولئك «الشيوخ» معه، باستثناء علي؟

ولماذا أثاروا كل تلك الضجة عندما طلب دواة وقلماً ليكتب لهم شيئاً لا يضلوا من بعده أبداً؟ وحتى أنهم أهانوه وأهانوا نساءه اللواتي كن ينادين من وراء حجاب باعطائه الدواة والقلم، إنه يريد أن يوصي فثار عليهم وقال أن هؤلاء النسوة أفضل منكم، ثم أمرهم جميعاً بالانصراف؟

ولماذا أوصاهم في آخر لحظات عمره ثلاث وصايا، ذكر منها اثنتين، وسكت عن الثالثة؟

ولما أرسل (ص) على علي (ع)، عندما نادى بلال للصلاة ولم يستطع هو أن ينهض من فراشه، وفجأة، حضر الاثنان بعد إخبارهما من جانب إبنتيهما، وحين رأى الثلاثة أمامه، سكت، وصرفهم دون أن يقول شيئاً.

لماذا...، ولماذا...، ولماذا...؟

ولماذا تكلم النبي (ص) في آخر أيام عمره بكل هذا القلق والخوف بالرغم من قوته وإقتداره ونفوذه، بعد أن كان يتكلم بثقة وأمل في أصعب أيام الحروب، وأشد أيام الوحدة والضعف وقوة الأعداء في السابق؟

ولماذا ذهب في أول ليلة زاره مرض الموت، مع خادمه أبي مويهبة إلى المقبرة، وتحدث مع القبور الصامته المظلمة قائلاً:

«السلام عليكم يا أهل القبور، ليهنئكم ما أصبحتم فيه، مما فيه الناس، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع أولها آخرها... (١)».

أجل، ها هي الأيام، تجيب على كل هذه التساؤلات، قطع الليل المظلم، يتبع أولها آخرها، وعلي، أكمل دفن النبي (ص) بينما كان الصحابة الكبار يكملون دفن حقه!

خرجوا من «السقيفة» إلى المسجد كي يلقي الخليفة خطبة وتولية الأمر... وخرج علي من بيت النبي (ص) الفارغ، عائداً إلى بيت فاطمة كي يبدأ خمساً وعشرين عاماً من الوحدة والعزلة المؤلمة السوداء.

وفاطمة، هي التي كان عليها أن تتحمل عبء وفطاعة هذه الضربات الموجعة القاسية على روحها الرقيقة.

فقد رحل عنها أبوها، معتمدها، وأحب أعزائها، واعتزل عليّ، أخوها، زوجها، صديقها، وقريبها الوحيد الباقي، إعتزل الحياة، وجلس في البيت وحيداً مثلها. كأن الجميع أصبحوا غرباء عنهم، في غضون ساعة واحدة، ولم تعد المدينة تعرفهم.

والإسلام؟ هذا الإيمان الذي جاهدت من أجل إرساء دعائمه منذ نعومة أظفارها، خطوة، خطوة مع أبيها، وعبدت طريقه بالتضحية والصبر والتحمل والحصار للمالكيين الملاحقين، وسعت، بكل قواها

(١) أخرجه النسائي وأبوداود وابن ماجه، وأحمد بن حنبل في مسنده.

وإيمانها و وجودها، من أجل تثبيت دعوة أبيها عند الناس، ومن أجل إحكام أسس العدل والحقيقة والحرية والتقوى والأخوة والمؤاخاة بين الناس، ومن أجل أن تسير هذه الأمة الفتية العاجزة القليلة الوعي - التي تخفي في باطنها جرثومة الأمراض الإجتماعية السابقة - على الطريق الذي يقودها فيه «الرسول الأمي» ص في موكب العلم والوعي والعدل والعصمة والأنسانية.

ولكن، يبدو أن كل شيء لإنهار أمام عيني فاطمة، كل الجدران والأسس والأبراج والقلاع التي أرسيت قواعدها بكل تلك الآلام والمكابدات، ها هي تسقط الآن، فجأة.

يُعين مصير الإسلام ومستقبله في السقيفة، بغياب عليّ وسلمان وأبي ذر والمقداد وعمار، وعدة أخرى كهؤلاء، وهاهم مجتمعين في بيت فاطمة، غاضبين، وحزينين، لماذا بقي هؤلاء أوفياء لعلي (ع)؟ ذلك لأنهم ليسوا من سادة الأوس والخزرج كي يكون لهم إسم وعنوان في المدينة، ولاهم من الأسر القريشية الأصيلة، التي تتمتع بمقام ومكان رفيع في المجتمع، حصلت عليه، بناءً على حس التفاخر القبلي، والإحترام الطبقي كي يخالفوا النبي (ص) و«تجمع» على إنتخابهم الطبقة التي تهتم للشرف والسيادة العرقية، ويرتبطوا بعلاقات عائلية والتزامات طبقية وضرورة الدم أو المال، فتجرهم إلى إحدى الأجنحة السياسية والفرق الإجتماعية المقتدرة. فهم إما رجال غرباء كسلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري القادم من الصحراء، وعمار - الذي كانت أمه جارية سوداء إفريقية - وأبوه يمني بدوي، أو أشخاص لامكانة

اجتماعية لهم ولا مقام ولا مال، رجال بسطاء معدمون، مساكين،
كميئس التمار!

كان النبي (ص) يحبهم ويعتز بهم، والآن، وقد ذهب هو، عادوا
إلى مسكنتهم، قد تغيرت القيم مرة أخرى.

لاملجأ لهم إلا علي. وعلي، في المدينة، في نظام القيم القديمة
التي تجددت اليوم: شاب في الثلاثين وأكثر (مقابل الشيوخ)، معدم،
فقير، بلا حزب ولا تحزب سياسي أو قبلي. قيمه التقوى، العلم،
الشجاعة، والثبات، في سبيل الأفكار البعيدة، الوعي، الإقتدار الفريد
في البلاغة و السيف، ورأس ماله: الأخطار التي إستقبلها في الوفاء
للنبي (ص). والضربات التي وجهها بسيفه في الحروب، ودماء الكثير
من أعداء الأُمس الحاقدين - الأصدقاء المستسلمين اليوم - التي أراقها
بأمر من النبي (ص).

هذه القيم، أثارت حسد الأصدقاء وغيرتهم من حيث يشعرون،
ومن حيث لا يشعرون، وهذه التضحيات والشجاعة، زادت من حدة
حقد الأعداء، فاتحد الفريقان لذلك، في الهجوم على علي، والتنديد
به، وكيال التهم إليه، ومحاولات الخط من شأنه، وحرمانه من حقوقه،
وتركه وحيداً فريداً.

عندما تسمو روح ما أعلى من مستوى العصر الذي تعيش فيه،
وتنضج بصورة أكثر مما يتحملها الناس، ستصبح «وحيدة»،
ف «وجودها» الثقيل الممتلئ والجميل والغني، سيحتقر تلقائياً
«الوجودات» الجوفاء، الخفيفة، البشعة والمعدمة: - وإن تواضعت في

سلوكها الظاهري -، وعندها سيتحد عدوها وصديقها، - من حيث يشعرون ولا يشعرون - في إنكار شخصيتها الكبيرة أو سحق حقها الصريح الواضح، فالمنافع مشتركة، وعندئذ سيحاول الصديق والرفيق أيضاً - والذي تفضح عظمة وجودها حقارته وخواءه الروحي - أن يقربها منه، بانكار أو مسخ فضائلها أو تحقير شخصيتها، كي يزيل الفارق المؤلم بينهما بهذه الصورة، لا يستطيع هو أن يصل إليها، إذن، يجرها إلى الخلف، نحوه، حتى تصل إليه، وفي هذا الطريق سيتحد مع العدو ويشتركان في المصلحة والمنافع، فيحتاج إلى العدو من أجل تسقيطها فيضطر لأن يصبح ألعوبة بيد العدو، ومأموراً مجانياً، وخادماً للظلمة.

لهذا كان يجب التقليل من شأن علي.

ولهذا نرى بني أمية - أعداء المهاجرين والأنصار، وخصوم علي وعمر - يعلنون في كل مكان: ان علياً هو «أبو تراب»، علي لا يؤدي الصلاة، «كتاب الوحي». جامعوا القرآن، أخوال وأقارب النبي، هم بنو أمية، أم المؤمنين هي بنت أبي سفيان، وبيت أبي سفيان - الذي هو كبيت الله في مكة حسب رأي النبي - مكان آمن عام، وحرام وأمن لكل من لجأ إليه... تقولون إن علياً قتل في محراب المسجد؟ أي قصة هذه؟ فماذا كان يفعل علي في المسجد؟ ماله والمحراب؟ فهل كان علي يؤدي الصلاة؟

واضح أن هذه الأحقاد هي آثار ضربات بطولية في بدر والخنندق، تعفت الآن، وظهرت آثارها.

ولكن الصديق، الصديق الذي كان في بدر والخندق مع علي(ع)، ضد بني أمية، يصبح الآن صديقاً لبني أمية في كل ما يقولون... لماذا؟

لأن هؤلاء «كبار الصحابة المشهورين» هم الذين كانوا مطّاطين رؤوسهم في الخندق، بينما وجّه علي الشاب ذو السابعة والعشرين عاماً، ضربة للعدو، أخافته، وأذهلته، فارتفع هتاف التكبير عالياً من قلوب المسلمين، وقال النبي(ص) في ذلك: «ضربة عليّ في الخندق تعادل عبادة الثقلين»، ولكن هذه الضربة، تحقر أولئك الذين كبروا من قلوبهم، وأولئك الذين أثّرت مشاعرهم وعواطفهم بهذه الضربة، وإستفادوا منها، ونجوا، وافتخروا، ففي عقلهم الباطن تبذر بذور الحسد، لا يرونها ولا يراها أحد، ثم تنمو هذه البذور، وتورق وتثمر، حتى بدون شعورهم، فتغطي كل روحهم وفكرهم، وتظللها، وتتجذر في صميم عظامهم.

في معركة خيبر، يأخذ أبو بكر الراية، ويذهب لفتح الحصن، ولكنه يعود مهزوماً بعد مساعي حثيثة يذلها، ثم يذهب عمر ويعود مهزوماً كذلك، عندها يقول النبي(ص): «والله لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله».

فيعطيهما علي(ع)، فيفتح علي الحصون، الواحد تلو الآخر بشجاعة فائقه، نادرة المثل.

في بدر، في أحد، حيث فر - الصحابة الكبار الذين يعتبرون أنفسهم أكبر سناً من علي(ع) وارفح منه مقاماً إجتماعياً - أو جلسوا في

زاوية: بخوف ويأس، كان علي(ع) كالبرق الصاعق، وكالرياح الشديدة، يطوي ساحة القتال، بفرسه، ويشكل جبهة جديدة، في وسط الحيرة والخسارة الحتمية.

وفي فتح مكة، كان حامل الراية، وفي صفين، عندما كان الرجال ذوو النفوذ والإعتبار يهربون من مضيق حنين إلى درجة قال لهم أبو سفيان ضاحكاً باستهزاء:

«لانتهي هزيمتهم حتى البحر»، كان علي(ع) كصخرة عظيمة، يسد فوهة المضيق، وهكذا كانت هذه السيوف، تخلق العداوة عند العدو المواجه، والحسد والشعور بالحقارة والتضاؤل عند الصديق.

ولذلك يتحد العدو والصديق في جبهة واحدة عندما تطرح شخصية وفضيلة علي(ع)، ويحتاج عندها العدو للصديق، والصديق للعدو، ولهذا كان عليهم أن يتهربوا من حقارتهم التي فضحتهم عظمة علي(ع)، بالتقليل من شأنه عليه السلام. كيف؟

بغض النظر عن فضائله الأكيدة، وعدم طرحها، وفي حالة أسوأ تشويهها وتبريرها، وكذلك إكالة التهم إليه، وإذا لم تصل حقارتهم ودناءتهم لهذا الحد، فالسكوت عن القيم والمبادئ، أو المبالغة في ما يمكن تسميته نقطة ضعف، أما إذا كان الإنصاف في مستوى عمر وأبي بكر فالإعتراف بحق علي، ولكن، ومن أجل إغتصاب حقه وسحق حقيقته، فالتذرع بحجة المصلحة العامة، أو بصغر سنه، أو بالادعاء بأنه رجل سيف وزهد وعلم، لا يعرف شيئاً عن السياسة، وشجاع، ولكنه لا يجيد فنون الحرب! أو بسبب أن له أعداء كثيرين،

فهو قد قتل الكثير من أفراد الأسر الكبيرة، وذات النفوذ، في حروب النبي(ص)، ولا تزال تلك الأحقاد ساخنة، إذن فليس من مصلحة الإسلام أن ينصب هو!.

علي؟ إنه يمدح نفسه كثيراً! (لاحظوا عقد الحقارة تتضح هنا أكثر من أي مكان آخر).

علي؟ نعم ولكن «لله أنت لولا دعاة فيك، أما والله لو وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء».

والنتيجة؟ يداس حق علي، على يد بني أمية، وعلى يد عمر عدو بني أمية أيضاً، ورفيق علي في الحروب، وينتصر عثمان على أيد بني أمية أقربائه، وعلى يد عمر عدو بني أمية.

وفاطمة، تعرف كل هذا، تعلمه جيداً، فهي ليست قعيدة بيت جاهلة، ففاطمة عرفت طريق الجهاد ومارست التبليغ والإرشاد، وهي التي أمضت طفولتها في عاصفة الثورة، ونضج شبابها فوق نار سياسة زمانها، وهي امرأة مسلمة، المرأة التي لاتعفيها العفة الأخلاقية من مسؤوليتها الاجتماعية.

هاقد مضت عدة ساعات على دفن النبي(ص)، لإجتمع علي مع عدة أشخاص من بني هاشم ومجموعة من أصحاب النبي الأوفياء إعتراضاً على ماجرى في السقيفة وامتناعاً عن البيعة التي دُعي الجميع إليها، وفي المسجد، كان الخليفة قد أتم القاء خطبته، وأخذ البيعة من الناس.

وأما عمر، السياسي المهنك، فقد بذل كل جهده من أجل

إزالة كل العوائق الأخرى عن طريق الحكم.

سعد بن عبادة، أمير الخزرج، رجل ذو نفوذ وقدرة، ومرشح الأنصار في السقيفة لم يرض بمبايعة أبي بكر، فترك المدينة ومهاجراً نحو الشام اعراباً عن معارضته، وفجأة ورد خبر أنه أُغتيل في الطريق وأن الجن هم الذين أصابوه بسهم.

كان وضع القبائل ما يزال غامضاً، وإن كان هناك احتمال عدم قبول البعض لخلافة أبي بكر، ولكن بؤرة الخطر، هو بيت فاطمة، أجل، ومنذ ذلك اليوم، أصبح بيت فاطمة دائماً منطلق الخطر على الحكومات.

والتاريخ الآن، يفكر بثلاث نقاط في المدينة، بتأمل كبير:

المسجد، بيت فاطمة، وما يجاوره، بيت النبي (ص) الذي صمت الآن، والعجب في أن هؤلاء الثلاثة متجاورون، جداراً، بجدار. أجل، ليس هنالك بينهما إلا مسافة قصيرة.

إن عمر غاضب على نقطة المقاومة الوحيدة هذه ضد الحكومة الجديدة وهو الذي بذل جهوداً كبيرة من أجل إستقرار السلطة بيد أبي بكر، لا يمكنه تحمل وجود فقه معارضة اجتمعت في هذا البيت، البيت القائم في المسجد، الذي هو «مجلس برلمان» و «مقر حكومة» الخليفة، وفي ركن إسمه بيت فاطمة، والوجوه المجتمعة ليست إلا أعز وأحب الوجوه التي كانت تحيط بالنبي (ص) بالأمس.

وفاطمة، المحصورة كحمامة جريحة بين فاجعتين موجعتين. وفاة أبيها، وسلب حق علي، غائصة في أحزانها السوداء، تفكر

بالماضي، وبآبيها، وما كان أشد قلقها على الغد، والمستقبل، أين سيؤول مستقبل دين «العدل والقيادة»؟ كانت ذكريات الماضي، الحلوة والمرّة، قد إنهالت عليها، فسمت بروحها، كطائر فر من الفقص، نحو الأعالي، مع روح أبيها، في آفاق الماضي والأمس، فأنستها ولو للحظات فظاعة الكارثة، وسكنت من آلامها، وإن قليلاً. ولكن فجأة، تصاعد الضجيج من المسجد، فأنصتت فاطمة، وإذا به صوت عمر يأتي رهيباً واضحاً بين بقية الأصوات، مهدداً بحرق بيت علي على اهله.

وفاطمة سمعت ذلك، واضحاً. وكان الصوت قد إقترب تماماً. باب بيت فاطمة يفتح على المسجد، فسمعت أصواتاً تقول باستنكار: في الدار فاطمة! فيجيهم بنفس الصوت:

- وان... وها هو غلام عمر ممسكاً بالنار في يده.

إذن فالنار أمام بيت فاطمة.

والضجيج والضوضاء، ومن بينها صراخ عمر المرعب:

- يا علي، اخرج إلينا.

كان بيت فاطمة يهتز بشدة، وكان لهب النار واضحاً، من ثغرات الباب وصوت عمر الهجومي يحتد لحظة بعد أخرى..

فجأة إرتفع صوت فاطمة، من خلف الباب، صوت حمل كل حزن العالم:

- يا أبتاه. يا رسول الله ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وإبن

أبي قحافة. تراجع مرافقوا عمر عدة خطوات. فهذا صوت بكاء

وغضب ابنة رسول الله الحبيبة.

لم يستطع البعض السيطرة على نفسه، فانتحب، وبهت البعض الآخر، ينظر إلى بيت فاطمة وبيت النبي (ص).

كان الجميع قد شلت حركتهم، فقد أعادهم الحياء والخرج رويداً، رويداً إلى أنفسهم. ولكن عمر الذي كان قد أصبح وحيداً، وقف متردداً برهة دون أن يلوي على شيء. ثم رجع إلى أبي بكر. كان الجميع يحيطون بأبي بكر، يتحدثون عما حدث مع فاطمة، وما قالت، وما كان البعض يتكلم كأنه يستمع إلى فاجعة.

عاد ابن أبي قحافة وابن الخطاب، إلي بيت فاطمة، ولكن هذه المرة أكثر رقة وأكثر، رفقاً.

كانت فاطمة التي إعتادت على الظلم، ودرجت في أحضان الجهاد، تقف إلى جانب الباب كحارس ومدافع عن هذا البيت، وكأنما تريد أن تحمي علياً - الوحيد -، محاولة عدم الإنهيار والصبر على المصيبة، وإن كانت هذه المرة أشد من أي وقت آخر، وهي ترى نفسها أكثر عجزاً وضعفاً.

تركوا علياً لوحده، بعد أن أصبح فقيراً معدماً وتفرقت عنه المجموعة التي كانت حوله عن رضى أو إكراه. إذ لاخطر من عدم بيعته لهم، وهم يعلمون جيداً أن من المستحيل مبايعة علي لهم، ما دامت فاطمة على قيد الحياة، ففاطمة لا تبدي أي إنعطاف ومرونة نحو السلطة التي تراها مغتصبة. وقد استمرت في سخطها وعدم رضاها ممن إغتصبوا الحق من أهله، حتى وافاها الاجل (ع).

فالنبي(ص) قد مات، وعلي إعتزل الحياة، وصودر إرث فاطمة الذي كان المصدر الوحيد لعيشها وعيش زوجها، وأبنائها، ووصلت السلطة إلى أبي بكر وعمر، وأودع مصير الاسلام والناس بيد السياسة، وأصبح عبدالرحمن بن عوف الذي لايفكر إلا بالمال، وعثمان بن عفان الأسرافى، وخالد بن الوليد المتساهل اللأ أبالي، وسعد بن ابى وقاص الفظ الذي لايتورع، هم عما د خلافة رسول الله الأصليين، وجلس علي في بيته، منشغلاً بتدوين وجمع القرآن. قلقاً على المستقبل، وترك بلال المدينة وانزوى في إحدى مدن الشام ثم صمت إلى الأبد، أما سلمان فقد عاد إلى إيران حزناً يائساً واعتزل في المدائن، وظل أبوذر أنيس النبي، وعمار بن ياسر عزيز النبي، لاعمل لهما.

ولكن فاطمة لم تهدأ. وواصلت حملتها على السلطة الجديدة والخليفة الذي لاتعده أهلاً لها، ولم تتوقف عن السعي من أجل إستعادة فذك، وكان كل هذا السعي هجوماً وانتقاداً، تحاول فيه أن تثبت للجميع أن قصد الخليفة في إغتصابه فذكاً، هو الشر منها وتوجيه ضربة إقتصادية لعلي(ع).

فذك بستان صغير، عند فاطمة وهو أصغر من أن تنازع من أجله ولكن أهمية فذك كانت تكمن في أنها دليل على إغتصاب الحق والجور عند الحكومة الجديدة، وكانت فاطمة تسعى للتنديد بالحكومة من خلال طرحها قضية فذك كي تثبت للناس كيف ان هؤلاء يحرفون الحقائق من أجل مصالحهم أو ينكرونها، وكيف أنهم

لايتورعون حتى عن وضع حديث أو قول للنبي أو مسخ وتشويه
لكلامه، وكى تفهم الرأي العام، أن هؤلاء الذين جعلوا
«سنة الرسول(ص)» شعاراً لهم، كيف يظلمون آل الرسول، فينكرون
حق كل أب وكل ابن في الإسلام، على النبي وإبنته، ويدعون أن النبي
يخلف ذرية ولكنه لا يترك إرثاً. وكانت فذك قد أصبحت قضية سياسية
بالنسبة لفاطمة، ووسيلة للجهاد، وكان إصرار فاطمة عليها من هذا
الباب ولهذا السبب لامن أجل قيمتها الإقتصادية كما يظن أعداء
فاطمة الواعون ومحبوها الجهلة.

فاطمة لم تهدأ، وإن رزئت بفقد ابنيها، وتأثرت بالضربات المتتالية
التي تتابعت عليها، وإن تركها المهاجرون والأنصار وكبار الصحابة،
وبايعوا الخليفة الجديد، إلا مجموعة أقل من عدد الأصابع، برغم كل
هذا ففاطمة لم تسكت ولم تهدأ.

إنها لا تأمل باستعادة الحكم من هؤلاء، وتعلم جيداً أن حق علي
فُقد، وسيطر على الأمور مخططوا الانتخابات الأقوياء، الذين كانوا
قد أعدوا العدة و هيئوا الخطط منذ مدة، ولكن إستقرار القدرة
وتسلط الحكومة و سكوت الناس وتسليمهم امام الحاكم الجديد
لا يخلي فاطمة من مسؤولية الجهاد من أجل الحق وضد الباطل، فعليها
أن تسعى من أجل نصر ولو كان الامل ضئيلاً، وعليها أن تحارب
النظام الحاكم، فاذا إستطاعت غلبته فيها، وإن لم تستطع، فعلى الأقل
انها تؤدى رسالتها في التنديد به، وإن لم يكن بالامكان إسقاط
الباطل، فان من الممكن فضحه، وإذا لم يكن بالامكان إقرار الحق فمن

الممكن إثباته، عرضه، تعريفه للعصر، وإحياءه، وعلى الأقل ليعرف الناس أن من هو على رأس الحكومة، باطل وظلم، ومن هو مطرود ومهزوم وسجين، حق وعدل وحرية.

هكذا كانت المدينة تشهد أغرب مناظر التاريخ جوار مسجد النبي(ص)، رجل يقود إمرأته، في أزقة المدينة الملتوية على مركب.

الماشي هو علي، والراكبة هي فاطمة، حبيبة رسول الله(ص)، يخرجان كل ليلة من البيت، ويتجهان نحو مجالس الأنصار، جمع أكثر إخلاصاً وحيادية، فالمهاجرون أكثرهم من قريش وهم مرتبطون ببعض، تربطهم شبكة سياسية قديمة، والخليفة الحالي منهم، شيخهم المتنفذ، إذن فالجميع لهم حصة في حكومته، أما الأنصار فلا سهم لهم في الحكومة الجديدة، فمرشحهم هو سعد بن عبادة الذي ترك المدينة، واغتيل في الطريق، ولكنهم استسلموا لإستدلال أبي بكر الذي كان مهاجراً ومن أقارب النبي(ص) وشيخ قريش، حين قال: إن رسول الله كان يحب أن يكون خليفته من قريش، ومن أقربائه، ولهذا كله، غضوا النظر عن الخلافة، وتركوا الحكم لأبي بكر الذي كان من قبيلة النبي(ص) وأبا زوجته والزمو أنفسهم بطاعته.

وها هي فاطمة، تذهب إليهم شخصياً كل ليلة برفقة علي(ع)، تمر على مجالسهم وتحدث إليهم، تعدد لهم فضائل علي(ع)، وتذكرهم بوصايا النبي(ص) فتثبت لهم بنفوذها المعنوي، شخصيتها القوية الانسانية ووعيتها السياسي و معرفتها الدقيقة للاسلام وغاياته، وأخيراً قدرتها على الاستدلال المنطقي، احقية علي(ع)، وكذلك

بطلان الانتخابات التي أجريت، وتحذره من العواقب الوخيمة للخدعة التي إنخدعوا بها، ومن المصير القلق المظلم الذي ينتظر الاسلام وقيادة الأمة.

عندما ينقل المؤرخون هذه القصة، لا يذكرون ان الانصار صمدوا ولو مرة واحدة أمام منطق فاطمة، كانوا جميعاً يعطونها الحق في ذلك، ويعترفون بزلتهم وخطئهم الكبير نحوها، وبفضل علي(ع) واحقية مطالبه.

وحيثما تطلب منهم «أن انصروا أبا الحسن في إستعادة الحق الذي يسعى في سبيله»، كانوا يعتذرون جميعاً قائلين:

«باينت رسول الله، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، ولو أن زوجك وابن عمك. سبق إلينا قبل أبي بكر ماعدلنا به». فيسألهم علي بدهشة وألم:

«أفكنت أدع رسول الله في بيته، لم أدفنه، وأخرج أنازع الناس سلطانه؟»

وتقول فاطمة التي ترى علياً، هذه المرة أيضاً وكالعادة، ضحية حبه وفائه للنبي(ص):
«ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغي له وقد صنعوا ما الله حسبهم وطالبهم».

والآن إنتهى كل شيء.

إستسلمت فاطمة للموت، أحست أنها وحيدة إلى حد لا يُتصور، أحست بالوجوه التي كانت دائماً مرافقة لاييها، في كل مكان،

و لسنين طويلة، غريبة عنها و بعيدة فأصحابه الان، يتحدثون عن شئ آخر... المدينة لم تعد «مدينة الرسول» فقد خيم الحكم والسياسة على «مدينة الايمان» حين سكنت تلك الروح العظيمة التي كانت تهب البداوة العريية، العاطفة، والايتار وعبادة الحق، والخضوع للحقيقة وتحسس الفضائل الانسانية وكمالات الحياة وروائعها «الجهاد والايمان والتقوى»، وتدمر العادات البالية والتقاليد القومية المتزمتة، والروابط العرقية القبلية، والغرور والأنانية، والتفاخر، والتحزب، والدناءة والخسة، تحت ضربات أحاديثه الدائمة والتي كانت «سوط أهل اليقين» ومنار الثورة والالتزام والمسؤولية والجهاد والمنطق والتجليات المعنوية للروح، والتحرك المستمر للحياة، وأبعدت عن أنظار قادة السياسة الجديدة، وجوه صحابته الاحبة، الذين كانوا لا يملكون قاعدة طبقية أو قبلية، ولكنهم كانوا كراماً بعين النبي(ص)، مكتسبين شرفهم بالايمان والاخلاص والوعي والجهاد، وتقدمت عليهم «الشخصيات» و«الدهاة»!

وحين إنشغلت الاذان بضوضاء القدرة والحكومة، لم تعد تسمع نداء العاطفة والحب والاخلاص الضعيف الناعم.

لقد بنت شخصية أبي بكر وخشونة عمر وسيف خالد ودهاء عمرو بن العاص سوراً وحصاراً حول المدينة لا يخترق، يضم في داخله الجماهير المرعوبة، والصحابة - الواعين وغير الواعين - ولكن بيت فاطمة بقي خارج هذا السور، فلم يسمع أحد صوتها.

إن أعداء فاطمة(ع) هنا، أقوى بكثير من أعدائها الذين كانت

تحاربهم في مكة، فأبوها الذي كان وحيداً هناك، كان يهتف بصوت عالٍ في المسجد الحرام، مركز قوة العدو، وفي مواجهة دار الندوة - مجلس قريش - بسقوط أكثر من ثلاثمائة وثلاثين صنماً حجرياً، ويقول بثقة عالية ودون أدنى شك أو ضعف أنه سيكسرها كلها بعون الله، ويسفّه آباءهم ويسمهم بالحمق، وينسب مقدساتهم إلى الخرافة والأساطير.

النبي (ص) نفسه، رأيانه، في آخر أيام حياته، وهو في ذروة اقتداره ونفوذه وحب الناس له، لم يستطع أن يحرك جيش أسامة، رغم كل تصريحاته وتأكيداته، ودعائه على المتلكئين وحتى لعنه إياهم. ماذا أقول أنا؟ إنه لم يستطع حتى كتابة رسالة في بيته بين أقرب أصحابه إليه، ولم يستطع ذكر وصيته، وحفظ ماقاله من التحريف والتشويه.

وزوجها علي (ع) بطل عصره المشهور، الذي غير مصير حرب الخندق، الحرب التي هجمت فيها كل قبائل العدو كرجل واحد على المدينة الصغيرة، واتحدت أحزاب الكفر والدين «أي العرب المشركين واليهود» كي يجتثوا جذور الاسلام ويهدموا قلعة «ثورة محمد» على محاربيها والمدافعين عنها.

وهو نفسه الذي كان في حرب أحد، في لحظات مهوله رهيبة سيطر فيها العدو على الجبل، وتشتت فرق المسلمين، وانهار الجيش الاسلامي، وظل النبي (ص) وحيداً جريحاً في موضعه، كان يدور هو حول النبي (ص) كزوبعة ويدافع عنه، ثم يتركه، وينصب على رجال

العدو كعاصفة شديدة، فيقتل منهم ويجرح. ويعود مرة أخرى نحو النبي(ص) يدافع عنه، ثم فجأة يشكل من اليائسين والهاربين جيشاً جديداً، يعيد الحياة والأمل، للقوات الاسلامية المنهارة، ويضطر العدو في ذروة نشوته بالنصر، وامله في قتل النبي(ص)، يضطره لترك القتال والعودة. وهو الذي تلافى هزيمة حنين، وضمن النصر في خيبر.

وهو الرجل يحصد سيفه في مزارع الدم والموت، في صفوف الأعداء كما يحصد المنجل الحاد السنابل اليانعة هذا الرجل إنعزل الان عن الحياة جليساً في البيت تظلمه سحابة من القلق، لم تؤلف في وجهه أبداً، فتقود فكره إلى الافاق المظلمة وأراضي الخوف والقلق.

ماذا دها سيف زوجها المشهور الذي ما كان يعود من الحرب إلا مرتوياً من دم الاعداء يتكئ على الجدار إلى جوار سيف أبيها، ويقول لها بافتخار «إغسلي السيف يا فاطمة» - ماذا دهاه خامداً هكذا، بلا حراك ولا حياة، نائماً في غمده.

إذن ماذا تستطيع فاطمة الوحيدة أن تفعل في حرب بدأت دون وجود أبيها، وبهزيمة علي - حامل الراية المنصور الذي كان يضيف على ساحة المعركة عظمة وجلالاً وشجاعة فائقة -؟

دائماً، كانت الحرب في الجبهة الداخلية، أصعب بكثير وأكثر تعجيزاً للمحاربين، من الحرب في الجبهة التي يكون فيها العدو الأجنبي في الجبهة المقابلة، لقد بدأت الان حرب، ليست عند أبي لهب وأبي جهل وأبي سفيان وهند وعتبة وأممية بن خلف وعكرمة - وجوه الفساد والشر المعروفة - المجردة عن كل معنى

وإيمان و غاية إنسانية، والتي لا تحارب إلا من أجل منافعها حفظ
قوافلها التجارية وأسواق الرقيق، حرب الرجعية والثورية، العبودية
والحرية، الأسر والخلاص، الذلة والسيادة والدناءة والطهارة، وأخيراً
حرب أعداء الانسانية وحماة الجهل والظلام ضد الوجوه الانسانية
ومبشري الوعي واليقظة.

إذن أي حرب هي ومع من؟

في هذه الجبهة، علي وفاطمة، كما كانا في مكة، في بدر، في
أحد، في خيبر، و حنين...، وفي الجبهة المقابلة، أبوبكر، أول من آمن
بالرسول(ص) خارج اهل بيته، صاحبه في الغار، رفيق هجرته، والد
زوجته، ناصره في أيام الغربة والوحدة، وأفنى كل ثروته في سبيل
الايمان به، فاضطر للعمل في المدينة عنداليهود الحقرء وأبناء المدينة
الغرباء من أجل تأمين مصارف حياته، والشخص الذي يشهد كل
الناس، برويته دائماً مع النبي(ص) ووقوفه معه في احلك الايام
وأسوأها، لمدة ثلاث وعشرين سنة.

وعمر، الشخص رقم أربعين الذي التحق بالاسلام في ملجأ
النبي(ص) وأصحابه - بيت أرقم بن أبي أرقم - والذي قوت عزيمة
المسلمين بالتحاقه بهم هو والحمزة عم النبي(ص)، وأوقف كل طاقته
منذ ذلك الحين من أجل تطور هذه الثورة، فكان من أقرب أصحاب
النبي وأبرز المهاجرين، يعتبره الناس من القادة الكبار وصحابة
رسول الله، خصوصاً وأنه والد حفصة، أم المؤمنين.

وأبو عبيدة، المهاجر الكبير، ومن المتقدمين في الاسلام، وعثمان

بن عفان، المهاجر «ذو الهجرتين»^(١) وصهر النبي «ذو النورين»^(٢) رجل محتشم عفيف، ينتسب إلى عائلتين قرشيتين كبيرتين، ومن ساهم مساهمة مؤثرة في الأحوال الخيرية في جمع المسلمين الفقير، فاعتبره الناس وجهاً من وجوه الصحابة القدامى والمهاجرين الكبار، وأصدقاء النبي (ص) وأقاربه.

وخالد بن الوليد، الذي أظهر بطولات عديدة في قتاله ضد أعداء الاسلام، وفي مؤته، كسر تسعه سيوف على رؤوس جنود الروم ولم يكن إلا جندياً عادياً فلقب «بسيف الله». وعمر بن العاص. أحد أربعة رجال من أدهى العرب، التحق بالاسلام منذ سنين وأظهر للامبراطورية الرومانية، في جبهات الشمال، قدرة الاسلام وقوته، وسعد بن أبي وقاص، أول من رمى النبال بوجه العدو في الاسلام، والذي دافع عن حياة النبي (ص) في حرب أحد، بنباله ورميه الدقيق الماهر. دفاعاً امتدحه النبي بشخصه...

وآخرون، وآخرون، وكذلك تأيد كبار المهاجرين والأنصار وكل السادة وقادة الجيوش وأقرب صحابة النبي (ص) ومرافقيه...

والشعارات؟ ليست الوثنية والشرك والاساطير وتجارة قريش وشرف القبيلة، بل إقرار التوحيد وتوسيع بلاد الاسلام، وجمع وإشاعة القرآن الكريم والزهد وخدمة الناس، ورضا الله وتنفيذ حدود الله

(١) هجرته إلى الحبشة ثم إلى المدينة.

(٢) لزوجته من رقية بنت النبي (ص) ثم أم كلثوم بعد وفاة الأولى.

واحكام الشرع، وأخيراً إحياء «سنة رسول الله» ... حفظ وحدة المسلمين واتحادهم.

ولكن، هنا، يُداس وبين كل هذا الضجيج حق من الحقوق، بهدوء وسهولة! حق علي(ع) كيف؟ ببساطة، وبمنطق متعقل، وخوفاً على مصير الأمة والاسلام، وخطر التمرد الداخلي وضغط العدو الاجنبي وخشية تفرق المسلمين ... على اية حال، «ليس من الصالح ان يتبوأ مقاليد الامور الان، شاب في الثلاثين من عمره حاد الطبع بسوابق كثيرة، زرعت الحقد عليه عند كثير من الناس، وبتصرفات، أغضبت كثيراً من الأسر المتنفذة، والشخصيات المؤثرة، ومراكز القوى التي لهايد في الأمور، ورجل في المجتمع!»

«لازال الأمر مبكراً لعلّي» «وليس من مصلحة الاسلام الان» أجل «الصالح والمصلحة». هذا السوط المشؤوم الذي سلط دائماً على رقبة «الحقيقة».

المصلحة، التي ذبح بها الدهاة الحقيقة دائماً، ذبحاً شرعياً! مستقبلين القبلية وباسم الله!

وما أسهل ذلك! وما أقل ضوضاء! دون أن يعرف أحد بما يجري، دون أن يستيقظ أي نائم! دون أن يثور الناس، دون أن يستطيع أحد توعية الناس ودون أن يستطيع أحد أن يعرف «الحقائق» المختنقة تحت ضربات «المصالح» المكتومة وأخيراً دون أن يستطيع، أي هتاف، وإعتراض، أيّ جهد، أن ينقذ الحقيقة، ويعمل شيئاً ضد القدرة المسلحة بسلاح «عبادة المصلحة».

لاستطيع، وإن كانت هي جهود فاطمة، ومسايعها، وهتا فاتها
واعتراضاتها وآهاتها! فعندما يرتدى الجور لباس التقوى، تقع أكبر
كارثة في التاريخ

الكارثة التي راح ضحيتها على وفاطمة ثم أبناؤهم وأخلافهم!
بدأت فاطمة تشعر أنه ليس من الممكن القيام بشئ ضد هذه
الكارثة التي إبتدأت وفجأة، أحست بتعب مر من الجهاد وتحمل
المصائب والالام. والمصاعب ومرارة الحياة، وأحسنتها ثقيلة على
جسدها وروحها.

فقد تأكد لها أن كل شئ إنتهى، وعلمت أنها لا تستطيع شيئاً
لإنقاذ ما لم يستطع النبي(ص) ولا علي(ع) إنقاذه.

إسودت الافاق أمام عينيها، ووصلت «قطع الليل السوداء» - التي
أخبر عنها أبوها في آخر أيام حياته - ما الذي سيحدث غداً؟ وما الذي
سيجرى على ثمار جهود أبيها الكثيرة تحت رحمة الرياح الباردة
للسياسة والمصلحة التي بدات تهب؟

بأي يد سيقع مستقبل هذه الأمة الفتية، ومصير هذه الأمة التي
دائماً ضحية سياسات أسرية وطبقية؟

هاقد إنتشرت رائحة القومية والطبقية في الجو. و«البيعة» بدلا عن
«الوصاية» كيف يمكن أن يتغلب رأي قبيلتي الاوس والخزرج اللتين
تباعان «رئيسهما» ورأي قريش التي تنتخب «شيخها» على
رأي النبي(ص)؟ وأي وعي هذا الذي يملكه هؤلاء الذين يجمعون
في السقيفة على سعد، ثم يغيرون رأيهم ويجمعون على «أبي بكر»

لحملة واحدة منه. أي وعي هذا الذي يغنيهم عن تدخل النبي (ص) في مصيرهم السياسي؟ والغريب ان هؤلاء هم من نفس مدينة النبي (ص) قد عاشوا، وجاهدوا وهاجروا معه، وغداً إذا رحل الاسلام ومضى هذا الجيل، فأأي مصير ستصنعه هذه «البيعة» للناس؟ من سينتخبون؟ ومن سيرشحون؟

وإذا أبعد هؤلاء الذين هم أكثر مهاجري الاسلام تضحية وأثبت أنصار النبي (ص) جيل الاسلام الاول، إذا أبعدوا علماً عن الساحة بهذا الشكل، إذن ماذا سيفعل جيل الغد وسياسيو الغد - لم يتراجعوا في جو الايمان والتقوى والجهاد - ماذا سيفعلون بأبنائه؟ ان بالامكان التنبؤ بمستقبل الحسن والحسين وزينب منذ الان، ومعرفة ما يكون عليه مصيرهم.

ان قعود علي في البيت وإعتزاله السياسة، بداية تاريخ مهول دام، وسيتبع بيعة السقيفة - التي بدأت بهدوء ودهاء - بيعات دامية كثيرة، فذلك بداية الاعتصابات الكبيرة والظلم الكثير الذي سيقع في الغد.

الغد، أسود، رهيب ودام، وغارات ومذابح وتعذيب!
و«خلافة الغد» مصيبة كبيرة على الاسلام، وكارثة ثقيلة على البشرية.

ولكن، ماذا يمكن القيام به الان، ففاطمة حاولت بكل جهودها كي لا يصنعوا أول حجر في البناء بشكل أعوج، مشوه! إلا أنها لم تستطع. شعرت أن مدينة النبي (ص) صماء أمام صراخها، وقلبها «حجر» مقابل صمت علي (ع)! الصمت الذي ينزل كالصاعقة على

كل قلب يحس، ويفهم علياً، ويعرف العصر.

آه! ما أقسى الانانية. خصوصاً إذا تسلحت بالمصلحة،
وإستطاعت تبرير نفسها بالعقيدة والدين، عندها ستضطر الصحابي
المخلص المضحي، لاغتصاب الحق، حتى حق علي.

ها هي فاطمة قد تعبت وأنهكت، أعياها عمر كامل في تحمل
عبء رسالة الأب وصعوبة الجهاد ضد جاهلية القوم، وحياة حافلة
بالالام والأخطار والفقر والعمل والسعي من أجل غاية بعيدة عن جبر
الزمن. حزينه باكية لفقد أبيها، الذي عُجنت حياتها بحياته، وقلقة
على مصير علي - الذي لا يُحتمل - والذي أصبح جليس البيت بعد
عمر من الجهاد ضد العدو، على يد الصديق، وضحية قدرة جاءت
بقوة ايمانه وسيفه وتضحيته وإخلاصه، وهي الان تعب، يائسة من آخر
جهود بلائمر تبذلها من أجل إستعادة حق «أبي الحسن» ومن أجل منع
سقوط مايريد أن يسقط... ولم تستطع منعه!

لم يعد السعي فقط، بل حتى التحمل مستحيل بالنسبة لها.
لاتحمل مايجري في الخارج فحسب، بل حتى تحمل مايجري في
بيتها، وأيضاً. تحمل الصمت الرهيب الذي يسود «البيت المجاور».

فلقد أغلقت تلك «النافذة» أيضاً، ولم تبق من النافذتين اللتين
كانتا تفتحان بوجه بعضهما، وتبتسمان لبعض، فتهبان أمواجاً من
اللطف والحنان والأمل لبيت فاطمة، إلا واحدة، اما الأخرى فقد
أغلقها الموت إلى الأبد.

أغلقت السياسة باب بيتها. وهي الان سجينه في هذا البيت.

بجوار علي - الجالس كجبل من الحزن صامتاً صمتاً قيد بين أطباقه
بركاناً مهيباً - وبين أبناء النبي (ص) الذين تقرأ على محياهم البرئ
الحزين مصير غد كل واحد منهم.

فقد أصبحت الحياة بالنسبة لها «مؤلمة منهكة»، والبقاء عبثاً ثقيلاً
لاستطيع أكتاف فاطمة العاجزة تحمله يتقدم الزمن ثقيلاً، هادئاً على
قلبها الجريح، ويمضي كل لحظة، كل دقيقة وكل خطوة.

إنها لا تجد عزاءها إلا عند قبر أبيها الحنون، وفي البشرى التي
بشرها بها قائلاً: «يا فاطمة، ستكونين أول أهل بيتي لحوقاً بي».

ولكن متى؟ يا له من إنتظار صعب.

تتلوى روحها المتأللة المضامة، - كطائر جريح كسير الجناح -
سجينة في قفص الحزن. ثلاثة جدران من الحزن: وجه زوجها الصامت
المتألم، محيا أبنائها الحزين، وقبر أبيها البارد الساكت في أحد أركان
بيت عائشة.

كلما عصرت قلبها قبضة الالم، وأختنقت بعبراتها، وأحست
أنها بحاجة ماسة لحنان أبيها، ذهبت إليه، إرتمت على قبره، وتعلقت
عينها، المورمتان من فرط البكاء بترابه الصامت، وفجأة تنوح، كما لو
أنها سمعت خبر وفاة أبيها لأول مرة، وتغطس أصابعها في التراب،
ثم تملأ يدها الخالية منه محاولةً رويته من خلال دموعها، تهيل التراب
على وجهها، وتشمه بكل العاطفة التي كانت تحب بها أباه، فتهدأ
للحظة، كأنها وجدت في ذلك عزاء لها،... فجأة تبدأ بالانشاد
بصوت متقطع من الالم:

ماذا على من شَمَ تربة أحمد
ان لا يشم مدى الزمان غواليا
صبت على مصائب لو أنها
صبت على الايام عدن لياليا!

فتهدأ تدريجياً، تتساقط «تربة أحمد» من بين أصابعها النحيلة،
فتابعه بنظراتها - دون أن تبدي أية مقاومة - مبهوثة متألمة، وعندها،
تفرق في صمت ذاهل كروح فارقت الحياة لاتبكي ولاتضحك
كانت تبكي كل آلامها عند بكائها على موت أبيها، كل يوم،
كأنه يوم وفاته الأول. ويزداد حزنها يوماً بعد آخر، فتشتد
آلامها، تتجدد، وعندما تجتمع لديها نساء الأنصار ييكن على بكائها،
تشكو الظلم الذي نالهم وحقهم الذي اغتصب، بين ضجيج البكاء،
وانهمار الدموع.

لقد كان حزنها أشد وأكثر من أن يستطيع أحد عزاءها
والتسلية عنها. هكذا كانت الأيام تمضي، الصحابة فرحون بما غنموا،
وعلي صامت، حزين، وفاطمة بانتظار الموت، وحلول موعد البشرى
التي أعطاها إياها أبوها.

فكانت تزداد شوقاً للموت، كلما مر يوم، وهذا الانتظار هو
نافذتها الوحيدة من أجل الهروب من الحياة، تأمل أن تلجأ الى أبيها
بروح طافحة بالالام والشكوى وكم هي محتاجة للملجأ ومستقر كهذا؟!
ولكن الزمن يمضي بطيئاً. فقد مضى خمسة وتسعون يوماً منذ
بشرها ابوها بالموت، والموت لا يأتي.

ولكن لا!

فاليوم هو الإثنين، الثالث من جمادي الثانية، السنة الحادية عشرة للهجرة، سنة وفاة النبي.

قبلت أطفالها واحداً، واحداً، الحسن ذا السنوات السبعة، الحسين، ذا الست سنوات، وزينب ذات الخمس وأم كلثوم ذات الثلاث سنين. وها هي لحظة وداع علي.

ما أصعبها!

فعلي، يجب أن يبقى في الدنيا،

ثلاثين عاماً أخرى!

أرسلت إلى أم رافع خادمة النبي (ص) أن تأتي.

إغتسلت بدقة وهدوء عجيب، ثم نضت عنها ثياب الحداد ارتدت ملابسها الجديدة كأنها خرجت من حداده توأ، وتوجهت نحوه، للقاءه.

قالت لام رافع:

ضعي لي فراشاً وسط البيت.

إضطجعت على فراشها بهدوء، وهي مستقبلة القبلة، وانتظرت، مرت لحظة، ولحظات... وفجأة... إرتفع العويل من البيت.

لقد أغمضت فاطمة عينيها، وبوفاتها إنطفأت شمعة من نار وألم في بيت علي (ع). وبقي عليّ وحيداً. مع أطفاله.

كانت قد طلبت منه دفنها ليلاً كي لا يرى أحد قبرها، ولكيلا يشيع الشيخان جنازتها.

وهكذا فعل علي.

ولكن أحداً لا يدري كيف؟ وأين؟

في بيتها؟ في البقيع؟ لأحد يدري.

وفي أي مكان من البقيع؟ لأحد يدري أيضاً^(١).

علي؟ بقي وحيداً، في البيت، وفي المدينة، كجبل من الألم.

والليل، - صامت حزين - ينصت إلى همس مؤلم، المدينة الخائنة

التعيسة، والبقيع الهادئ السعيد، صامتان يستمعان إلى القبور اليقظة

والبيوت النائمة. ونسيم منتصف الليل، يأتي بكلمات يقولها علي(ع)

جوار قبر فاطمة، ويحملها نحو بيت النبي. الصامت:

«السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك من إبنتك وحببتك

وقرة عينك وزائرتك والبائسة في الثرى يبقعتك المختار الله لها سرعة

للحاق بك، قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري وضعف عن سيدة

النساء تجلدي، إلا أن في التأسّي لي بستّك والحزن الذي حلّ في

لّفراقك، لموضع التعزّي ولقد وسدتك في ملحود قبرك بعد أن فاضت

على صدرى نفسك وغمضتكَ بيدي وتوليت أمركَ بنفسي.

«إنا لله وإنا إليه راجعون، قد استرجعت الوديعه وأخذت الرهينة

أما حزني فسرمد، وأما ليلي فمسهد، إلى ان يختار الله لي دارك التي

(١) على المحققين أن يحققوا، أنا لست محققاً، ولا أحب التحقيق، لا أريد أن

أجد مكان قبرها. فمدفنها يجب أن يبقى دائماً مجهولاً، كي يبقى ما أرادته معلوماً

وهي التي أرادت ألا يعرفوا قبرها، في أي وقت. كي يبقى الجميع يتساءلون وإلى

الأبد: لماذا؟

أنت بها مقيم.

وستنبؤك إبتك بتظافر امتك على وعلى هضمها حقها
فاستخيرها الحال فكم من غليل معتلج بصدرها لم تجد إلى بئ سبيلاً،
وستقول (ويحكم الله بيننا و هو خير الحاكمين).

سكت لحظة، أحس بتعب عمر من الالم فجأة في روحه.
كأن كل كلمة من هذه الكلمات، قطعة من وجوده، تقتطع من
صميم روحه.

ترك وحيداً، فريداً، ما كان يدري أي شئ يفعل، أبقى؟ أيعود؟
كيف يترك فاطمة لوحدها هنا؟ كيف يعود لوحده إلى البيت؟
والمدينة! إنها تبدو كمارد، كمن في ظلام الليل البشع. تنتظره بالاف
المؤامرات والخيانة.

أو ان يبقى فكيف يبقى؟ أطفاله؟ الناس؟ الحقيقة؟ المسؤوليات
التي تنتظره هو، والرسالة التي عقد عليها العزم، وعاهد الله عليها؟
كان الألم محضاً الى درجة أعجز روحه القوية
المقتدرة، لا يستطيع أن يتخذ قرارة، والتردد يشله أيذهب؟ أبقى؟
يشعر أنه عاجز عن كليهما، وهو لا يدري أي شئ يفعل،...
يشرح للرسول قائلاً:

«سلام عليك يا رسول الله، سلام مودع لاسأم ولاقال، فان
أنصرف فلا عن ملاله، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله
الصابرين، الصبر أيمن وأجمل، ولولا غلبة المستولين علينا لجعلت المقام
عند قبرك لزاماً والتلبث عنده معكوفاً ولأعولت لإعوال الشكلى على

جليل الرزية، فبعين الله تدفن إبتك سراً ويهتضم حقها قهراً ويمنع إرثها جهراً ولم يطل العهد، ولم يخلو منك الذكر، وإلى الله يا رسول الله المشتكى، وفيك أجمل العزاء».

هكذا عاشت فاطمة. وهكذا ماتت، وبعد موتها، بدأت حياة أخرى في التاريخ، فقد كان هنالك قبس من محيا فاطمة على وجه الكثير من المظلومين في تاريخ الاسلام، المغصوب حقهم، وكل ضحايا الجور والخذاع، إتخذوا من إسم فاطمة شعاراً لهم، واختلط ذكر فاطمة بحب وعواطف وإيمان كثير من النساء والرجال الذين حاربوا في تاريخ اسلام من أجل الحرية والعدالة، فنما وترعرع تحت أسواط خلافة الجور وحكومات الغضب والظلم القاسية الدموية، وملاً كل القلوب المحبة.

ولهذا كانت فاطمة، في كل مكان من تاريخ الشعوب الاسلامية، والقطاعات المحرومة في الامة الاسلامية، منبع إلهام الحرية والعدالة والجهاد ضد الظلم والقسوة والتمييز.

فالحديث عن شخصية فاطمة صعب جداً. فاطمة، كانت «المرأة» كما يريد الاسلام للمرأة أن تكون، فصور ملامحها، ورسمها النبي(ص)، وصقلها ورباها وعلمها تحت أضواء الفقر، والتعليمات الانسانية العميقة.

فأصبحت نموذجاً لكل أبعاد «المرأة» المختلفة.

نموذج الابنة تجاه أبيها

نموذج الزوجه تجاه زوجها.

نموذج الام تجاه أبنائها.

وتجسيد «الإمرأة المناضلة المسؤولة» تجاه عصرها ومصير مجتمعتها.

فهي بنفسها كانت «إماماً» أي نموذجاً مثالياً للمرأة. «أسوة»

و «شاهداً» لكل امرأة تريد ان تختار «ان تكون نفسها».

فأجابت عن سؤال المرأة المألح: «كيف تكون؟»، بطفولتها

التميزة، بجهادها المستمر في الجبهتين الداخلية والخارجية،

في بيت أبيها، بيت زوجها، في مجتمعتها، في فكرها وسلوكها،

وحياتها.

وبعد! لأدري ماذا أقول؟ قلت الكثير، ولم أقل شيئاً.

ولكن، الشيء الذي لفت نظري وأهمني من بين كل مظاهر

روحها العظيمة، هو كونها رفيقة سفر وحياة وسمو روح علي

العظيمة.

فهي لم تكن زوجته فقط، لان علياً كانت له نساء أخريات

بعدها، ولكنه نظر إليها، كصديقة، عارفة بهومومها وغاياتها الكبيرة،

كانت أنيس خلوته ورفيقة وحدته.

لهذا كان يراها علي(ع)، بعين أخرى، هي وأبناءها.

بعد فاطمة، يتزوج علي، فيرزق بأبناء، ولكنه يبقى يفضل

أبناء فاطمة على بقية أبنائه، ويسميه «بني فاطمة»، بينما يسمى البقية

«بني علي».

عجباً كيف ينسب الابناء إلى أمهم رغم وجود أيهم، وبرغم

كونه علياً!

وكذلك، رأينا النبي (ص) ينظر إليها بعين أخرى، يتشدد عليها من بين كل أخواتها، ويعتمد عليها أيضاً، يخاطبها بدعوته الكبيرة رغم صغر سنها.

والآن؟ لأدري ماذا أقول عنها، وكيف أقوله؟
أردت أن أقلد أحد أكبر خطباء فرنسا في حديثه عن «مريم» مرةً أمام «لويس» فقال:

ألف وسبعمئة عام، وكل خطباء العالم يتحدثون عن مريم.
ألف وسبعمئة عام وكل فلاسفة ومفكري الشعوب، في الشرق والغرب، وهم يشرحون فضائل مريم.

ألف وسبعمئة عام والشعراء، يستخدمون كل قواهم ومواهبهم وقرائحهم في مدح مريم.

ألف وسبعمئة عام وكل فناني، رسامي، ونحاتي الشعوب، وهم يخلدون المعاجز الفنية في إظهار محيا وحالات مريم.

ولكن، كل هذه الكلمات والاقوال، والأفكار والجهود، طوال هذه القرون العديدة، لم تستطع أن تبين عظمة مريم كما بينتها هذه الجملة:

«مريم هي أم عيسى!»

وأردت أنا أن أتحدث عن فاطمة بنفس الأسلوب، ولكنني عجزت.

أردت أن أقول: فاطمة هي بنت خديجة الكبرى.
وجدت أنها ليست فاطمة.

أردت أن أقول: فاطمة هي بنت محمد(ص).
وجدت أنها ليست فاطمة.
أردت أن أقول: فاطمة هي زوجة علي(ع).
وجدت أنها ليست فاطمة.
أردت أن أقول: فاطمة هي أم الحسين.
وجدت أنها ليست فاطمة.
أردت أن أقول: فاطمة هي أم زينب(ع).
وجدت أنها ليست فاطمة أيضاً.
كلا! فهذه كلها هي، وليست هي كلها!
«ففاطمة» هي فاطمة!

المحتويات

الموضوع	صفحة
الإهداء	٨
حديث مع القارئ (مقدمة المؤلف)	٩
الفصل الأول	١٣
النبوغ وعبادة الحقيقة	١٨
نحن والناس	٢٦
العقل والحب	٢٦
الدمع	٢٨
آل علي؟ المثقف؟ أم الناس؟	٣٩
ثلاثة وجوه للمرأة	٥١
الصالح والطالح	٥٢
الدين والتقليد	٥٣
سنة نبي الإسلام (ص)	٥٧
أسلوب النبي الخاص	٥٧
ثلاثة مناهج معينة	٥٨

٥٩	الاستدلال المنطقي للمحافظ
٦٠	استدلال المصلح الثوري
٦٠	إستدلال المصلح النشؤني
٦٤	الواقعية أداة في خدمة المثالية
٦٥	(زواج التمتع) الغربي
٧٣	لا المثالية ولا الواقعية، بل كلاهما!
٨٢	قالبان لصياغة الإنسان
٩٧	المرأة في الدور الثقافي والقاعدة الإجتماعية للعصر الحديث
١٠٢	الوحدة
١٠٥	تكوين الأمرة
١٠٨	المرأة في النظام الإستهلاكي: الجنس بدل الحب
١١٠	في الشرق
١١٣	دور المرأة في هذا الهجوم
١١٤	الظالم والمظلوم
١٢٥	نداء الإستعمار
١٢٨	ماذا يجب أن نفعل؟
١٤٠	فاطمة
١٤٤	أم أبيها
١٥٩	الهجرة
١٦٤	الفصل الثاني
٢٣٣	المحتويات

فاطمه فاطمه احمد

در هیچ جنین مقدس، قرار نبود که من را مقدس برنامه ای داشته باشم، اما چون با کار عظیمی که پروفیسور لوسی ماسینیون - انسان بزرگ و اسلام شناس بزرگوار - درباره حضرت فاطمه (ع) انجام می داد، تماس مختصری داشتم و از تحقیقات آن بزرگ - درباره زندگی و شخصیت حضرت فاطمه (ع) و بخصوص "زندگی بر برکتش پس از مرگ" و تأثیرش در تاریخ اسلام و در زنده داشتن روح عدالتخواهی و مبارزه با ظلم و تبعیض در جامعه اسلامی ویژه، بعنوان مظهری و نشانه ای از راه و حقیقت اصلی اسلام - که به عدالت و اخلاقی و خارجی منحرف شده بود - سود های بسیار بردم، به عنوان یک شاگرد، گوشه کوچکی از این کار بزرگ را داشتم (مخصوص در مرحله اول کار که خواندن و جمع کردن آوری همه اسناد و اطلاعاتی که در طول چهارده قرن، به همه زبانها و لهجه های محلی اسلامی، درباره حضرت فاطمه وجود دارد، اهم از اشاره ای تاریخی در سندی یا حتی سرودی در لهجه ای) گفتند که اشب گزارشی از این کار در اینجا، عرض کن، و چون هنوز این کار عظیم منتشر نشده است و آن بزرگ زندگی را تمام کرد و کار را ناتمام گذارد، و غالباً اروپائانی که با اسلام آشنا نیستند نیز از این کار بی اطلاعند و این موجب شده است که حتی دانشمندان ماهر که با کارهای اروپائیان درباره اسلام آشنائی دارند از آن بی اطلاع باشند، این دعوت را پذیرفتم و گفتم که اختصاصاً برای دانشجویان در سهای "تاریخ و شناخت ایران" و "جامعه شناسی مذهبی" و "اسلام شناسی" - که در ارشاد آغاز کرده ام - خطوط اصلی و نتایج برجسته علمی و تاریخی تحقیقات

1 - Louis Massignon

2 -

3 - بزرگوار یادش است ای کفایت، آی دی را در ماده حضرت فاطمه - که چند میلیون پیش است - اگر

Louis Gaudet

مساله برایشان حل شده است .

اما در میان این دو نوع "زبان قالبی" - آنها که نه می
توانند آن شکل قدیم موروثی را تحمل کنند و نه به این شکل تحمل
تسلیم شوند چه باید بکنند ؟

اینان می خواهند خود را انتخاب کنند ، خود را بسازند ،
الگو می خواهند ، نمونه امده آل .^۱ برای اینان 'مساله' ^۲ چگونه
شدن " مطرح است ، 'وقایعه' (تاریخ) با "بودن" خویش ، پاسخ
به این پرسش است .

خواستم به توصیف تحلیلی از شخصیت 'حضر قاطعه' اکتفا
کنم ، دیدم که گاهی خواننده ها و روشنفکران مآشرح حال وی را نمی
دانند .^۳ ناچار نوشتم 'ناحده' این کبود را جبران کنیم .

این است که رساله حاضر - که همان کنفرانس است که به سبب
بیشتر یافته - حاوی شرح حال مستندی از این شخصیت محبوب ،
ولی ناشناخته باشد شناخته شده .^۴ در این شرح حال ، تکیه اساسی
بر اسناد کهن تاریخی است و در آنجا ها که مسائل اعتقادی و قاطع
تشیع مطرح می شود ، من مأخذ را از اهل تسنن انتخاب کرده ام ،
چه ، تشیعی که از منابع تسنن برآید ، از نظر علمی و تاریخی ، تردید
ناپذیر است ، و وجهه 'سطوم' و 'سیره' و 'فایده' تمام نمای تشیع علی - در چشم اعراف .

تسلی من است که این کنفرانس از اعتقاد بی نیاز است ، بلکه برعکس ،
سخت نیازمند است و چشم براه صاحب نظران پاکدل ، آنها که از راهمائی
خدمتگزاران بیشتر لذت ببرند تا کینه توزی و دشنام و بهتان !

علی شریعتی

اینکه میفرمایید که سکه ای بود ، برت و آله ای که در جوار آل قم و قم ایام این چه وضع و حقه
را در سکه و باله انداز کرده چه و شرف حال برسد به دل برسد برت ، در تکیه بر آن نوشته است برت
بر کینه نوشته ام و ای برت که پیش از ما طبع شد که برت ، نویسی در آن و از آن رو ، بنویسند که
و آله ام که طبع شد که برت

و جانشگتن میبرد :

" محمد ، قرآن ، علی ، فاطمه ، حسین ، زینب ، عدالت ، امامت و تقوی ،

احتشاد ، جهاد ، شجاعت ، شهادت ، کربلا ، محمد ،

پس چرا از اینها - که هر کدام امتیازاتی دارند و پیروی و حمایت

میتواند بخشید ، هیچکدام اثری ندارد ؟ پس چرا اینها عشقها و احساسها

و اشک ها را بر این به این مفاهیم لبریز از حیات و حریت و دروفا به این

جبهه های سرشار از جلالت انسان ، هیچ شعری نمی بخشند ؟

پس مگر چیست ؟

در يك كلمه : عقا ل

چرا که در اسلام ، علم ، دانش ، تفکر ، اندیشه ، و ... اینها را به عنوان یک امر مقدس و الهی می دانند و به آن احترام ویژه ای می دهند .

در اسلام ، عالم يك داننده ، بی تعبد و دارنده ، مشتی با خرواری با

خرشی " دانستی " نیست ، علم ، در مغز او ، انبوهی از معلومات و اطلاعات

نیست ، در دل او پرتوی از " نور " است ؛ " نوری خدائی " . این تعبیر

خاص - که در سخن پیغمبر است - يك مفهوم اسرار آمیز فیهی ماوراء الطبیعی

ندارد ، علم لدنی و اشراق عرفانی و آن مسائل نیست ، همچنین ، علم فیزیکی

و شیمی و تاریخ و جغرافی و فقه و اصول و فلسفه و منطقی نیست - که اینها

همه " معلومات علمی " اند و نه " نور " علمی که نور است ، علم مشغول است ، علم

هدایت ، " علم عقیده " (۲) - که در زبان قرآن " فقه " نام دارد ولی امروز

به معنی " علم احکام شرعی و فقهی " است ، این عالم ، در تاریکی و تاریکی کار

نمیکند ، او فضا را روشن میسازد و شب را می شکند ، راه را نشان می دهد ، استاد

شاگردان و حکیم خواص نیست ، معلم مردم است ، علم او علم آگاهانه ای

افلاطونی نیست ، علم رسالت پیامبری است . اینگونه عالمان اند که " وارشان

پیامبران " خوانده شده اند .